

المملكة العربية السعودية

جامعة الملك سعود

كلية التربية

قسم الثقافة الإسلامية

الدراسات العليا

شعبة العقيدة

التوكل عند الصوفية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

قدمت هذه الرسالة لنيل درجة الماجستير في قسم الثقافة الإسلامية
كلية التربية جامعة الملك سعود

اعداد الطالب

جمعة بن خليف العنزي

اشراف

الأستاذ الدكتور / محمد طلعت أبو صير

الرياض

المملكة العربية السعودية

جامعة الملك سعود

كلية التربية

قسم الثقافة الإسلامية

الدراسات العليا

شعبة العقيدة

التوكل عند الصوفية

في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

قدمت هذه الرسالة لنيل درجة الماجستير في قسم الثقافة الإسلامية كلية التربية جامعة الملك سعود



إعداد الطالب

جمعه بن خليف العنزي

إشراف الأستاذ الدكتور : محمد طلعت أبوصير

الرياض

١٤١٦ هـ

المملكة العربية السعودية

جامعة الملك سعود

كلية التربية

قسم الثقافة الإسلامية

الدراسات العليا

شعبة العقيدة

التوكل بمنزلة الصوفية

في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

قدمت هذه الرسالة لنيل درجة الماجستير في قسم الثقافة الإسلامية كلية التربية جامعة الملك سعود

إعداد الطالب

جمعه بن خليف العنزي

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ / / وتم إجازتها •

أعضاء اللجنة

أد: محمد أبو الغيط الفرت

د: رزق الشامي

المشرف

أد: محمد طلعت أبوصبر



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذي أمر عباده بالتمسك بالنهج القويم ،
والاعتصام بحبله المتين قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا
تفرقوا ٠٠٠ ﴾ الآية (١) ، وحذر من اتباع الهوى في أمر الدين قال تعالى
﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ٠٠٠ ﴾ الآية (٢) ، ونص على
طاعة سيد الخلق أجمعين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء
 والمرسلين ، الذي حمل أشرف رسالة ، وكلف بأجل مهمة ، وحقق بذلك
أسمى غاية ، وبيعته كمل الدين قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ٠٠٠ ﴾ الآية (٣)

أخرج بدعوته - صلى الله عليه وسلم - الناس من الظلمات إلى النور ، ومن
عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد القهار ، ولم يلقَ - صلى الله عليه وسلم -
وجه ربه - تعالى - حتى أوضح لأمته الخير والشر ، وبين معالم الدين
ورسوم الطريق قال - صلى الله عليه وسلم - (لقد تركتكم على مثل
البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ بعدي عنها إلا هالك) (٤) ، فمن تمسك
بهديه أفلح وفاز ، ومن حاد عنه خاب وخسر ، ومأواه جهنم وسوء
المصير ، قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في
الآخرة من الخاسرين ﴾ (٥)

(١) سورة آل عمران جزء من الآية ١٠٣

(٣) سورة المائدة جزء من الآية ٣

(٢) سورة القصص جزء من الآية ٥٠

(٤) السنة لابن أبي عاصم الشيباني تحقيق محمد ناصر الدين الألباني طبعة المكتب الإسلامي

حديث رقم ٤٨

(٥) سورة آل عمران آية ٨٥

أما بعد: فمن الحقائق الواضحة أن الخلق ليسوا أتقياء وخيرين جميعاً ، بل منهم الأشرار ، والحاسدون ، ومنهم المنحرفون والضالون والمنافقون وأصحاب الشبه والأهواء ، فهؤلاء مهمتهم محاربة كل خير ، ومقاومة كل إصلاح ، وعلى هذا فلم يكن الإسلام استثناءً في ذلك ، فمنذ بزغ فجره الأول تكالب هؤلاء ضده وحاكوا المؤامرات ودبروا الخطط لايقاف وهج هذا الضياء الساطع ، ولكنهم لم يفلحوا في تحقيق أهدافهم ، بل كل ما ازدادت محاولات هؤلاء ضراوة وشراسة ، ازداد الإسلام قوة وصلابة ، وشموخاً ورفعة ، مما أجج الحقد في قلوبهم ، ولما أعيتهم الحيل وسدت في وجوههم السبل ، لجأوا إلى المكر والخديعة وإيهام الناس أن كل أفعالهم منسجمة مع أسس الإسلام ومبادئه الخالدة ، ومن جملة الطوائف التي لم تلتزم بتعاليم الإسلام التزاماً يشفع لها بشرف حمل اسمه ، بعض ممن ينتسبون إلى التصوف - وهم كثير - الذين اختاروا لطريقتهم اسماً غريباً عن الدين الحنيف ، وزعموا أنه من وضع الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام - رضي الله عنهم - تدليساً على الناس وغشاً لهم ، والتصوف الذي ارتضوه شعاراً ومنهجاً لطريقتهم ؛ إما أن يكون هو الزهد الإسلامي ، أو يكون مغايراً له ، فإن كان هو الزهد فالأولى استعمال هذا اللفظ الإسلامي والتقييد بأسسه التي وردت في الشرع بدلاً من التصوف ، أما إذا كان مغايراً له فلا بد له من أسس وأطر تخالف روح الزهد حتى يستحق أن يُطلق عليه اسم مختلف .

وحسب ماترسخ لدي من اعتقاد اكتسبته من خلال البحث والاطلاع ، أن التصوف ليس هو الزهد ، وإنهما مغايران لبعضهما ، وإنما

التصوف هو انحراف خطير في فهم الزهد ؛ لأن التصوف لم يأخذ من الزهد إلا الجانب السلبي وهو جانب الترك ، و الزهد المشروع المحمود هو : فعل وترك ؛ فعل كل مافيه خير الدنيا والآخرة ، وترك كل مافيه شر في الدنيا والآخرة ، وأما التصوف فإنه ترك جُل مافيه خير الدنيا ، وفعل ما ليس فيه خير في الدنيا والآخرة (١) ، ويتمثل ذلك بوضوح في فهم الصوفية لعقيدة التوكل ، والتي أساء الصوفية فهمها على الرغم من شدة وضوحها ، ووضوح دلالات نصوصها الشرعية ، فحولوا بهذا الفهم السقيم التوكل من حافز شرعي ومعنوي للعمل والانتاج ورفعة الإسلام وتحقيق خيري الدنيا والآخرة إلى سلوك خاطئ يدعو للكسل والخمول والبطالة وترك كثير من الواجبات المطلوبة شرعاً مما ترتب عليه الحاق الضرر والأذى بالإسلام وأهله من خلال تحول قطاع عريض ممن يتبعون طريق التصوف إلى عاطلين وسلبيين في شتى مجالات الحياة ، وتحولوا إلى عالة على المجتمع الإسلامي يضطر في النهاية إلى خدمتهم والتكفل بأرزاقهم ومعاشهم ؛ لأنهم لم يستطيعوا كسب عيشهم بمفردهم ، لزعيمهم أن ذلك يُناقِي التوكل الذي أمروا به ، مما جعل التصوف يصبح طريقاً سهلاً لكل من يبحث عن الراحة والدعة ويريد أن يُلقى هموم معاشه ورزقه على الآخرين .

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم

وتبعاً لذلك فقد تباينت الآراء والمواقف حيال التصوف تبايناً كبيراً ، فمن الناس من يدينون التصوف ويهاجمونه بضراوة وعنف دون بيان مالى بعض القوم من حق (١) ويقف البعض الآخر إلى جانبه ويدافعون عنه باستماتة وتعصب متجاهلين مافي التصوف من أمور لا يقرها الشرع (٢) وهناك اتجاه ثالث يدرس التصوف بموضوعية واتزان مبنياً نواحي الانحراف والضلال ومبرزاً ما عليه بعض الصوفية من الحق (٣) وهذا المنهج هو ماسوف انتهجه في هذا البحث ، فأبين ما لهم بتجرد تام واذكر ما عليهم كذلك ، ولكن مع ذلك فالمنهجية العلمية الدقيقة وتحليلاتها البعيدة عن العواطف والانفعالات لاتقدم لقضية التصوف شهادات في مصلحته (٤) على الأقل في بعض الجوانب .

ومما دفعني إلى البحث في هذا الموضوع أهمية الكبرى للأمة الإسلامية وتمثل بعض جوانب تلك الأهمية فيما يلي :

-
- (١) انظر التصوف في الإسلام عمر فروخ دار الكتاب العربي طبعة ١٩٨٠م ص ٩
 - (٢) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود دار احياء الكتب العربية ص ٢ وحقائق عن التصوف عبد القادر عيسى مكتبة الفارابي حلب الطبعة الخامسة ص ٤٧٧ وغيرها
 - (٣) انظر العقلية الصوفية ونفسانية أهل التصوف علي زيعور بيروت دار الطليعة طبعة ١٩٧١م ص ٥ وكذلك مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الصوفية والتصوف .
 - (٤) معجم المصطلحات الصوفية الدكتور أنو أبي خزام مكتبة لبنان ص ٢٨

١- الموضوع له أبعاد هامة تتعلق بالجانب الديني والجانب الاجتماعي والاقتصادي •

٢- قصور وعدم كفاية الدراسات السابقة ، من خلال ما وقع تحت يدي منها •

٣- محاولة كشف الأفكار الدخيلة التي تسربت إلى هذا الجانب من العقيدة الإسلامية من الديانات والثقافات الأخرى •

٤- دراسة هذا الموضوع والوقوف على كافة جوانبه وإيضاح الأخطاء فيه ثم تصويبها وذلك أمر هام يحتاجه المسلمون لمواجهة مثل هذه الدعاوي الدخيلة على الإسلام ومن يقف خلفها أو يتبناها •

٥- وتتأكد أهمية الموضوع في كونه لا يزال حياً آمناً وموجوداً بقوة وله من يدعون إليه ويشيدون بمن تبناه في السابق (١) ويدعون غيرهم للسير فيه •

وقد استخدمت في هذه الدراسة المنهج التحليلي المنتهي إلى الاستنباط مع الاستعانة بالمنهج التاريخي في بعض القضايا ، وذلك حتى تخرج هذه الدراسة بصورة علمية موضوعية •

وتبعاً لذلك فقد كانت خطة البحث كمايلي:

يتكون البحث من : مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة •

١- المقدمة : تتضمن بياناً بأسباب اختيار الموضوع ومنهج الدراسة •

٢- التمهيد : ويتضمن بيان خطر الاحداث في الدين •

(١) انظر مثلاً كتاب حقيقة الصوفية تأليف أبي سعيد التونسي مكتبة الفارابي ص ٥ ومابعدا

٣- الباب الأول : الصوفية تعريف وتاريخ وفكر ؛ ويتكون من فصلين :

الفصل الأول: التعريف بالصوفية ونشأتها .

الفصل الثاني: العوامل التي أسهمت في تكوين الفكر الصوفي .

٤- الباب الثاني : التوكل ، حقيقته ، ومصادره ، وعلاقته بالقضاء والقدر والأخذ بالأسباب ؛ ويتكون من ثلاثة فصول :

الفصل الأول: حقيقة التوكل .

الفصل الثاني: مصادر التوكل عند أهل السنة والجماعة .

الفصل الثالث: علاقة التوكل بالقضاء والقدر والأخذ بالأسباب .

٥- الباب الثالث: التوكل عند الصوفية وموقف العلماء منه ؛ ويتكون من ثلاثة فصول :

الفصل الأول: التوكل عند الصوفية .

الفصل الثاني مظاهر التوكل عند الصوفية .

الفصل الثالث: موقف العلماء من التوكل عند الصوفية .

وأخيراً الخاتمة والتي تتضمن : أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة ، والتوصيات ، والفهارس العامة للرسالة .

وفي الختام أود أن أشير إلى أنني اجتهدت في هذه الرسالة

قدر استطاعتي ولكن الوقوع في الخطاء والتقصير من لوازم البشرية ، فإن وفقت في هذه الدراسة كان ذلك بفضل من الله سبحانه وإن أخطأت فإن ذلك من نفسي ، واستغفر الله - تعالى - وأتوب إليه من كل هفوة أو

زله ﴿...ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ (١)
ثم أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لي النصيح والإرشاد ، أو قدم لي
العون والمشورة ،
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .

الباحث

١٤١٦هـ

(١) سورة البقرة جزء من الآية ٢٨٦

التمهيد

خطر الإحداث في الدين

الإسلام دين الفطرة أنزله الله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمره بتبليغه رحمة للعالمين قال تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٣) وأمر الله سبحانه وتعالى عباده باتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجعل هذا الاتباع سبيلاً إلى نيل حبه ووسيلة لتحقيق رضاه وحصول غفرانه قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ (٤) وربط سبحانه وتعالى بين طاعته وطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجعل الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم مندرجاً في الأمر بطاعته ليبين أن طاعته سبحانه لا تتحقق إلا بطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ إن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم دون طاعة الله أمر غير مقبول ؛ لأن طاعة الله وطاعة الرسل - صلى الله عليه وسلم - أمران متلازمان قال تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ (٥)

(١) سورة الفتح آية ٢٨

(٢) سورة الجمعة آية ٢

(٣) سورة الصف آية ٩

(٥) سورة آل عمران آية ٣٢

(٤) سورة آل عمران آية ٣١

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الآية (٢) وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأَلْزَمْنَاكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ الآية (٥) وفي آيات كثيرة من القرآن كرر الله سبحانه فيها الأمر بطاعة الرسول بعد الأمر بطاعته ليشير بذلك إلى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هدف ينبغي قصده بذاته بجانب طاعة الله سبحانه وأن طاعته صلى الله عليه وسلم لا تقل في أهميتها عن طاعة الله ، يقول الله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ٠٠٠ ﴾ الآية (٦) ويقول تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ٠٠٠ ﴾ (٧) والله سبحانه وتعالى قد اشترط لحصول رضاه وتفضله بالثواب والرحمة في الدنيا والآخرة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومناصرتة ولا يُكتفى - لحصول ذلك - بمجرد الإيمان دون أن يكون مصحوباً بهذا الاتباع والاحترام قال الله - تعالى - : ﴿ وَرَحِمْتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَاكِبْتُهَا لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا

(١) سورة آل عمران آية ١٣٢

(٢) سورة الفتح آية ١٧

(٣) سورة الأنفال آية ٢٠

(٤) سورة النور آية ٥٢

(٥) سورة الأحزاب آية ٧١

(٦) سورة النساء آية ٥٩

(٧) سورة النور آية ٥٤

يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أنك هم المفلحون ﴿١﴾ هذا هو التوجيه القرآني الذي دعا المسلمين إلى إتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعدم مخالفته ، وهذه هي الدعوة القرآنية التي تحث المسلمين على وجوب أتباع المنهج الذي سار عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - وربى أصحابه عليه فكانوا مثلاً حياً للإسلام وقوة حسنة يقتدى بها .

أما السنة النبوية فقد أعطت توجيهات رائدة في وجوب الاتباع والالتزام بالمنهج الذي سنه النبي - عليه السلام - ونوعت التعبير عن ذلك زيادة في التأكيد والتوضيح والمخ ذلك في قوله عليه السلام : (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) (٢)

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (من أراد بحبوبة الجنة فليزِم الجماعة) (٣) وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة فعليكم بالجماعة فإن الله لن يجمع

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٥٦ - ١٥٨

(٢) رواة البخاري في الصحيح كتاب الاعتصام بالسنة حديث رقم ٧٢٨٠ المطبعة السلفية الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ وورد في فيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي دار الحديث القاهرة حديث رقم ٦٢٨٠

(٣) حديث صحيح ورد بكتاب السنة للحافظ أبي بكر بن عاصم الشيباني ط المكتب الإسلامي حديث رقم (٨٧)

أمتي (إلا على هدى) (١) والأحاديث أكثر من أن تحصى في هذا الموضوع كلها تدل على وجوب التمسك بالكتاب والسنة فالخير كله في الاتباع لمنهج القرآن والسنة النبوية المطهرة وإلى هذا المنهج أشار الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : (ما أنا عليه وأصحابي) (٢) وقد سار على هذا المنهج المسلمون فأدوا العبادات العملية مراعين الإخلاص فيها متذوقين حلاوتها مدركين أسرارها مقتفين أثر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - عالمين أن العبد لا يصل إلى درجة الإحسان إلا بإخلاصه في العبادة ولقد تعرض الإسلام منذ انبثاق فجره إلى خصوم أشداء وأعداء ألداء حالوا تقويض بنيانه وتحطيم أركانه عن طريق تشوية معالمه ودس الأباطيل والخرافات في علومه والإحداث في الدين باختراعهم طريقة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه (٣) غير موجودة في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إنهم عطلوا أحكام الشريعة وأسقطوا عن أنفسهم التكاليف وأباحوا المخالفات وارتكبوا المحرمات والمحظورات ولم يقفوا عند حدود الشرع فأصبحوا بذلك ضالين منحرفين لبثهم هذه الأفكار المسمومة الدخيلة على الإسلام والجرأة على حدود الله ونظراً لخطر هذه الفئة التي استحدثت طقوساً لها وأدخلتها في الإسلام مما جعلها واقعة تحت تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم ومخالفة لنص القرآن لذا سأعرض لهذا الخطر في ضوء الكتاب والسنة :

(١) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده (فيض القدير في شرح الجامع الصغير حديث رقم ١٦٣)

(٢) رواه الترمذي عن ابن عمرو رضي الله عنهما (فيض القدير حديث رقم ٧٥٣٢)

(٣) انظر الاعتصام تأليف إبراهيم بن موسى أبو إسحاق الشاطبي ط دار التحرير التجارية ج ١ ص ٣٧

أولاً : في ضوء الكتاب الكريم .

لقد حذر الله سبحانه وتعالى من الإساءة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته أو الإساءة إلى سنته بعد وفاته بتقديم غيرها عليها أو بمخالفتها أو الخروج على توجيهاتها فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ (١)

ويبين الله العواقب الوخيمة لهذه الإساءة في الدنيا والآخرة فيقول جل علاه ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ الآية (٢) ويجعل الخروج ولو مرة عن حد الاتباع والتسليم للرسول صلى الله عليه وسلم ضلالاً واضحاً وانحرافاً لاشك فيه فيقول : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ (٣) وإذا كانت هذه الآيات تنتظم في سلك واحد : هو الأمر باتباع الرسول والتحذير من مخالفته في شيء مما جاء به فإن آيات كثيرة تحدثت عن القرآن بصفة خاصة تبين هدايته وتوجه إلى اتباعه وتحذر من مخالفته أو الابتعاد عنه

(١) سورة الحجرات آية : ١ ، ٢

(٢) سورة النور آية : ٦٣

(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٦

ومنها قوله تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ (١) وقال تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ (٣)

فهذه الآيات تدل على أن النجاح التام في الاتباع قال تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وألئك هم أولو الألباب﴾ (٤) وأفضل ما يتبع ويسمع له هو المعصوم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (٥) الآية (٥) فالسعادة كل السعادة في اتباع المنهج الذي رسمه القرآن قال تعالى: ﴿فمن اتبع هادي فلا يضل ولا يشقى﴾ الآية (٦) كما أن الشقاء كل الشقاء لمن أعرض عن المنهج القرآني وخالفه فيكون بذلك ظالماً لنفسه مستحقاً لعنة من الله قال تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون﴾ الآية (٧) والقرآن الكريم وضع حال هؤلاء المنحرفين فقال جل علاه ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ (٨) وقال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾ الآية (٩)

(٢) سورة الأعراف آية : ٣

(٤) سورة الزمر آية : ١٨

(٦) سورة طه جزء من الآية ١٢٣

(٨) سورة الزمر آية : ٤٥

(١) سورة الأنعام آية : ١٥٥

(٣) سورة ص آية : ٢٩

(٥) سورة الحشر جزء من آية : ٧

(٧) سورة هود الآيات : ١٨ - ١٩

(٩) سورة البقرة جزء من الآية : ١٦٥

ثانياً : السنة :-

وإذا كان القرآن وضح حال هؤلاء المنحرفين عن المنهج بأحداثهم في الدين ، وحكم عليهم بالضلال والشقاء فإن السنة المطهرة زادت الأمر وضوحاً وبينت خطر هؤلاء الضالين الذين خالفوا شريعة الله فيقول عليه السلام : (كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) (١) ويوضح الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذا النفور من السنة والابتعاد عنها رغم ما فيها من النفع في الدنيا والآخرة بصورة محسوسة واضحة فيقول عليه السلام (والذي نفسي بيده لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرّد على الله كشراد البعير ... قالوا يا رسول الله ! ٠٠٠ ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) (٢) وطاعة رسول الله هي الاتقياء لسنة مع رفض قول كل من قال شيئاً في دين الله عز وجل بخلاف سنته أو الاحتيال في دفع السنن بالتأويلات المضمحلة والمخترعات الباطلة ، فدعوته عليه السلام ضمت الدعوات ورسالته هي الوسيلة الوحيدة للنجاة واتباعها أساس القبول عند الله وأن الابتعاد عنها - على أي حال - تعرض للهلاك وابتعاد عما يجب على الإنسان نحو نفسه من إصلاح يقول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم : (إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قوم إنني رأيت الجيـش بعثني وإنني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعة

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب الاعتصام بالسنة عن أبي هريرة رضي الله عنه حديث رقم ٧٢٨٠

(٢) حديث صحيح رواه ابن حبان عن أبي سعيد الخدري ج١ ص ١٥٣ ونكره الهيثمي في مجمع الزوائد نشر

المقدس سنة ١٣٥٣هـ وقال رواة الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

طائفة من قومه فأدّجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصّبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتّبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق (١) ويضرب الرسول عليه السلام أمثلة لموقف الناس من دعوته تصور في صورة محسوسة أهمية السنة وعاقبة الخروج عليها ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمّن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يفتحمون فيها) (٢) ومقصود الحديث أنه صلى الله عليه وسلم شبه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم بتساقط الفراش في نار الدنيا لضعف تمييزه وكلاهما حريص على هلاك نفسه ، والحديث مع ذلك فيه تحذير لمن ينطلقون في الحياة دون استرشاد بالسنة وتصوير لحالهم بحال من يندفع نحو النار بلا تبصر ولا تمييز ويدفع اليد التي تريد أن تحجزه عن السقوط ويتسور الأسوار التي تحول بينه وبينها .

وإذا كان هذا هو حال من يترك الاسترشاد بالسنة فما بالك بمن يتجاهل السنة أو يستبدل بها البدعة ؟ .. إنه يصنع ناره بيده ويلقى بنفسه فيها بلا

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب الاعتصام بالسنة حديث رقم ٧٢٨٣

(٢) متفق عليه (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان تأليف محمد فواد عبد الباقي دار الريان للتراث حديث

رقم ١٤٧٢)

وعى ولا تبصر فما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - شريعة تامة كاملة والزيادة على ما تم وكمل لا حاجة إليها وإذا ما حاول أحد أن يزيد فيها شيئاً فإنه يخرج بها عن الكمال إلى النقص ويبعد بها عن التمام لأن كل زيادة عليها لغو لا حاجة إليه وإلى هذا كانت إشارة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله : (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) (١) فاتباع السنة واجب والتوقف عن اتباع السنة لأي سبب وعلى أي حال لا يجوز فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (دعوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم سؤا لهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم) (٢) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : صنع النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ترخص فيه وتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إني أعلمهم بالله وأشهدهم له خشية) (٣) وهو بذلك يشير إلى أن كل تصرفاته وأعماله قائمة على أساس من العلم الصادق والعبادة الصحيحة فلا يمكن أن يكون من الأعمال ما يزيد في الثواب عليها أو يوصل إلى الله أسرع منها ؛ لأن التنزه عما رخص فيه النبي من أعظم الذنوب لأنه يرى نفسه أتقى لله من رسوله صلى الله

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب المناقب حديث رقم ٣٥٣٥

(٢) رواه البخاري في الصحيح كتاب الاعتصام بالسنة حديث رقم ٧٢٨٨

(٣) رواه البخاري في الصحيح كتاب الاعتصام بالسنة حديث رقم ٧٣٠١

عليه وسلم - وهذا إلحاد (١)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع الطريق على كل من تسول له نفسه الإحداث في الدين من تعذيب النفس بما لا تطيق من التشديد عليها في الطاعة أو تحريم الحلال على أنه طريق من طرق التقرب إلى الله فعن عائشة رضي الله عنها : (أن رجلاً جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يستفتيه وهي تسمع من وراء الباب فقال : يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنباً أفأصوم ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم) فقال : لست مثلاً يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : (والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتبع وأتقي) (٢) والأحاديث كثيرة في هذا الباب فالإيمان هو مصدر الحياة بالنسبة للناس و الاتباع هو أساس تحقق هذا الإيمان ، يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم

(١) البدعة الدكتور عزت علي عطية دار الكتاب العربي الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠ هـ ص ٧٣

(٢) صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري طبعة المكتبة الإسلامية تركيا الطبعة

الأولى ١٣٧٤ هـ كتاب الصيام حديث رقم ٧٩

يقبل هدى الله الذي أرسلت به (١) فالرسول عليه السلام يشبه من أعرض عن السنة أو أهمل التعرف عليها والبحث عنها بالأرض السبخة التي لا نفع فيها ، لأنها لا تمسك ماءً ولا تثبت زرعاً ؛ بل قد يمتد ضررها إلى ما جاورها من الأرض الطيبة عن طريق العدوى وهذا يبين خطر هؤلاء الصوفية الذين انحرفوا عن المنهج الإسلامي فالروايات الصحيحة عرضت صوراً صادقة توضح شؤم الابتعاد عن السنة ومواجهتها بالاعتراض في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فيبينه ما يلي :-

١ - عن سلمه بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله بشماله فقال - صلى الله عليه وسلم - : (كل بيمينك) قال : (لا أستطيع) . قال - صلى الله عليه وسلم - : (لا أستطعت ما منعه إلا الكبير) قال : (فما رفعها إلى فيه) (٢)

٢ - وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) قال : فسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافراً (٣) فما أصاب المسلمين على مدى تاريخهم الطويل مرجعه إلى الابتعاد عن المنهج الإسلامي والاستهتار بالدين والجري وراء الخرافات والأضاليل . وأما في الآخرة فالأمر أشد والعاقبة أعظم :

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ترد على أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل

(١) متفق عليه ورد برياض الصالحين للإمام أبي زكريا النووي طبعة دار الرشد الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ

حديث رقم ١٦٢ ورواه أبو داود ج١ ص ٣٧٤

(٢) رواه مسلم في الصحيح (رياض الصالحين حديث رقم ١٥٩)

(٣) رواه البخاري في الصحيح كتاب التفسير حديث رقم ٤٨٦٣

الرجل عن إبله) قالوا : يا نبي الله أتعرفنا ؟ قال : (نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون عليّ غراً محجلين من آثار الضوء وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول يارب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟) (١) ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من تغيير الظروف وتبدل الأحوال إذا ما ظهرت الفتن واستحكم الخلاف واستحدثت الخرافات والأضاليل فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه - قال : وعظنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ! فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) (٢) وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنكم سترون بعدي أثره وأموراً تتكرونها) قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : (أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم) (٣) وفي هذين الحديثين أمر بملازمة السنة على كل حال وبيان لتوجيه هام من توجيهات السنة ويعبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن ملازمة السنة بهذا التعبير الذي لا تخفى دلالاته الواضحة المعبرة -عضو عليها بالنواجذ -

(١) رواه مسلم في الصحيح كتاب الطهارة حديث رقم ٣٧

(٢) رواية أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح (رياض الصالحين حديث رقم ١٥٧)

(٣) رواه البخاري في الصحيح كتاب الفتن حديث رقم ٧٠٥٢

ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بملازمة السنة بما يؤيده من ناحية المفهوم وهو النهي عن البدعة أو محدثات الأمور المخالفة للدين وقد كرر الرسول - صلى الله عليه وسلم - الأمر بالتمسك بالسنة والتحذير من الإحداث في الدين في كثير من خطبه فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول صبحكم مساكم ويقول : أما : بعد فإن خير الأمور كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة) (١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً) (٢) ويغضب الرسول صلى الله عليه وسلم ممن ظن من الصحابة أنه في تصرف من تصرفاته - صلى الله عليه وسلم - يخرج عن حدود التعاليم التي جاء بها تحت تأثير عوامل نفسية أو اجتماعية وينزل من القرآن ما يرد مثل هذا الظن الخاطيء فقد أختصم رجل من الأنصار وعبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - عند النبي - صلى الله عليه وسلم - في شريح (*) من الحرة التي يسقون بها النخل فقال النبي عليه السلام : (اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك) فقال الأنصاري يارسول الله

(١) رواه مسلم في الصحيح كتاب الجمعة وابن ماجة في سننه (فيض القدير حديث رقم ٦٦٥٦) واللفظ لمسلم

(٢) رواه مسلم في الصحيح (رياض الصالحين حديث رقم ١٧٤)

(*) الشريح : مسيل الماء ، والحرة : أرض بركانية في ظاهر المدينة فيها مساليل ماء للزرع .

- صلى الله عليه وسلم - أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجهه - صلى الله عليه وسلم ثم قال : (اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك) قال الزبير- رضي الله عنه - فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ (١)

ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يكون المسلم مع السنة في كل حالاته وفي جميع شؤونه سواء في ذلك وقت النشاط والهمة أو وقت الفتور والاسترخاء فيقول - صلى الله عليه وسلم - : (إن لكل عمل شره ولكل شره فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك) (٢)

ويلعن صلى الله عليه وسلم تارك السنة فيمن يلعن من أصحاب الكبراء والمحدثين في الدين فيقول - صلى الله عليه وسلم - : (ستة لعنتهم لعنهم الله وكل نبي مجاب : الزائد في كتاب الله والمكذب بقدر الله تعالى والمتسلط بالجبروت فيعز بذلك من أذل الله ويذل من أعز الله والمستحل لحرم الله والمستحل من عترتي ما حرم الله والتارك لسنتي) (٣)

ويجعل الرسول صلى الله عليه وسلم من يرجع بالإسلام إلى ما كانت عليه الجاهلية فيما كبر أو صغر من أبغض الناس إلى الله فيقول : (أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه) (٤)

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب التفسير حديث رقم ٤٥٨٥

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ورجاله رجال الصحيح (فيض القدير حديث رقم ٢٤٢٦)

(٣) رواه الحاكم والترمذي عن عائشة وابن عمر رضي الله عنهم (فيض القدير حديث رقم ٤٦٦٠)

(٤) رواه البخاري في الصحيح كتاب الديات عن ابن عباس رضي الله عنهما حديث رقم ٦٨٨٢

وقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحدثين في الدين وأعطى الميزان الصحيح لتمييز ما هو من الدين مما ليس من الدين بقوله عليه السلام (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) (١) وفي رواية : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) (٢) وفي هذا ما يبين أن من عمل بالبدعة كمن ابتدعها في الخروج عن الدين وإن تفاوت في قيمة الوزر .

وبعد كان هذا العرض دافعي أن أقول: إن هؤلاء الصوفية الذي انحفروا عن المنهج الإسلامي متمسكين بالخرافات والأضاليل التي لا تنتسب إلى الإسلام هم خطر على المجتمع الإسلامي فإن تركوا بدون مواجهة فإنهم سينشرون أفكاراً هدامة تجعل المجتمع يبتعد نهائياً عن الدين لأنها أفكار مناقضة للتوحيد وهدى سيد المرسلين - عليه السلام - فقد ناصروا وساعدوا الأعداء على احتلال البلاد الإسلامية ، مثبطين العزائم بدعوى التوكل على الله ، مما أدى إلى سقوط بعض البلاد الإسلامية بيد الأعداء دون مقاومة معطلين الجهاد ذروة سنام الإسلام ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل الخطورة تتضح من نتائج ترسيخ بعض الاعتقادات المنحرفة مثل قولهم : إن العبادة تعني محبة الله فقط دون العمل بالشرائع وأن العبادات تسقط في مرحلة معينة والتصل من التكليف فيصبح العاصي بمنزلة العابد فينتشر المنكر ويقل المعروف وتفتح أبواب من الشر غلقوها والوقوف دونها مما تتعقد عليه عزائم الرجال المحبين لمنهج رسول الله - صلى الله عليه وسلم

(١) رواه الشيخان وأبو داود وابن ماجة (كشف الخفاء حديث رقم ٢٣٥٨)

(٢) رواه البخاري في الصحيح كتاب الاعتصام بالسنة باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم .

وبقاؤها دون غلق يحقق مراد قوم ﴿يريدون ليطفنوا نور الله بأفواههم
والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ (١) •

الباب الأول

الصوفية تعريف وتاريخ وفكر

ويتكون من فصلين : -

الأول : التعريف بالصوفية ونشأتها .

الثاني:العوامل التي أسهمت في تكوين الفكر الصوفي .

الفصل الأول

التعريف بالصوفية ونشأتها

ويتضمن بحثين :

- المبحث الأول : التعريف بالصوفية
- المبحث الثاني : نشأة الصوفية

المبحث الأول : التعريف بالصوفية :-

تعددت المواقف عند كُتّاب التصوف الإسلامي في أصل المصدر الذي اشتقت منه كلمة : (صوفية) و (تصوف) ، وللوقوف على هذه الأقوال والآراء سأعرض فيما يلي أهم ما ذكر في هذا الخصوص

الرأي الأول : النسبة إلى الصفة : -

الصفة هي الموضع الذي بني لإيواء جماعة من المسلمين بالمسجد النبوي الشريف ، الذين هاجروا من مكة المكرمة تاركين أموالهم وأهليهم ، أو من الفقراء الذين لا يجدون ما يسدون به حاجتهم ، (١) وقد عُرف هؤلاء الصحابة المهاجرون بأهل الصفة (٢) ، ونظراً لما تميز به أهل الصفة من زهد وعبادة فقد حاول بعض الصوفية وغيرهم رد أصل التسمية (صوفية) إلى (الصفة) بدعوى الشبه بينهما .

(١) انظر الرقيق المختم تأليف صفى الرحمن المباركفوري دارالعلم بيروت لبنان ط١ سنة ١٤٠٦هـ ص ١٨٠

(٢) التصوف منشوة ومصطلحاته تأليف د/ أسعد السحراني دار النفائس بيروت لبنان ط١ سنة ١٤٠٧هـ

فقد قال السهروردي (١) (قيل سُموا صوفية نسبة إلى
الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه
وسلم) ؛ (٢) وليؤكد الشبه بين الفريقين يقول: (لأن الصوفية يشاكل حالهم
حال أولئك لكونهم متآلفين متحابين لله وفي الله كأصحاب الصفة) (٣)

وقال الهجويري (٤) في أصل هذه التسمية عند ما استعرض
بعض الأقوال التي قيلت في ذلك : (قالت طائفة : "إنهم سموا كذلك لأنهم
يتولون أهل الصفة ") (٥)، وقد قال آخرون : (إنما سموا صوفية لقرب
أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله - صلى
الله عليه وسلم -) (٦) .

(١) هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عوية بن سعد الصديقي البكري ضياء الدين أبو النجيب
السهروردي من أئمة المتصوفين ولد سنة ٤٩٠هـ بسهرود وسكن بغداد ، فبنيت له فيها رباطات للصوفية ثم
ولي المدرسة النظامية حيث كان يدرس ويملي الحديث وتوفي السهرودي في بغداد سنة ٥٦٣هـ (انظر الأعلام
للزركلي دار العلم للملايين ج٤ ص ١٧٤ ومعجم المصطلحات الصوفية للدكتور أنور أبي خزام مكتبة لبنان
ص ٢٣) .

(٢) عوارف المعارف تأليف عبد القاهر بن عبد الله السهروردي دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثانية
سنة ١٤٠٣هـ ص ٦١ .

(٣) المرجع السابق ص ٦١ .

(٤) هو أبو الحسن علي بن عثمان بن علي الجلابي الحسيني الهجويري الغزنوي صوفي حنفي من علماء
الصوفية في القرن الخامس الهجري عاصر الدولة الغزنوية ، يذكر أنه تتلمذ على يد أبي العباس الشقاني واتباع
مسلك الصوفية مسترشداً بأبي الفضل محمد بن الحسن الفخري وتلقى بعض التعاليم الصوفية على يد أبي القاسم
الجرجاني والنقي بأبي القاسم القشيري الذي يعد من أشهر معاصريه وقد سافر وتجول وقام برحلات واسعة
النطاق في أرجاء العالم الإسلامي وقد أحصت له الدكتور إسماعيل قنديل في تحقيقها كتابه كشف المحجوب ١٢
مؤلفاً توفي سنة ٤٦٥هـ على أرجح الأقوال . (انظر في ترجمته كشف المحجوب ص ٧ ومعجم المصطلحات
الصوفية ص ٢٢) .

(٥) كشف المحجوب للهجويري دراسة وتعليق الدكتور إسماعيل عبد الهادي قنديل راجع الترجمة الدكتور أمين
عبد المجيد بدوي دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٨٠ ص ٢٢٧ .

(٦) التعرف لمذهب أهل التصوف تأليف أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي دار الكتب العلمية بيروت لبنان
الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ص ١٠ .

المناقشة :-

أستطيع أن أشير إلى أن هناك تشابهاً ظاهراً بين حال أهل الصفة والصوفية من حيث : الزهد والفقر واللباس والانقطاع للعبادة لا يستطيع التمييز بينهما إلا من كان له حظ من العلم والدراسة والبحث، ومع ذلك فإن نسبة (الصوفية) إلى (أهل الصفة) ليست قوية عند المناقشة؛ لأن كثيراً من العلماء والباحثين وجماعة من أهل التصوف رد هذه النسبة ولم يؤيدها لعدم صحتها من حيث الاشتقاق اللغوي .

ولهذا فقد قال الهجويري : (... هذا الاسم - أي التصوف - على مقتضى اللغة بعيد عن هذه المعاني) (١) التي منها النسبة إلى الصفة ، فهو إذن لا يرى هذه التسمية صحيحة من حيث اللغة؛ (لأن اشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أي معنى ؛ لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه) (٢) .

أما السهروردي فيرى أن هذا الاسم لا يصح نسبة إلى أهل الصفة من حيث اللغة، وذلك بقوله : (وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكنه صحيح من حيث المعنى) (٣)؛ لتشابه حالهما ظاهرياً .

(١) كشف المحجوب للهجويري مرجع سابق ص ٢٢٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٣) عوارف المعارف تأليف عبد القاهر بن عبد الله السهروردي مرجع سابق ص ٦١ .

وينحو هذا المحنى أبو قاسم القشيري (١) الذي قال: (من قال إنهم - أي الصوفية - منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي) (٢) فهو يرى كذلك أن نسبة الصوفية إلى الصفة غير صحيحة على مقتضى اللغة .

ويرى الإمام ابن تيمية (٣) يرحمه الله أن هذه النسبة غير صحيحة، وذلك حين قال : (وأما من قال هم نسبة إلى الصفة فقد كان حقه أن يقال صفة) (٤) هذا عن القول بنسبتهم إلى الصفة فالواضح أنه لا يستقيم من هذا الوجه؛ لأنه غير مسنود بدليل يعول عليه، فهو إذن مردود.

(١) هو عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة بن محمد الاستوائي الإمام أبو قاسم القشيري النيسابوري الملقب زين الإسلام ولد سنة ٣٧٦هـ نشأ يتيماً وظهرت عليه النجابة منذ الصغر لزم عتبة باب أبي علي الدقاق ثم اشتغل بعلوم الشريعة ودرس عند الطوسي وابن فورك والأسفراييني كما نظر كتب الباقلاني وله من المؤلفات ٣٤ وتوفي سنة ٤٦٥هـ في نيسابور (انظر في ترجمته نحو القلوب الصغير للقشيري تحقيق أحمد علم الدين الجندي ليبيا الدار العربية للكتاب سنة ١٩٧٧ ص ٢٣ والرسالة القشيرية ص ٥) .

(٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف تأليف عبد الكريم القشيري تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي دار الجبل بيروت الطبعة الثانية سنة ١٤١٠هـ ص ٢٧٩ .

(٣) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني ثم الحمفي الحنبلي شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس محدث حافظ مفسر فقيه مجتهد مشارك في أنواع العلوم ولد في ١٠ ربيع الأول بهران وتوفي ٢٠ ذي القعدة بقلعة دمشق من مصنفاته الكثيرة مجموع الفتاوى ومنهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (انظر في ترجمته معجم المؤلفين عمر رضا كحالة طبعة مكتبة المتنبى بيروت ١/٢٦١) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم دار عالم الكتب الرياض ج ١ ص ٣٦٨ .

الرأي الثاني : النسبة إلى الصفاء : -

الصفاء : (ما خالص من مازجة الطبع... ومزايلة المذمومات) (١)
والصفاء : (نقيض الكدر) (٢) والمقصود بالصفاء هنا صفاء الروح
وصفاء السريرة ، فالصوفية ينسبون أنفسهم إلى هذه الصفة ؛ لما فيها من
معان سامية ، وقيم رفيعة وقد ذهب غير واحد من علماء الصوفية إلى
القول بأن الصوفية سموا بهذا الاسم ؛ لكونهم أهل الصفاء في الأسرار ومقر
النقاء في الآثار ؛ ولما تميزوا بهذه الصفات الحميدة أصبح هذا الاسم من
أسماء الأعلام الملازمة لهذه الطائفة .

ويورد الكلاباذي (٣) في التعرف ما يؤيد هذه النسبة، فيقول (قالت طائفة:
إنما سميت الصوفية صوفية؛ لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها) (٤) ويذكر كذلك
عن بشر بن الحارث (٥) قوله: (الصوفي من صفا قلبه للـه) (٦)

(١) معجم المصطلحات الصوفية تأليف الدكتور أنور فواد مكتبة لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٣ (باب الصاد) .

(٢) المعجم الصافي في اللغة العربية/صالح العلي وأمينة الأحمد مكتبة الناصر ط ١٤٠٩ (باب الصاد) .

(٣) هو أبو بكر محمد بن اسحاق بن ابراهيم البخاري الكلاباذي ، علم من أعلام الصوفية أشهر مولفاته

(التعرف لمذهب أهل التصوف) كتبه في أوائل القرن الرابع الهجري توفي سنة ٣٨٠هـ على الأرجح (انظر في

ترجمته في تاريخ التراث العربي فؤاد سيزكين ج ٢ ص ٤٩٢ ومعجم المصطلحات الصوفية د أنور فواد ص ٢١

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ٩

(٥) هو بشر بن الحارث الحافي يكنى أبا نصر ولد في بغداد سنة ١٥٠هـ وتوفي سنة ٢٢٧هـ (انظر صفوة

الصفوة لأبي الفرج ابن الجوزي ج ٢ ص ٢١٤ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٩ والطبقات الكبرى لابن سعد

ج ٧ ص ٢٤٦ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٠ .

(٦) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ٩ .

وأما أبو نعيم الأصفهاني (١) فعندما استعرض ، بعض التعاريف للتصوف قال مرجحاً كونه مؤخوذاً من الصفاء ، فقال : إن (اشتقاقه - أي التصوف - عند أهل الإشارات والمنبئين عنه بالعبارات من الصفاء والوفاء) (٢)

ويسير الهجويري على نفس الاتجاه فيقول : (... إن هذا الاسم - التصوف - مشتق من الصفاء) (٣) ويقول : (والصفاء في الجملة محمود ، وضده الكدر ... واسم لطائف الأشياء صفوها ، واسم أوضارها كدرها ، فلما هذب أهل هذا الأمر أخلاقهم ومعاملاتهم ، وتبرأوا من آفات الطبيعة ، فإنهم سموا صوفية وهو اسم لهذه الطائفة من أسماء الأعلام) (٤)

المناقشة:-

عند استعراض أقوال من نسبوا التصوف إلى الصفاء ، نجد أنهم لم يستندوا إلى أدلة قوية وواضحة ، تؤيد ما ذهبوا إليه ، وإنما استدلوا بأقوال تتعارض مع أصول الاشتقاق اللغوي للكلمات ؛ ولأن بعض الصوفية مدركون لذلك ، فقد حاولوا تجنب مسألة اللغة حتى يتحقق لهم ما يريدون؛

(١) هو أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني صاحب الحلية والطبقات وغيرهما ولد سنة ٣٣٦هـ وتوفي

بأصبهان سنة ٤٣٠هـ أنظر الطبقات الكبرى للشعراني طبعة دار الفكر ١٣٧٤هـ ج ١ ص ٦٥

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبو نعيم الأصفهاني ج ١ ص ١٧ دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثالثة .

(٣) كشف المحجوب ص ٢٢٧ .

(٤) كشف المحجوب ص ٢٢٧ .

ولهذا قال الهجويري: (فلما هذب أهل هذا الأمر أخلاقهم ، وتبرأوا من آفات الطبيعة ، فإنهم سموا صوفية وهو اسم لهذه الطائفة من أسماء الأعلام ؛ لأن خطر أهله أجل من أن يمكن اخفاء معاملتهم حتى يلزم لاسمهم الاشتقاق) (١) ويستمر في هذا الاتجاه إلى أن يقول: (واشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أي معنى ؛ لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه) (٢) .

فحسب زعم هؤلاء تكون اللغة العربية التي حوت كلام الله لفظاً وأحكاماً واتسعت لأسماء الله الحسنى وأسماء الملائكة والرسل عليهم السلام - في نظرهم أقل من أن يشتق منها اسم لتصوفهم ؛ لأن التصوف - حسب زعمهم - أعظم من كل ما استطاعت اللغة العربية احتواءه ، وهي التي شرفها الله سبحانه بإنزال أقدس كتبه بحروفها ومعانيها ، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) وقال جل شأنه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ بَلْسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (٥) وقال سبحانه: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٦) .

(١) كشف المحجوب للهجويري ص ٢٢٧

(٢) كشف المحجوب ص ٢٣٠

(٣) سورة يوسف : الآية ٢

(٤) سورة طه : الآية ١١٣

(٥) سورة الشعراء : الآية ١٩٥

(٦) سورة الزمر : الآية ٢٨

فالله - سبحانه - أمتن على رسول هذه الأمة - عليه أفضل الصلاة والسلام - بأن جعل القرآن بلغته ولغة قومه (وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، و أكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض) (١)

وخلاصة القول أن ادعاء عدم قدرة اللغة العربية على إيجاد جنس يشق منه التصوف ، غير صحيح ، ونسبة التصوف للصفاء غير صحيحة أيضاً كما قال القشيري : (فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة) (٢) ، ويؤيده قول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - (من قال : - إن التصوف - نسبة إلى الصفاء قيل له : كان حقه أن يقال صفائية ، ولو كان مقصوراً ل قيل صفوية) (٣) وبذلك يتضح أن هذا القول مردود لعدم صحته

الرأي الثالث : - النسبة إلى الصف : -

يقصد الصوفية بهذه النسبة أنهم في الصف الأول المقدم بين يدي الله تعالى في عباداتهم وسلوكهم وسائر أحوالهم ؛ ولهذا علق القشيري على قول من قال : (إن التصوف اسم مشتق من الصف) (٤) فقال : (فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله) (٥) ثم أكد أن هذا (المعنى صحيح) (٦) أي كونهم في الصف الأول المقدم بين يدي الله.

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير مكتبة دار التراث العربي

القاهرة ج٢ ص ٤٦٦ (٢) الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ (٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ج ١ ص ٣٦٨ - ٣٦٩

(٤) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ (٥) المرجع السابق ص ٢٧٩ (٦) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

وكذلك ذكر الكلاباذي قول من قال: (إنما سمو صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعزبارتفاع همهم إليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه) (١) ثم قال: (ومن نسبهم إلى الصفة والصف الأول فإنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم، وذلك أن من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها ، صفى الله سره ، ونور قلبه) (٢)

المناقشة : -

إن قول الصوفية إنهم في الصف الأول المقدم بين يدي الله سبحانه وتعالى ، قول مردود عليهم ؛ لأنهم بذلك يتكلمون عن أمر غيبي لا يعلمه إلا الله ، وكذلك في قولهم هذا تركية لأنفسهم بأنهم في الصف الأول المقدم بين يدي الله ، ولأنه لا يصل أحد إلى هذه المرتبة إلا في حالة قبول أعماله ، ثم يتبع ذلك حسن خاتمته ، وهذا الأمر لا يعلمه إلا الله جل جلاله ، لقوله تعالى: ﴿...إنما يتقبل الله من المتقين﴾ الآية (٣) ولقوله تعالى : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ (٤) وقوله سبحانه ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ (٥)؛ ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء بأن يثبت الله قلبه وهو

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ١٠

(٢) المرجع السابق ص ١٤

(٣) جزء من الآية ٢٧ من سورة المائدة وتامها ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من

أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾

(٥) سورة الأعراف :آية ١٨١ .

(٤) سورة الجن :آية ٢٦

الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر (١) فعن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يكثر أن يقول: (يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك) فقلت : يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخاف ؟ قال : (نعم وما يؤمني أي عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن ؟) (٢) وقال - صلى الله عليه وسلم - : (ما من امرئ إلا قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يزيغه أزاعه ، وإن شاء أن يقيمه أقامه) (٣) وقال ابن أبي مليكة (٤) (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه) (٥) وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الرجل ليعمل عمل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها) (٦)

(١) قال تعالى: ﴿ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾

الفتح: الآية ٢

(٢) كتاب السنة للحافظ أبي بكر عمر بن عاصم الشيباني المكتب الإسلامي ط ١٤٠٠ ج ١ ص ١٠٤ حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد بمسنده ٩١/٦

(٣) كتاب السنة لأبي عاصم الشيباني ج ١ ص ٩٩ حديث رقم ٢٢١ وهو صحيح (٤) هو عبد الله بن عبيد الله أبي مليكة أحد التابعين

(٥) فتح الباري في شرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر المسقلاني دار البيان للتراث القاهرة ط ١٤٠٧ هـ ج ١ ص ١٣٥

(٦) رواه البخاري في الصحيح ورواه مسلم في الصحيح كذلك عن سهل بن سعد (انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي حديث رقم ١٩٧١) واللفظ للبخاري

وكان - صلى الله عليه وسلم - كثيراً ما يحلف بـ (لا ومقلب القلوب) (١) وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم (قاربوا وسددوا ، وأعلموا انه لن ينجو أحد منكم بعمله) قالوا : يا رسول الله ولا أنت ؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل) (٢) فإذا كانت هذه حال سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وحال صحابته أفضل الأمة بعد رسولها عليه السلام من عدم تزكية للنفس واغترار بالأعمال ، وخوفهم من ردها ، فهم مع هذه المكانة يخافون من تقلب القلوب ورد الأعمال ، فكيف يدعي الصوفية تزكية أعمالهم وأنهم في الصف الأول المقدم بين يدي الله ، فهل اطلعوا على الغيب ؟! أم آمنوا مكر الله ؟! وهو القائل جل شأنه ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ (٣) ومما يؤيد ما أشرت إليه قول السهروردي - وهو من أئمة القوم - إذ قال : (... وإذا قيل سمو صوفية للبسم الصوف كان ذلك أبعد

(١) رواه البخاري في الصحيح ٢٥٩/٤ والنسائي ١٣٨/٢ (انظر كتاب السنة للحافظ الشيباني حديث رقم ٢٣٦)

(٢) رواه مسلم في الصحيح كتاب صفات المنافقين وأحكامهم حديث رقم ٧٦ وموجود في رياض الصالحين برقم ٨٦

(٣) سورة الأعراف : آية ٩٩

من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم وأيضاً لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم بالظـاهر أوفق وأولى ... (١) فالنسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله سبحانه من الأمور الباطنة التي لا يعلمها إلا الله وحده ، ولهذا فدعوى الصوفية باطلة من هذا الوجه ولا تصح .

وكذلك فهذه النسبة غير صحيحة من حيث اللغة ؛ لأن كثيراً ممن كتبوا وألفوا في التصوف قد ردوها فهذا القشيري يقول عندما ذكر هذا التعريف : (.... ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف) (٢) على الرغم من صحة هذه النسبة لديه من حيث المعنى وقد أبطلتها كما تقدم ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - يرحمه الله - عن ذلك : (ومن قال نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله قيل له : كان حقه أن يقال : صفة) (٣) .

(١) عوارف المعارف للسهروردي ص ٦١

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٧٩

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ١٠ ص ٣٦٩

الرأي الرابع : النسبة إلى صوفة :

صوفة: قوم في الجاهلية كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الحاج ، وحكي أنهم أفناء القبائل تجمعوا مع بعضهم حتى أصبحوا متشابهين كالصوف (١) . (والصوفة كل من ولي شيئاً من عمل البيت - الحرام - وهم الصوفانية) (٢) ويقول ابن الجوزي (٣) في هذه النسبة : (كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام ، فيقال مسلم ومؤمن ، ثم حدث اسم زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعب ، فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها ، ورأوا أن أول من انفرد به بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفة ... فانتسبوا إليه لمشابھتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فسموا بالصوفية) (٤) .

وقال ابن تيمية - رحمه الله - عندما تكلم عن نسبة التصوف : (وقيل نسبة إلى صوفه بن بشر بن أد بن طابخة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النسك ...) (٥) .

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون دار الجبل بيروت الطبعة الأولى عام ١٤١١هـ باب " الصاد "

(٢) لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور دار الصياد بيروت بدون تاريخ مادة (صوف)

(٣) شيخ الاسلام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التميمي البكري البغدادي يرجع نسبه لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - عرف بابن الجوزي حافظ مفسر فقيه وأديب ولد سنة ٥١٠هـ على أرجح الأقوال كانت ولادته ببغداد وتوفي فيها سنة ٥٩٧هـ له عدد كبير من المؤلفات . (انظر صيد الخاطر لابن الجوزي تحقيق عبد الرحمن البر دار اليقين للتوزيع ط١ عام ١٤١٣هـ ص ١٧) .

(٤) تلبس ابليس لابن الجوزي طبعة دار الجبل ص ٢٢٣ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١١ ص ٦

المناقشة :-

إن احتمال نسبة التصوف إلى صوفة لا يعدوا أن يكون كالأقوال السابقة ، من حيث ضعفه وعدم كفاية الأدلة على الأخذ به بل إن الأدلة تشير إلى رده وعدم صحته ؛ لأن (... هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ...) (١) ؛ ولأن هذه القبيلة غير معروفة عند غالب من تكلم باسم الصوفية فلا نتصور أن يرضى أهل التصوف بأن ينسبوا أنفسهم لقبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام (٢)

ولهذا فإن (احتمال أخذ التسمية من هذا القبيل ضعيف ومردود فصفة خدم الكعبة في الجاهلية لم يكونوا مشهورين ومعروفين) (٣) .

(١) مجمرع فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية ج١١ ص١٦

(٢) انظر نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣) التصوف منشؤه ومصطلحاته د/ أسعد السحمراني ص١٧

الرأي الخامس النسبة إلى الصوف :-

(الصوف للغنم كالشعر للمعز ، والوبر للإبل والجمع أصواف) (١) (ويقال كبش أصوف وصوف وصائف كل هذا أن يكون كثير الصوف) (٢) ولأجل إثبات هذه النسبة للصوفية وضع السراج الطوسي فصلاً في كتابه اللع بعنوان " باب الكشف عن اسم الصوفية ، ولم سموا بهذا الاسم ، ولم نسبوا إلى هذه اللبسة يبدأ بالسؤال عن السبب في تسمية الصوفية بهذا الاسم ، دون نسبتهم إلى حال ولا إلى علم معين كما ينسب الفقهاء إلى الفقه ، وأصحاب الحديث إلى الحديث " ويجيب عن هذا قائلاً : (لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم(٣) ومحل جميع الأحوال المحموده ، والأخلاق الشريفة، سالفاً ومستأنفاً، وهم مع الله تعالى في الانتقال من حال إلى حال، مستجلبين للزيادة ، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسماً دون اسم ، فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالاً دون حال ولا أضفتهم إلى علم دون علم).

وينتهي إلى القول بأنه يسميهم بهذا الاسم نسبة إلى (ظاهر اللبسة لأن لبسة

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٠٧ مادة (صوف)

(٢) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون دار الجيل ببيروت الطبعة الأولى ١٤١١ هـ "باب الصاد"

(٣) لا يسلم له هذا القول وهو محل نظر .

الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء (١) ثم يقول: (ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل: ﴿إِذ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ﴾ (٢) وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ... فكذاك الصوفية عندي والله أعلم نسبوا إلى ظاهر اللباس (٣) .

ثم يذكر الكلاباذي قول من قال: (إنما سموا صوفية للبسهم الصوف) (٤) ثم يعقب على ذلك بقوله: (ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس مالا ن مسه وحسن منظره ، وإنما لبسوا لستر العورة فتجزوا (٥) بالخشن من الشعر والغليظ من الصوف (٦)

(١) اللمع في التصوف تأليف أبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور دار الكتب الحديثة بمصر طبعة ١٣٨٠هـ - ٤٠ - ٤١

(٢) سورة المائدة آية (١١٢) وتام الآية ﴿إِذ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مَوْمِنِينَ﴾

والخواريون هم أعوان دينه وهم أصفياء عيسى وأول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً من الحور وهو البياض الخالص وقيل كانوا قصاريين يحورون الغياب أي يبيضونها .

وقيل إنما سموا خواريين لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفانتهم بالدين والعلم وقيل سموا بذلك لبياض ثيابهم (انظر تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي دار العلم تفسير الآية ٥٢ من سورة آل عمران والمفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني تحقيق محمد سيد دار الباز للنشر والتوزيع كتاب الحاء وتفسير ابن كثير الآية ٥٢ من سورة آل عمران)

(٣) اللمع في التصوف للسراج ص ٤١

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ٩

(٥) قنعوا واكتفوا

(٦) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ١٢

وأما القشيري فقد قال : (فأما قول من قال إنه من الصوف ،
وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه)
ثم يعقب على هذا بقوله (ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف) (١) أي
أن كل الناس قد يلبسون الصوف في وقت ويتركونه في وقت آخر ومن
هؤلاء الصوفية فما الداعي لتخصيص الصوفية بالصوف دون غيرهم حتى
ينسبون إليه ؟ .

وقال : الهجويري إن جماعة قالت : (إن الصوفي يسمى بالصوفي
لأنه يلبس ثياب الصوف) (٢) ولم يعلق على هذا القول بالنفي أو التأييد .

وأما السهروردي فيؤيد هذه النسبة بقوله : (كان اختيارهم للبس
الصوف لتركهم زينة الدنيا وراحتها ، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم ،
وانصراف همهم إلى أمر الآخرة) (٣) ثم يؤكد أن هذا الاختيار يلائم
ويناسب من حيث الاشتقاق ؛ لأنه يقال (تصوف) إذا لبس الصوف كما
يقال (تقمص) إذا لبس القميص (٤)

(١) الرسالة القشيرية للقشيري ص ٢٧٩

(٢) كشف المحجوب للهجويري ص ٢٢٧

(٣) عوارف المعارف للسهروردي ص ٦٠

(٤) عوارف المعارف للسهروردي ص ٦٠

وقال ابن تيمية : (والنسبة في الصوفية إلى الصوف ؛ لأنه غالب

لباس الزهاد) (١)

والصوفي : (من يتبع طريقة التصوف والعارف بالتصوف ، وأشهر الآراء أنه سمي بذلك ؛ لأنه يفضل لبس الصوف نقشاً) (٢) ؛ ولأن الصوفية كانت تؤثر الملابس الخشنة وخاصة الصوف على الملابس الناعمة (الأنيقة) (٣)

المناقشة : -

(الدلائل تشير إلى أن أقرب الفروض إلى الصحة هو فرض نسبة التصوف إلى الصوف بإعتباره شارة دالة في وقت معين على منهج خاص) (٤) وهذا ما أختاره وأويده ولكن يبقى لدينا عقبة وهي قول القشيري : (ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف) (٥) وأجيب عن هذا الاعتراض بما ذكر ابن خلدون في مقدمته (٦)

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ج ١٠ ص ٣٦٨

(٢) المعجم الوسيط ابراهيم مصطفي وآخرون مجمع اللغة العربية الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ مادة (صاف)

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب مكتبة لبنان الطبعة ١٩٧٨ م مادة (التصوف)

(٤) التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً د / محمد كمال جعفر دار المعرفة الجامعية الاسكندرية طبعة ١٩٨٠ م ص ٤

(٥) الرسالة القشيرية للقشيري - ص ٢٧٩

(٦) انظر مقامة ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن خلدون دار الكتب العلمية بيروت طبعة ١٤١٣ هـ

ص ٣٨١ وانظر كذلك ترجمته ص ٥٢ من هذا البحث .

بقوله : -

١ - لأنهم في الغالب مختصون بلبس الصوف فلو نظرنا لغيرهم من طوائف الناس كالزراع والصناع والعمال لا نجد طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب على الصوفية .

٢ - أن طائفة الصوفية اختصوا بمذهب الزهد ؛ ولذلك كانت تلبس الصوف زهداً وتورعاً عن لبس فاخر الثياب أما سائر الناس من غير الصوفية فيلبسونه لا لهذا الغرض الذي ينشده الصوفي .

٣ - لذلك اختصوا بما أخذ مدركة لهم وميزهم عن غيرهم .
وبهذه الإجابة يسقط اعتراض القشيري ويكون نسبة الصوفية إلى الصوف هو الصحيح والله أعلم .

واضافة لما سبق فقد حاولت تلمس بعض الأسباب التي جعلت الصوفية يختارون الصوف زياً مميزاً لهم عن غيرهم فقلت : -

١ - لأن الصوف مرتبط بالغنم التي يكسوها حيث ترسخت للغنم صورة تشير إلى عمل من أعمال الأنبياء عليهم السلام الذين قاموا برعي الغنم ففي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم) ، فقال أصحابه وأنت . قال : (نعم كنت أراها على قراريط لأهل مكة) (١)

٢ - ولأن الصوفية غير متكلفين في الظاهر فقد اختاروا الصوف نظراً لوفرته .

٣ - الصوف متين وقوي مما يجعله يعمر طويلاً ؛ ولهذا فهو لباس الفقراء والمساكين .

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب الإجارة باب رعي الغنم حديث رقم ٢٢٦٢ .

المبحث الثاني نشأة الصوفية : -

إن الذين كتبوا في نشأة الصوفية قد اختلفوا في تحديد العصر الذي ظهر فيه هذا المصطلح ، هل كان موجوداً في الجاهلية ، وتجدد ظهوره مرة أخرى في الإسلام ؟ أم أن هذا الاسم لم يظهر إلا في عهد الإسلام ؟ ويمكن بيان ذلك : فيما يلي : -

المطلب الأول : موقف الفريق الأول :

يمثل هذا الفريق أبو الفرج بن الجوزي الذي يؤيد الرواية القائلة :

(بأن قوماً كانوا في الجاهلية يقال لهم صوفة ، انقطعوا إلى الله عز وجل وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية) (١) ويرى أن هؤلاء القوم ينسبون إلى رجل في الجاهلية كان يدعي (الغوث بن مر) وإنما سمي صوفة لأنه ماكان يعيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة وتجعله ربيط الكعبة ، ففعلت ففعل له صوفه ولولادة من بعده .
ويورد ابن الجوزي رواية أخرى لهذه الحادثة فيقول : إن أم هذا الرجل كانت لا تلد إلا إناثاً فقالت : (لله علىّ إن ولدت غلاماً لأعبدنه للبيت)

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٢٢٣

فلما ولدت (الغوث بن مر) ربطته عند الكعبة فأصابه الحر ، فمرت عليه
وقد سقط واسترخى ، فقالت : (ما صار ابني إلا صوفة) فسمي
صوفة (١)

ويرى الإمام ابن الجوزي أن في هاتين الروايتين دليلاً على أن
أصل هذه التسمية كان موجوداً قبل الإسلام ومعروفاً عند عرب الجاهلية
، وأن من تعلق بالزهد من المسلمين فيما بعد وانقطع للعبادة فقد انتسب إلى
صوفة هذا .

المناقشة :-

ويمكن الرد على مقاله الإمام ابن الجوزي من خلال النقاط التالية :
أولاً : إن هذه القبيلة من العرب غير مشهورة ولا معروفة عند أكثر النساك
كما قرر ذلك الإمام ابن تيمية رحمه الله (٢)
ثانياً : أن غالب من تكلم باسم التصوف لا يرضى أن يكون منتسباً إلى
قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام (٣)
ثالثاً : أن كلا الروايتين إنما تثبتان إن صحتا أن امرأة ما علفت في رقبة
طفلها علامة وهي قطعة من الصوف ، أو أن امرأة شبّهت ابنها بالصوف
لما رآته منهوك القوى غير متماسك كما هو حال الصوف ، وأنه سمي
بذلك (صوفة) (٤) .

(١) تلبس إبليس لابن الجوزي ص ٢٢٤

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١١ ص ١٦

(٣) نفس المرجع السابق ونفس الجزء و الصفحة .

(٤) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية د/ أحمد البناني جامعة أم القرى الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ

ولا شأن لهذا في ظهور فئة في الإسلام تسمى (بالصوفية) إذا لم
تدل هاتين الروايتين على وجود كلمة (صوفية) ولا كلمة (صوفي)
بهذه الصيغة ؛ وهذا المفهوم قبل الإسلام . وإن صحت فلربما تكون هذه
التسمية علماً على شخص بعينه وهو (الغوث بن مر) .

وما أورده ابن الجوزي من أنهم كانوا يقولون لهذه القبيلة (صوفة)
(صوفان) وإنهم كانوا يقولون عند دفع الناس من منى أو من عرفات
(أجز صوفة) أي يطلبون من أحد أفراد هذه القبيلة أن يجيزهم في الدفع
من تلك الأماكن تقديراً لهم باعتبار أنهم من سدنة البيت (١) فكل هذا لا
يبرر تحول الكلمة من (صوفة) أو (صوفان) التي سميت بها القبيلة إلى
كلمة (صوفي) و (صوفية) وهذا لا يدل على وجود هذه الكلمة بهذه
الصفة قبل الإسلام (٢) ولو صح ذلك لكان الانتساب للقبائل التي كانت تقوم
بسدانة البيت الحرام (٣) وسقاية الحاج (٤) أولى من الانتساب إلى رجل لا
يعرف عنه إلا أن أمه قد ربطته عندما كان طفلاً بجوار الكعبة ولم يكن له
من الشهرة والمكانة ما لهذه القبائل من شهرة ومكانة (٥) .

(١) تلبس إبليس ابن الجوزي ص ٢٢٤

(٢) انظر موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفة د/ أحمد البناني ص ٨٢

(٣) كانت سدانة البيت الحرام لعثمان بن طلحة .

(٤) السقاية كانت عند فتح مكة للعباس بن عبد المطلب .

(٥) انظر الميرة النبوية لابن هشام تحقيق الدكتور محمد فهمي المرجاني دار الفكر العربي ج٤ ص ١٧، ١٩ .

رابعاً : قال ابن الجوزي نفسه : (وهذا الاسم - أي التصوف - ظهر للقوم قبل سنة مائتين) (١) وهذا يناقض قوله أن اسم الصوفية والصوفي قد عرف قبل الإسلام وقرار منه بأن هذا الاسم حادث ظهر قبل سنة مائتين هجرية .

المطلب الثاني : موقف الفريق الثاني :

لقد تبني هذا الفريق الرأي القائل أن هذا الاسم حدث في عصر الإسلام ولكن اختلفوا في تحديد الفترة الزمنية لظهوره على قولين : -

القول الأول : يرى أصحاب هذا القول أن هذا الاسم عُرف في القرن الأول من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مقدمة هؤلاء السراج الطوسي الذي أورد في كتابه (اللمع في التصوف) روايتين حاول أن يثبت من خلالهما أن هذا الاسم وجد في عصر النبوة فقال في الرواية الأولى (وأما قول من قال : إنه - أي التصوف - اسم محدث أحدثه البغداديون ، فمحال ؛ لأنه في وقت الحسن البصري (٢) كان يُعرف هذا الاسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام

(١) تلبس إبليس ص ٢٢٥

(٢) هو أبو سعيد الحسن البصري رضي الله عنه كان والده من ميسان فُسبي فهو ولي الأنصار - كان يغلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده توفي عشية الخميس مستهل رجب سنة ١١٠هـ

(أنظر الترجمة في الطبقات الكبرى للشعراني ج١ ص ٢٩ وجامع كرمات الأولياء يوسف اسماعيل النبهاني المكتبة الثقافية ج٢ ص ٢١)

وقد روي عنه أنه قال : (رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً - من المال - فلم يأخذه وقال : معي أربعة دنانيق فيكفيني ما معي) (١) .

وبهذا فالسراج يريد أن يقول : إن ورود هذه الرواية عن الحسن البصري رحمه الله وهو من مواليد عام ٢٠ هجرية . يدل على أن التصوف كان معروفاً في زمن مبكر من الإسلام .

ويُرد على هذه الرواية بأن الحسن البصري رحمه الله وإن كان قد ولد عام ٢٠ هجرية إلا أنه عاش حتى عام (١١٠) هجري ، وبهذا يكون قد عاش عشرة أعوام في بداية القرن الثاني الهجري فيحتمل أنه رأى هذا الصوفي في آخر حياته أي في بداية القرن الثاني الهجري ، وليس في القرن الأول للهجرة كما يريد إثبات ذلك السراج وبهذا فلا مرجح لأحد الاحتمالين على الآخر ؛ لأنهما متساويان (٢) .

الرواية الثانية : -

أن سفيان الثوري * قال : لو لا أبو هاشم ** الصوفي ما عرفت دقيق الرياء (٣) ولم يبين أبو نصر السراج وجه الدلالة في هذه الرواية على أن التصوف وجد في عهد مبكر في الإسلام ؛ بل هي على خلاف مراده (٤)

(١) اللع في التصوف للسراج ص ٤٢

(٢) انظر موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية للدكتور / أحمد البناني ص ٨٣

(٣) اللع ص ٤٢

(*) سفيان بن سعيد الثوري كانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث ولد سنة ٩٧ هـ وتوفي سنة ١٦١ هـ في البصرة (انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٤٧)

(**) من المحتمل أن يكون أبو هاشم محمد بن عبد الوهاب أبو علي الجبلي المتوفي سنة ١٦١ هـ طبقات الصوفية للسلمي تحقيق نور الدين شريه دار الكتاب النفيس الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ ص ٣١١

(٤) موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٨٣ .

لأن سفيان الثوري رحمه الله ولد سنة (٩٧) هجرية (١) وهذا يدل على أن التقاءه بأبي هاشم الصوفي لا يمكن أن يكون في القرن الأول اطلاقاً علماً أن أبا هاشم الصوفي توفي سنة ١٦١هـ فلا بد أن لقاءهما كان في أثناء المائة الثانية للهجرة إن صحت الرواية بذلك (٢)

القول الثاني :

يرى أصحاب هذا القول أن اسم التصوف ظهر في عهد الإسلام ، وخلاصة ما أثبتوه أن هذا الاسم ظهر في بداية القرن الثاني الهجري ، وقد ذكر هذا الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وكثير من العلماء ، ومنهم بعض علماء الصوفية .

فقد قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله فيما يتعلق بظهور هذا الاسم أنه (في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك - أي عن الزهد - بلفظ (الصوفي) ؛ لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد (٣)

وقال القشيري : (... فانفرد خواص أهل السنة ، والمراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوراق الغفلة باسم التصوف) (٤) إلى أن يقول : (واشتهر هذا الاسم - أي التصوف - لهؤلاء الأكابر قبل المائتين الهجرية) (٥)

(١) انظر ترجمة في الطبقات الكبرى للشعراني ج١ ص ٤٧

(٢) انظر موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية د/ أحمد البناني ص ٨٣

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ج ١١ ص ٢٩

(٤) الرسالة القشيرية للقشيري ص ٣٨٩

(٥) الرسالة القشيرية للقشيري ص ٣٨٩

وقد علق الهجويري على كلام أبي الحسن البوشنجي (١) الذي قال فيه: (التصوف اليوم اسم بلا حقيقة ، وقد كان من قبل حقيقة بلاسم) فعلق الهجويري قائلاً: (يعني أن هذا الاسم لم يكن موجوداً وقت الصحابة والسلف وكان المعنى موجوداً في كل منهم والآن يوجد الاسم ولا يوجد المعنى) (٢) .

وقال العلامة ابن خلدون: (٣) إن (هذا العلم - أي علم التصوف - من العلوم الشرعية الحادثة في الملة) (٤) إلى أن يقول: (فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية - والمتصوفة) (٥) .

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن سهل البوشنجي وذكر الشعراني أنه (البوشنجي) كان من فتيان خراسان كان معظماً للفقراء حسن الخلق مات سنة ٣٤٨هـ (انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج١ ص ١٢٠) وترجم له القشيري وقال هو أبو الحسن علي بن أحمد بن سهل البوشنجي (انظر الرسالة القشيرية ص ٣٩٩) وترجم له السلمي في طبقات الصوفية ص ٤٥٨ ونظراً لاتفاق أكثر المصادر على أنه (البوشنجي) نسبة إلى بلده بوشنج فقد أثبتنا الاسم الصحيح والله أعلم .

(٢) كشف المحجوب ص ٢٣٩ ولا يسلم له القول بأن معنى التصوف موجوداً في كل منهم لأن الصحابة والسلف كانوا زهاداً لا صوفية .

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي من ولد وائل بن حجر الفيلسوف المورخ العالم الاجتماعي البهائي أصله من إشبيلية ومولده ومنشأه بتونس (ولد سنة ٧٣٢ — وتوفي سنة ٨٠٨هـ) (انظر ترجمته في الإعلام للزركلي باب العين)
(٤ - ٥) مقامة ابن خلدون ص ٣٨١

وقال نيكولس: (١) ترجع نشأة التصوف في الإسلام إلى حركة الزهد العظيمة التي ظهرت تحت تأثير المسيحية في القرن السابع الميلادي (٢) كما هو واضح من كتب وتراجم الصوفية التي تفيض بأخبارهم وأقوالهم ، ومنهم كثيرون من كبار زهاد العصر الأول . (٣)

ونظراً لكثرة أنصار هذا الرأي القائل :إن التصوف اصطلاح حادث ظهر في القرن الثاني الهجري ولقناعتني بذلك اخترت هذا الرأي والله أعلم .

(١) هو رينولد ألين نيكلس مولده (١٢٨٥هـ - ١٨٦٨م) ومماته (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م) مستشرق انجليزي عالم بالتصوف الإسلامي تعلم في كمبردج وغيرها ودرس العربية والفارسية ودرّسهما واشترك في نشر تذكرة الأولياء للعطار (اللمع) للمراج وله كتب بالانجليزیه منها (تاريخ الآداب العربية - ومتصوفوا الإسلام ودراسات في التصوف الاسلامي ترجمة إلى العربية أبو العلا عفيفي ونشر بها) (انظر الاعلام لخير الدين الزركلي باب الرءاء) .

(٢) القرن السابع الميلادي يوافق القرن الثاني الهجري

(٣) في التصوف الاسلامي ص ٦٩

الفصل الثاني

العوامل التي أسهمت في تكوين الفكر الصوفي

ويتضمن مبحثين : -

الأول : العام ————— ل الإسلامى .

الثاني : العام ————— ل الأجنبي .

الفصل الثاني

العوامل التي أسهمت في تكوين الفكر الصوفي :-

قبل الحديث عن العوامل التي أسهمت في تكوين الفكر الصوفي أتكلم أولاً عن الفكر الإسلامي (١) بصورة موجزة : فأقول وبالله التوفيق :

الفكر الإسلامي هو عمل المسلمين العقلي ونتاجهم الفكري في سبيل خدمة الإسلام ورفعته بياناً ودفاعاً ، بياناً كتلك التي جاءت تشرح أصول الإسلام وتبين سائر جوانب الهداية فيه كعلوم التفسير والحديث والعقائد والفقه وأصوله والتاريخ والسيرة وغير ذلك مما تظهر فيه حركة العمل الإنساني ونشاطه ، ودفاعاً كتلك الأعمال التي جاءت تدفع تهماً وتبين دسائس أُلقيت في وجه الإسلام (٢).

وهو فكر جواب في أنحاء الحياة المختلفة وفي شتى شؤونها المختلفة ومجالاتها السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية (٣)

(١) يعرف الفكر بشكل عام أنه إعمال الخاطر في الشيء ويقال: فكر ، فِكراً وفِكراً في الأمر أصم الخاطر فيه وتأمله ، وهو ما يخطر بالقلب من المعاني (انظر المعجم الصافي في اللغة العربية باب الفاء والمنجد في اللغة والأعلام دار المشرق بيروت باب الفاء)

(٢) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور جمعه الخولي ص ١١ بدون تاريخ طبعة

(٣) انظر حوار هادي مع الغزالي الشيخ سلمان العودة ص ٥ بدون تاريخ طبعة .

هذه وتلك تمثل الفكر الإسلامي الأصيل؛ لأنها مأخوذة من المصادر الأصلية من كتاب وسنة وقائمة على قواعد الإسلام الصحيحة (١)

ولهذا فإن أي فكر لا يستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لا يعتبر فكراً إسلامياً ، وإنما فكراً مغايراً للإسلام يقترب منه ويباعد عنه بقدر ما يأخذ منه .

ولذلك فإنه لا بد من التفرقة بين الإسلام كمبادئ ربانية ممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وبين عمل المسلمين في فهم أصول الإسلام وتوجيه أحكامه ومبادئه والذي قد يلتقي مع مبادئ الإسلام وقد يفترق عنها ، ولا ريب أن هناك نفراً ممن كتبوا في الإسلام وكان لهم فكراً ونتائج بعدوا من خلاله عن التصور الصحيح لصراط الله المستقيم فمن غير الحق أن يُصور فكر هؤلاء بأنه فكر إسلامي (٢) ، أو أن يحكم عليه بأنه من الإسلام إذ الإسلام كله صواب ومصادره الأصلية معصومة من الخطأ ، وهذا عمل بشري قابل للخطأ والصواب كسائر الأعمال البشرية ومن هذا المنطلق سألنا في المصادر التي استقى الصوفية منها فكرهم والعوامل التي أثرت فيه ، ثم بعد ذلك أعدد السمات الرئيسية لهذا الفكر :-

(١) انظر الاتجاهات الفكرية المعاصرة د / جمعه الخولي ص ١١

(٢) المرجع السابق ص ١٣

المبحث الأول : العامل الإسلامي :

يرى بعض الباحثين أن التصوف الإسلامي مبني في أساسه على الإسلام ، ولا يمكن فهم التصوف فهماً صحيحاً إلا بدراسة الدين الإسلامي دراسة وافية في مختلف العصور والأحوال (١) ويؤكد آخرون أن التصوف (ظاهرة إسلامية نبت في جو الإسلام وبيئته وتأثرت أساساً بفعل النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابته - رضي الله عنهم - واعتمد على ما جاء في الكتاب والسنة من حكمة وموعظة ، ونتيجة) (٢) (للتأمل المتواصل للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة) (٣) ؛ ولهذا فإن البحث سيبدأ بشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لنتبين مدى التزام الصوفية بما جاء به من منهج وسلوك .

(١) انظر التصوف في الإسلام د / عمر فروخ بيروت دار الكتاب العربي سنة ١٤٠١ هـ ص ٢٩

(٢) في الفلسفة الإسلامية د / ابراهيم منكور مصر دار المعارف سنة ١٩٨٣ ص ١٣٤

(٣) انظر تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني د / عبد الرحمن بخوي وكالة المطبوعات الكويت الطبعة الأولى ص ٤٨

المطلب الأول : الرسول صلى الله عليه وسلم .

من المظاهر الأخلاقية التي يعتمدها الصوفية أساساً وسنداً لإثبات اتباعهم للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - الزهد الذي كان صفة ملازمة له صلى الله عليه وسلم ، والذي يظهر في كل شأن من شؤون حياته صلى الله عليه وسلم ، ولقد أورد السراج الطوسي (*) بعضاً من هذه المظاهر في كتابة اللمع (١) فيقول : - (إنه - صلى الله عليه وسلم لم يدخر شيئاً لغد (٢) وأنه - صلى الله عليه وسلم إنما ادخر مرة قوت سنة لعياله ولمن يرُدُّ عليه من الوفود (٣) ثم يقول : (وكان من تواضعه صلى الله عليه وسلم : يلبس الصوف وينتعل المخصوف ، ويركب الحمار ، ويحلب الشاة ، ويخصف نعله ويرقع ثوبه ، وكان لا يأنف أن يركب الحمار ، ويردف خلفه (٤) ثم بين أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكره الغنى ولا يخشى من الفقر (٥) وكان يمر به صلى الله عليه وسلم وبأزواجه - رضي الله عنهن - الشهر والشهران فلا يوقد في بيته للخبز - نار - وأنه كان طعامهم الأسودان : التمر والماء (٦)

(*) أبو نصر عبد الله بن علي بن محمد بن يحيى السراج يعرف بطاوس الفقراء أصلة من طوس ويعد أكبر المؤلفين الصوفيين (انظر ترجمته في تاريخ التراث العربي فواد سيزكين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ ج ٢ ص ٤٨٧ وانظر كتاب اللمع ص ٧) .

(١) اللمع للسراج ص ١٣٥

(٢) روى البخاري والترمذي عن أنس رضي الله عنه ما يويد ذلك (حديث رقم ٦٨٨٣ فيض القدير) .

(٣) أخرج البخاري من حديث عمر - رضي الله عنه - (كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم) كتاب النفقات حديث رقم ٥٣٥٧ (٤) انظر حديث رقم ٥٧٩٩ من صحيح البخاري مثالا على ذلك .

(٥) روى الترمذي عن أبي أمامه - رضي الله عنه - عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يارب ولكني أشبع يوماً وأجوع يوماً هذا فإذا جعت تضرعت إليك ونكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك) (فيض القدير حديث رقم ٥٤١٧ ج ٤ ص ٣١١) وهو حديث حسن

(٦) روى البخاري في الصحيح عن عائشة كتاب الرقاق حديث رقم ٦٤٥٨ (كان يأتي علينا الشهر مانوقد فيه

ناراً إنما التمر والماء إلا أن نوتى بالحليم) وانظر حديث رقم ٦٤٥٩ في صحيح البخاري كذلك .

وقد أورد الغزالي كذلك بعض المظاهر في حياة الرسول - عليه السلام - فقال :إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ولا يأخذ مما أتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأتَه شيء وكان يخفض نعله ويرقع الثوب (١) ثم قال: إن رسول الله عليه السلام (لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية (٢) ويلبس ما يجد فمرة شملة، ومرة برد حبرة يمانياً ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس (٣) وخاتمة(٤) من فضة(٥) أما السهروردي فيرى أن الصوفية أحق من غيرهم وأوفر الناس حظاً في الاقتداء برسول الله - عليه السلام - وإحياء سنته (٦) ،لأنه عليه السلام واضع - حسب زعمه - علم التصوف الذي علّمه الله له بالوحي والالهام ، وأول من تكلم فيه وأظهره بعد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ثم يتصل سند القوم في هذا العلم إلى أن يصل السند إلى أحد أئمتهم (٧) ثم انتشر منه إلى خلق كثير (٨) ومما تقدم فالصوفية يرون أنهم أحق الناس بالإقتداء بالرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وإحياء سنته ؛ لأنه عليه السلام مؤسس علم التصوف .

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج٢ ص ٣٨٩

(٢) روى البخاري في الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - كتاب الأطعمة حديث رقم ٥٤١٦ (ماشبع

آل محمد - صلى الله عليه وسلم - منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض) .

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب اللباس حديث رقم ٥٨١٠ (٤) انظر حديث رقم ٦٨٢٩ فيض القدير

(٥) إحياء علوم الدين للغزالي ج٢ ص ٣٩١ - ٣٩٢ (٦) انظر عوارف المعارف للسهروردي ص ٢٢٩

(٧) الذي أدعى أن السند وصل إليه هو الصوفي أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

(٨) انظر ايقاظ الهمم في شرح الحكم ابن عجيبة الحسني المكتبة الثقافية ببيروت ص ٧٦

المناقشة :

أستطيع أن أحدد بعض النقاط التي أوردها الصوفية - كمثال - على ما يعتقدون إنه يؤد قولهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان واضعاً علم التصوف وأن علمهم وعملهم هذا له سند متصل من الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم ، وأن كل ما يعملونه قد سبقهم إليه الرسول عليه السلام وبذلك فقد اكتسب فعلهم هذا الصفة الشرعية - حسب زعمهم - ولهذا سأفند كل قول من أقوالهم فأثبت ما يؤيده الدليل ويقوم عليه البرهان وأبين ما كان مخالفاً للشرع أو فهم على غير مراد رسول الله عليه السلام فأقومه وأبدأ بقول الصوفية : إن الرسول عليه السلام لم يدخر شيئاً من قوت أو مال له أو لمن يعول من زوجات وأولاد ويمر الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار ولم يشبع من خبز ثلاثة أيام متوالية:

أقول وبالله التوفيق : إن نفقة الأهل من أفضل القربات إلى الله وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث على ، ذلك فقد قال صلى الله عليه وسلم: (إذا أنفق المسلم نفقه على أهله - وهو يحتسبها - كانت له صدقة) (١) وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا مريض بمكة فقلت : لي مال أوصي بمالي كله ؟ قال : لا . قلت : فالشطر : قال : لا . قلت فالثالث ؟ قال : الثالث ، والثالث كثير أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها في في امرأتك ، ولعل الله يرفعك لينتفع بك ناس ويضر بك

(١) متفق عليه وأحمد والنسائي حديث رقم ٤٩٨ فيض القدير

آخرون) (١) وهذا بخلاف ما يدعيه الصوفية .

وقد أخرج الإمام مسلم حديث (دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك) (٢) فالإنفاق على الوالدين والزوجة والأبناء من أعظم القربات بنص الحديث الشريف وقال صلى الله عليه وسلم: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غني ، وابدأ بمن تعول) (٣) فإذا كانت هذه توجيهات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فهل يعقل أن يحرم أهله أبسط حق لهم وهو القوت ؟ لاشك أن ذلك لا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان يحبس قوت سنة على أهله وذلك كما جاء بقول عمر رضي الله عنه: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم) (٤) ويمكن الجمع بين هذا الحديث وحديث (كان لا يدخر شيئاً لغد) (٥) فيحمل على الادخار لنفسه وحديث الادخار لغيره لأهله ومن يفد عليه ولو كان في ذلك مشاركة لكن المعنى أنهم المقصد بالادخار دونه حتى لو لم يوجدوا لم يدخر (٦) وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمنع الادخار في أوقات الجوع ؛ليطعم الأغنياء الفقراء فقد روى الإمام البخاري عن عبد الرحمن بن عباس عن أبيه قال : (قلت لعائشة - رضي الله عنها - أنهى النبي - عليه السلام - أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث ؟ قالت: ما فعله إلا في عام جاع الناس فيه فأراد أن يطعم الغني الفقير وإن كنا لنرفع الكراع فنأكله بعد

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب النفقات حديث رقم ٥٣٥٤ (٢) رواه مسلم في الصحيح كتاب الزكاة حديث رقم ٣٩

(٣) و(٤) رواهما البخاري في الصحيح كتاب النفقات حديث رقم ٥٣٥٦ و٥٣٥٧

(٥) رواه الترمذي والبخاري عن أنس رضي الله عنه فيض القدير حديث رقم ٦٨٨٣

(٦) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٩ ص ٤١٤

خمس عشرة قيل: ما اضطرركم إليه ؟ فضحكت ، قالت : ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من خبزبر مآدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله) (١) وأما فيما يتعلق في أنه يمر الشهر والشهران لا يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ولم يشبع من خبز ثلاثة أيام .

يؤخذ من ذلك أن المراد بالشبع المنفي هنا هو الشبع المقيد بالتوالي لا مطلقاً والذي يظهر أن سبب عدم شبعهم غالباً كان بسبب قلة الشيء عندهم ، وإن وجدوا كانوا يؤثرون على أنفسهم (٢) ومما يؤكد أن سبب ذلك القلة ما قاله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما ذكر ما أصاب الناس من الدنيا فقال : (لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلاً يملأ به بطنه) (٣) والدقل هو ردئ التمر . وكان صلى الله عليه وسلم يدخل على أهله (٤) فيقول (هل عندكم شيء ؟) فإن قالوا : لا . قال : (فإني إذن صائم) (٥) فهذا وغيره (٥) يؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في أكثر الأحوال لا يجد ما يأكله هو وأهله وذلك نتيجة للقلة أو لعدم وجود الطعام والشراب لا كما يفعل الصوفية من ترك الطعام مدة طويلة وهو في متناول أيديهم فهذا البسطامي يمتنع عن شرب الماء سنة كاملة يقول: (دعوت نفسي إلى شيء من الطاعات فلم تجبني فمنعتها عن الماء سنة) (٦) فأين هذا من ذاك ؟.

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب الطعام حديث رقم ٥٤٢٣

(٢) انظر فتح الباري ج ٩ ص ٤٢٩

(٣) رواه مسلم في الصحيح كتاب الزهد والرفائق حديث رقم ٣٦ وأبو يعلى بمسنده ج ١ ص ١٦٥

(٤) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية مؤسسة سالم ١٤١٠ ط ١ ج ٢ ص ٨٣

(٥) رواه مسلم في الصحيح كتاب الصيام حديث رقم ١٧٠

(٥) انظر مختصر صحيح مسلم كتاب الأشربة حديث رقم ١١٤١ دار الهلال بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧

(٦) جامع كرامات الأولياء تأليف يوسف اسماعيل النبهاني ط دار صا بيروت ج ٢ ص ١١٥

وهذا ابراهيم ابن أدهم يقول إنه (أول دخوله الطريق سنه لا أكل ولا شرب ولا نام) (١) فهل هذا من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم أو من هديه؟ وهو الذي كان يأكل من طيبات الطعام إذا وجد فقد كان صلى الله عليه وسلم (يحب الحلواء والعسل) (٢) وعن عبد الله بن جعفر أنه قال: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الرطب وبالقثاء) (٣) وعن عائشة - رضي الله عنها - (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل البطيخ بالرطب) (٤)

وأما فيما يتعلق بلبسه صلى الله عليه وسلم الصوف وانتعال المخصوف فلم يختص بذلك وحده ، فقد لبس الصوف وغيره ، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: (كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الحبرة) (٥) والحبرة هي من برد اليمن تصنع من قطن وكانت أشرف الثياب عنده وسميت حبرة لأنها تحبر أي تزين (٦)

(١) الطبقات في خصوص الصالحين والأولياء محمد ضيف الله الجملي المكتبة الثقافية بيروت ج ١ ص ٦١

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها حديث رقم ٦٩٩٩ فيض القدير

(٣) متفق عليه ورواه أحمد في مسنده حديث رقم ٦٩٣٩ فيض القدير والذوالمرجان فيما اتفق عليه الشيخان

وضعه محمد فؤاد عبد الباقي دار الريان للتراث الطبعة الأولى حديث رقم ١٣٢٥

(٤) رواية الترمذي عن عائشة رضي الله عنها وأبو داود عن سهل بن سعد رضي الله عنه والطبراني في

الكبير . حديث رقم ٦٩٣٤ فيض القدير

(٥) متفق عليه ورواه أبو داود والنسائي عن أنس رضي الله عنه حديث رقم ٦٥٠٤ فيض القدير

(٦) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر ج ١ ص ٢٨٨

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : (قال النبي صلى الله عليه وسلم من لم يكن له إزار فليلبس سراويل ، ومن لم يكن له نعلان فليلبس خفين) (١) وقد لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم النعال السبتية وهي النعال المصنوعة من الجلد المدبوغ بعد حلق شعرها (٢) ولم يكن مختصاً فقط بلبس النعال المخصوصة .

وأما ركوبه صلى الله عليه وسلم للحمار فهو كسابقة فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على ركوب الحمار، وإنما كان يركب ما يتيسر له من الخيل (٣) والبغال (٤) والإبل (٥) وقد قال صلى الله عليه وسلم في الخيل : (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) (٦) وروي عن أنس - رضي الله عنه - قوله : (استقبلهم النبي - صلى الله عليه وسلم - على فرس عري ما عليه سرج وفي عنقه سيف) (٧) وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - (أردف النبي صلى الله عليه وسلم أسامه على القصواء) (٨) وهي ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب اللباس حديث رقم ٥٨٥٣

(٢) انظر فتح الباري ج ١ ص ٣٢١

(٣) انظر الحديث رقم ٢٨٥٥ في صحيح البخاري

(٤) انظر حديث رقم ٢٨٧٣ في صحيح البخاري

(٥) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٤

(٦) رواه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد والسير حديث رقم ٢٨٥٠

(٧) رواه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد والسير حديث رقم ٢٨٦٦

(٨) رواه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد والسير باب ناقة النبي - صلى الله عليه وسلم -

وأما فيما يتعلق بقيام الرسول صلى الله عليه وسلم ببعض الأعمال بنفسه كحلب الشاة وخصف نعله ورقع ثوبه فهذا دليل على التواضع النبوي ، ودليل على مشروعية الأعمال مهما تكون إذا كانت موافقة للشرع فالرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس بحاجة إلى فعل ذلك وكان يكفيه إشارة فقط لمن حوله ؛ ليقوم الجميع بخدمته صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يفعل ذلك بل قام بهذه الأعمال بنفسه؛ ليعلم أمته درساً عملياً وتربوياً رفيعاً بخلاف أهل التصوف وما يفعلونه بمريدهم وأتباعهم من إذلال لهم وتكليفهم بما لا يطيقونه أحياناً (١)

وأما فيما يتعلق بعدم خشيته صلى الله عليه وسلم الفقر وكرهه للغنى . فإن هذا القول فيه إجمال يحتاج إلى إيضاح وبيان فإن كان قصد الصوفية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يخشى الفقر؛ لأنه من الله - سبحانه - ومقدر على الإنسان إذا عمل الأسباب فهذا نوافقهم عليه ؛ لأنه لا يجوز للمسلم أن يخشى شيئاً غير الله مهما كان هذا الشيء والرسول - صلى الله عليه وسلم - أولى من كل الناس بذلك ، وأما إذا كانوا يقصدون

(١) انظر حقائق عن التصوف عبد القادر عيسى مكتبة الوفاء حلب ط ١٤١٥ هـ ص ٩٤ وما بعدها

أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحب الفقر ويخاف الغنى فهذا قول باطل لا نوافقهم عليه وذلك ؛ لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد تعود من الفقر فقال صلى الله عليه وسلم : (اللهم إني أعوذ بك ... من الفقر ...) (١) ؛ ولأن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي ، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حله أو حبسه عن حقه أو إخراجه في غير وجهه أو المفارقة به (٢) ولهذا قال تعالى ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ الآية (٣) ولو كان جمع المال بالطرق المشروعة مكروهاً لما جعل الله أحد أركان الإسلام مبنياً على ذلك وهو ركن الزكاة فلا تجب الزكاة إلا على من عنده مال وكذلك جعل الله الصدقات من أعظم القربات فكيف يزكي من لا مال عنده ؟ وكيف يتصدق من هو فقير ؟ . ولهذا قال أحد السلف الصالح : (٤) (لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله ، يكف به وجهه عن الناس ، ويصل به رحمه ويعطى منه حقه) (٥) فهذا هو الموقف الصحيح ؛ لأن جمع المال من حله فيه قوة وعز للإسلام والمسلمين ، وفيه صلة الرحم ، وأداء حق الله - سبحانه - في المال من صدقات وغيرها من وجوه البر والإحسان .

(١) حديث صحيح رواه النسائي والحاكم في المستدرک والبيهقي في الدعاء عن أنس - رضي الله عنه - حديث رقم ١٤٨٩ فيض القدير .

(٢) الطيبات من الرزق جمع وترتيب أبي ذر القلموني البشر للنشر والتوزيع القاهرة ص ٨٩

(٣) سورة الأنفال آية ٢٨

(٤) هو سعيد بن المسيب

(٥) الطيبات من الرزق ص ٨٩

وقول الصوفية إن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي وضع علم التصوف وأن حياته الباطنه صوفية .

فأقول : إذا كان الصوفية يقصدون بذلك الزهد فنقول لهم إن هذا قول صحيح فالقرآن والرسول - صلى الله عليه وسلم - وضعاً لأسس الزهد وهذا لا يخالف فيه . وأما إذا كنتم تقصدون بذلك التصوف المعروف اليوم بهذا الاسم فهذا قول لا يجب نسبته إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأن التصوف فيه ما يخالف أسس الإسلام في بعض جوانبه مثل وحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من الأقوال الباطلة وكذلك ما ينفي هذا القول أن نشأة الزهد كانت منذ فجر الإسلام وأما التصوف فلم يظهر إلا في القرن الثاني الهجري وكذلك فإن الزهد لم يذمه أحد مطلقاً ، وأما التصوف فقد ذمه بعض العلماء ؛ لأن التصوف أمر زائد وطارئ عن الزهد له كيانه ونظامه وأصوله وقواعده وأسس وطرقه وفي التصوف تحريم لبعض الحلال وترك للطيبات والتهرب من الزواج ومعاشرة الأهل والإخوان وتعذيب النفس بالجوع والتعري والسهرة (١) مما يخالف ظاهر قول الله عز وجل ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٢) وقوله تعالى في وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أنك هم المفلحون ﴾ (٣)

(١) انظر التصوف المنشأ والمصادر ص ١٠ (٢) سورة الأعراف آية ٣٢ (٣) سورة الأعراف آية ١٥٧

المطلب الثاني الخلفاء الراشدين :

أ : أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأول خليفة للمسلمين تخلق بأخلاق الإسلام وتأدب بأدابه وهب كل ما يملك لله ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - دون أدنى تردد أو تأخر، ومن الطبيعي والحالة هذه أن تتأثر الأمة المسلمة بخليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإثيار الآخرة على الدنيا ؛ ولذلك فإن الصوفية - كطائفة تنتسب للإسلام - يعدون أبا بكر - رضي الله عنه - من أئمتهم قال أبو بكر الواسطي: (١) أول لسان الصوفية ظهرت في هذه الأمة على لسان أبي بكر رضي الله عنه (٢) إشارة ثم استخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء وقد علق السراج الطوسي على هذا الكلام بقوله : وهذا الذي أشار إليه الواسطي في قوله : أول لسان الصوفية ظهرت على لسان أبي بكر - رضي الله عنه - فذلك قول أبي بكر - رضي الله عنه - ؛ لأنه حين خرج من جميع ملكه قال له النبي - عليه السلام : (أيش خلقت لعيالك) (٣) قال: الله ورسوله ، فقال الله ورسوله ؛ ولعمري إنها إشارة جلية لأهل التوحيد (٤) ويرد عنه أيضاً أنه - رضي الله عنه - قال في مناجاته " اللهم أبسط لي الدنيا وزهني فيها " وهذا رمز يعني أعطني

(١) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي أصله من فرغانة ويعرف بابن الفرعاني كان من قماء أصحاب الجند والثوري وكان من علماء مشايخ القوم لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثل كلامه ، دخل خراسان واستوطن كورة مرو ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة (فقر طبقات الشافعية ج ١ ص ٩٩ وحلة النجباء ج ١٠ ص ٣٤٩)

(٢) هذا يخالف قولهم إن أول من وضع علم التصوف هو الرسول صلى الله عليه وسلم انظر ص ٥٩

(٣) هذا كلام ركيك وغير فصيح فلا يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد قاله بهذه الصفة والصحيح ما ذكره أبو نعيم بحليته (فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك) ج ١ ص ٣٢

(٤) انظر اللمع ص ١٦٨

الدنيا أولاً؛ لأشكر، ثم وفقني لكي أكف عنها وأعرض عنها من أجلك ؛ لأكون قد أدركت درجة الشكروالإنفاق ، وكذلك مقام الصبر حتى لا أكون مضطراً في الفقر فيكون الفقر لي باختياري (١)

المنافسة :

يرى الصوفيه أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قد تخلّى عن جميع ما يملك في سبيل الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولذلك فهو أمام الصوفية في التخلي عن الأموال والتجرد من الدنيا ويدّعون كذلك أنه طلب من الله أن ييسط له الدنيا، ثم يزهد فيها؛ ليكون الفقر اختياراً له لا اضطراراً .

أقول : إن هذا الكلام منافٍ للواقع وبعيد عن الحقيقة . فأبوبكر رضي الله عنه لم يترك التكسب والعمل، ولم يخرج من ماله كله إلا إذا كان ذلك في خدمة الإسلام وفي عمل نافع ، وهذا ليس فيه بأس ؛ لأن التاجر الماهر هو الذي يحسن عقد الصفقات فأبو بكر - رضي الله عنه - من أمهر التجار وعندما تكون التجارة رابحة فإنه يدفع إليها بشدة وأي تجارة أكثر ربحاً من التجارة مع الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ولهذا فقد غضب الرسول - صلى الله عليه وسلم - من إيذاء أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فقال صلى الله عليه وسلم : (إن الله بعثني إليكم فقلّتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق وواساني بنفسه وماله ...) (٢) فأبو بكر - رضي الله عنه - لم يتخل عن ماله إلا في الطريق الصحيح ثم إن هذا البذل والإنفاق لم يجعل أبا بكر - رضي الله عنه - يترك الدنيا بالكلية ويحرّم الكسب

(١) كنف المحبوب ص ٢٦٩ (٢) جزء من الحديث الذي رواه البخاري في الصحيح كتاب المناقب برقم ٣٦٦١

على نفسه فقد وصل أبو بكر - رضي الله عنه - إلى أعلى منصب في الإسلام وهو خلافة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومع ذلك لم يترك التجارة والكسب ولم تشغله الخلافة عن طلب العيش عن طريق التجارة فبعد استلامه للخلافة نزل إلى السوق يحمل الثياب للتجارة فيلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً ما هذا ؟ وإلي أين ؟ فيقول له أبو بكر- رضي الله عنه - : إلى السوق ، فيقول: عمر- رضي الله عنه - ألسنت قد وليت أمر المسلمين ؟، فيفرض لك في أموالهم ما يكفيك وبيتك ، عد إلى المسجد . ثم جمع عمر- رضي الله عنه - الناس فاجتمعوا فقام أبو بكر- رضي الله عنه - فقال : (أيها الناس إني قد كنت أحترف لعيالي فأكتسب قوتهم ، وأنا الآن أحترف لكم فافرضوا لي من بيت المال ، فقالوا يا خليفة - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقد ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أمين هذه الأمة أبا عبيدة فيحكم لك وعلينا فقال أبو عبيدة : أفرض لك قوت رجل من المسلمين ليس بأعلام ولا بأدناهم وكسوة الصيف والشتاء وركوبة تركبها ففرضوا له مائتي درهم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : أكسب أكثر ، ففرضوا له خمسمائة درهم (١) فعلى الرغم من تولية الخلافة لم يقعد عن الكسب ثم لم يرض بما أعطي من بيت المال أول مرة لقلته ؛لأنه لا يوفر الحياة الكريمة له ولأسرته فلذلك زاده المسلمون بما يكفيهم فأين الصوفية من هذه السيرة وهذا المنهج ؟

(١) انظر تاريخ الطبري ج٣ ص٥٤ وطبقات ابن سعد ج٣ ص١٨٤ وتليس ابليس ص٣٦٠ والخلفاء الراشدون أعمال وأحداث الدكتور أمين القضاة مكتبة المنار الأردن ص٢٦

ثم إن أبا بكر - رضي الله عنه - عندما يرى أن الإسلام بحاجة إلى قوة فإنه لا يقف عن ذلك فحين أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - الصحابة - رضي الله عنهم - بالتصدق بأموالهم تصدق أبو بكر رضي الله عنه بكل ماله (١)؛ لأن الموقف يتطلب ذلك وليس كما يفعل الصوفية من الدعوة إلى الخروج عن المال مطلقاً فلو لم يكن عند أبي بكر - رضي الله عنه - مال لم يستطع أن يتصدق ومما يؤكد أن أبا بكر - رضي الله عنه - يحسن إستغلال المال حسب مصارفه الشرعية أنه عندما اشترى بلالاً - رضي الله عنه - وهو مدفون بالحجارة بخمس أواق ذهباً فقالوا: لأبي بكر - رضي الله عنه - لو أبيت إلا أوقية لبعناه لك قال: أبو بكر - رضي الله عنه - لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته (٢) ، فهكذا يستخدم المال لا كما يقول أصحاب التصوف من دعوة لعدم العمل والكسب المباح حتى لا يكون لديهم ما يفكون به محنة أو ضائقة تصيب الإسلام أو المسلمين ، فبدلاً من أن يكونوا عوناً للمجتمع على البر والقوة أصبح الصوفية بمفاهيمهم الخاطئة عالة على المجتمع الإسلامي ينتظرون الصدقات وما تجود به أيدي الناس .

(١) انظر حلية الأولياء للأصفهاني ج١ ص ٣٢

(٢) المرجع السابق ص ٣٨

ب : عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - :

وأما أمير المؤمنين والخليفة الثاني للمسلمين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فإنه قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قد كان في ما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون ومكلمون فإن يك في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب) (١) ودلائل صدق القول النبوي الشريف ظهرت وهو ما ذكر عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه كان يخطب فصاح فقال في وسط خطبته : يا سارية (٢) الجبل ، وسارية في عسكر على باب نهاوند فسمع صوت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو وقيل لسارية: كيف عملت ذلك فقال سمعت صوت عمر - رضي الله عنه - يقول يا سارية الجبل (٣) .

وكذلك فإن أهل الحقائق - أي أهل التصوف - يرون أن لهم أسوة وتعلقاً بعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ؛ لأنه رضي الله عنه قد خص بمعاني تفرد بها عن غيره ويتمثل جانب من ذلك من اختياره لبس المرقعة (٤) ويرد عنه - رضي الله عنه - أنه قال: " العزلة راحة من خلطاء السوء " (٥)

فهذه الصفات التي أثرت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هي التي تعلق بها أهل التصوف ويرونها سنداً لبعض ما يفعلونه

(١) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة (فيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي حديث رقم ٦٠٩٧)

(٢) هو سارية بن زعيم بن عبد الله بن جابر الكناني الدثلي صحابي جليل من الشعراء القادة الفاتحين جعله عمر رضي الله عنه أمير جيش وسيره إلى بلاد فارس سنة ٢٣ هـ ففتح بلاداً منها أصبهان (الأعلام ج٣ ص ٦٩)

(٣) اللعص ١٧٣ (٤) اللعص ١١٧٣ وانظر كشف المحجوب ص ٢٧١ (٥) كشف المحجوب ص ٢٧٠

المناقشة :

يرى الصوفية أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إماماً لهم في بعض الأمور أقصر على ذكر ثلاثة منها خشية الإطالة وهي:-

أولاً : الكشف وذلك من خلال قصة سارية .

ثانياً : لبس المرقعة .

ثالثاً : دعوة عمر - رضي الله عنه - للعزلة .

وسأناقش كل نقطة بالتفصيل والبيان :

فأقول وبالله التوفيق أولاً: إن ما حدث من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة سارية هو كرامة من الله لعبده من عباده الصالحين ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك بقوله: إن الخوارق ثلاثة أنواع : فإما أن تعين صاحبها على البر والتقوى فهذه أحوال نبيناً - صلى الله عليه وسلم - ومن اتبعه ، خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة للمسلمين .
والثاني : تعينهم على مباحات كمن تعينه الجن على قضاء حوائجه المباحة كتسخير الجن لسليمان عليه السلام .

والثالث : أن تعينه على محرمات مثل الفواحش والظلم والشرك والقول الباطل فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان والكفار والفجار مثل أهل البدع من الرافعية (١) وغيرهم فإنهم يستعينون بها على الشرك

(١) طائفة صوفية تنسب إلى أحمد الرافعي (ت ٥٨٠ هـ) من بني رفاعة قبيلة من العرب وجماعته يستخدمون السيوف والحراب في إثبات الكرامات ، كان زاهداً كثير الرياضة النفسية ، انتشرت طريقته في غرب آسيا (انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض الطبعة الأولى ص ٣٤٨) .

وقتل النفس بغير حق والفواحش (١) ثم يقول :وعمر بن الخطاب لما نادى : يا سارية الجبل ، قال : إن لله جنداً يبلغونهم صوتي ، فعلم أن صوته إنما يبلغ بما يسره الله من تبليغ بعض الملائكة أو صالحى الجن فيهتفون بمثل صوته ؛ لأن صوت البشر ليس من القوة والوضوح ما يجعله يبلغ هذه المسافات الطويلة (٢) وبناءً على ذلك فالمسلمون لا ينكرون الكرامة متى ظهرت على يد عبد مؤمن متبع لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويستخدم كرامته في نصره الإسلام ؛ لأن المسلمين يؤمنون بما ورد في القرآن وقد قال تبارك وتعالى في سورة يونس عليه السلام ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ (٣) فبهذا تكون البشارة من الله سبحانه للمؤمنين الصالحين وليس لسواهم ؛ فكل من كان مؤمناً تقياً كان الله تعالى ولياً له فيهبه سبحانه إن شاء وأراد الرؤية الصالحة (٤) وكل ما يؤدي به إلى الفلاح والنجاح ، ولهذا فإنه يجب النظر لحال مدعى الكرامة فإن كانت حاله صالحة وجاء مظهر على يده وفق ما أشرنا إليه فهي كرامة

(١) انظر كتاب النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية دار القلم بيروت لبنان بدون تاريخ ص ١٦-١٧

(٢) انظر المرجع السابق ص ٤١٥

(٣) سورة يونس الآيات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

(٤) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي طبع الرئاسة

العامة لإدارات البحوث لعلمية والافتاء والدعوة والإرشاد . ج ٣ ص ٣٦٧

وإن كانت حاله غير ذلك فهي ليست كرامة وإنما صنف من صنفوف
الشعوذة والكهانة والكذب وعلى من يدعي الكرامة من الصوفية أن يثبت أن
سيرته مثل سيرة عمر - رضي الله عنه - وهو الذي قال فيه الرسول
الكريم - عليه السلام - : (بيننا أنا نائم رأيت الناس عرضوا علىّ وعليهم قمص
فمنها ما يبلغ الندي ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض علىّ عمر وعليه قميص
اجتره ، قالوا : فما أولته يارسول الله ؟ قال : الدين) (١) وهو المشهود له
بالجنة (٢) فهل هذه الشهادة تنطبق على الصوفية ؟ ومن الذي يزكيهم كما
زكي عمر رضي الله عنه ؟ فهو الذي قال عنه الرسول - صلى الله عليه
وسلم - (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) (٣) فكل من كان من
أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر فعليه أن يسلك
سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعاً لما جاء به الرسول - صلى الله
عليه وسلم - (٤) •

(١) صحيح البخاري كتاب الفضائل حديث رقم ٣٦٩١

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب الفضائل حديث رقم ٣٦٩٣

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى وأبو داود عن أبي ذر وأحمد والترمذي عن ابن عمر (انظر كشف الخفاء حديث
رقم ٦٨١)

(٤) الفرقان بين الحق والباطل تأليف شيخ الإسلام تحقيق الشيخ حسين غزال دار إحياء العلوم بيروت ص

ثانياً : لبس عمر رضي الله عنه للمرقعة:

تتفق أكثر الروايات على أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يلبس ثياباً مرقعة ، ولكن هل لبس عمر - رضي الله عنه - هذه المرقعات لنفس الغرض الذي تدعيه وتتشدده الصوفية ، أو لغير ذلك ؟ ، وللإجابة على ذلك ينبغي أن نقول : إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يلبس الثياب المرقعة ولكن لم يكن دائم الحال على ذلك ؛ بل كان يلبس الثياب الجديدة التي ليس بها رقاع وكذلك الثياب المغسولة النظيفة ، ودليله ما روي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : (لبس عمر ابن الخطاب ثوباً جديداً فقال الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتي وأتجمل به في حياتي ٠٠٠) (١) وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأى على عمر قميصاً أبيض ، فقال : (ثوبك هذا غسيل أم جديد ؟) قال : (لا . بل غسيل) قال : (ألبس جديداً وعش حميداً ومث شهيداً) (٢) وكذلك كان من مخصصات الخليفة في

(١) رواه ابن ماجه في سننه كتاب اللباس تحقيق محمد فواد عبد الباقي المكتبة العلمية بيروت لبنان حديث رقم

٣٥٥٧

(٢) حديث صحيح رواه ابن ماجه في سننه كتاب اللباس حديث رقم ٣٥٥٨

صدر الإسلام كسوة الصيف وكسوة الشتاء (١) وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يلبس هذه الكسوة الجديدة كما قال أبو نعيم في الحلية: (لبس قميصاً جديداً) (٢) يعني عمر بن الخطاب ولعل الذي دفع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للباس الثياب المرقعة أحياناً هو القلة والفقر فلقد مرت على المسلمين سنون عجاف في خلافته ، وأراد أن يتساوى بفعله هذا مع أفقر المسلمين حتى لا تكون عليه حجة عند الله في التفريط بحقوق الرعية وإيثار نفسه بالملبس والمأكل دون رعيته ومن هذا المنطلق منع نفسه السمن عام الرمادة ، وكان يأكل الزيت فقط ويلبس الثياب الخشنة، (٣) ثم إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لا يرفع ثوبه حتى يبلى وهذا بخلاف ما يفعله منحرفوا الصوفية إذ يعمدون إلى ثوبين جديدين أو ثلاثة كل واحد منها على لون فيجعلونها خرقاً ويلفقونها فيجمع ذلك الثوب وصفين: الشهرة والشهوة فإن لبس مثل هذه المرقعات أشهى عند خلق كثير من الديباج وبها يشتهر صاحبها

(١) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٤ ونظرات في السيرة البنا ص ٤٩ واتمام الوفاء في سيرة الخلفاء محمد الخضري ص ١٨

(٢) حلية الأولياء ج ١ ص ٤٥

(٣) انظر حلية الأولياء ج ١ ص ٤٨

أنه من الزهاد (١) ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمد الله على أن جملة باللباس الجديد وهذا يدل على أنه يفضل اللباس الجديد دون القديم .

ثالثاً : دعوة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للعزلة : وذلك بقوله : (العزلة راحة من خلطاء السوء) ينسب الصوفية هذا القول لعمر - رضي الله عنه - ويتخذون ذلك سنداً يبررون به ما يقومون به من عزلة وعدم اختلاط بالناس ؛ (لأنهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الخلان وساحوا في البلاد وأجاعوا الأكباد وأعروا الأجساد) (٢) ويذكر الهجويري عن أحد المتصوفة (٣) : (أنه في بداية حاله اعتزل عشرين سنة في البوادي بحيث لا يسمع آدمياً حتى ذابت بنيتة من المشقة ، وصارت عيناه كسم الخياط وتحول عن صورة الأدميين وجاءه الأمر (٤) بالصحب بعد عشرين عاماً) (٥) وقد أمضى بعضهم في الخلوة أحد عشر يوماً بدون طعام ولا شراب (٦) هذه الخلوة التي يريدونها الصوفية ، وأما قول عمر - رضي الله عنه - : فهو قول بليغ وسديد ؛ لأنه قال : العزلة خير من خلطاء السوء ولم يدعوا إلى العزلة واجتناب الاختلاط مطلقاً ؛ لأن

(١) تلبس البليس ص ٢٥٢

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ٢٩

(٣) اسمه أبي عثمان المغربي

(٤) يبدو أنه يعني بذلك نزول الوحي عليه ؛ لأن هذا من غايات العزلة الصوفية وهو التلقي عن الله مباشرة

وبدون واسطة !!

(٥) كشف المحجوب ص ٤١٦

(٦) انظر قوت القلوب ج ٢ ص ٢٠٧

مجالسة أصحاب السوء فيها ضرر كبير على الإنسان ؛ ولهذا حذر الله - سبحانه - من مجالسة أهل السوء فقال تعالى ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ (١) فإن لم يجد الإنسان غير هؤلاء القوم الذين يخوضون بآيات الله فالعزلة أولى من مجالستهم ومخالطتهم ، ولكن ليس كل الناس أهل سوء فمنهم الصالحون والدعاة الذين يأمن المرء بقربهم ويستفيد منهم في طلبه للعلم وغيره من أمور الدين والدنيا ثم إن سيرة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تخالف هذا القول المنسوب إليه فقد كان يخالط الناس وينزل للأسواق ويدير شؤون الأمة فلماذا لم يعتزل وقد مر عليه بعض خلطاء السوء من المنافقين والمرتدين ؟ فلم يتركهم وشأنهم وإنما جالدهم بالسيف ووقف ضدهم بالحجة والبرهان ، فالعزلة تكون مطلوبة إذا خاف الإنسان على انحراف عقيدته أو تسرب شيء من الشوكيات إليه ، وأما إذا كان الإنسان عالماً بأمور دينه وتمكن من دفع الشبه التي تلقى عليه وأمن الفتنة والضرر فعليه عدم الاعتزال عن أهل الضلال وإنما دعوتهم وبيان الصواب لهم بالحجة والبرهان والرفق واللين لعل الله يهديهم إلى الصراط المستقيم فيحصل له الأجر الكبير والثواب العظيم قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٢) إن الفرق واضح بين ما يريده الصوفية من العزلة وبين ما يريده الإسلام ولامجال للمقارنته بين الاثنين .

(١) سورة الأنعام الآية ٦٨

(٢) سورة النحل آية ١٢٥

ج : عثمان بن عفان - رضي الله عنه - :

يدعي الصوفية أن قدوتهم في الإنفاق والبذل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ؛ لأن الإنفاق من ماله كان أحب إليه من الإمساك والخرج عنده أثر من الدخل ولذلك فقد جهز جيش العسرة وشرى بئر رومة من ماله (١) ولهذا يرى الصوفية أن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - هو قدوتهم في بذله للمال (٢) وعدم إمساكه .

المناقشة :

نجيب الصوفية في ذلك فتقول : إن الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ليس إماماً لكم إطلاقاً في هذه القضية فلقد كان تاجراً ثرياً يجمع الكثير من المال ثم ينفقه في وجوه البر ، ونصرة الإسلام مثل تجهيز جيش العسرة من ماله الخاص وكذلك شراء بئر رومة فلو لم يعمل ويتاجر لم يكسب هذا الأجر والثواب ، ولم يستطع جمع هذا المال الوفير الذي كسب به رضا الله - سبحانه - ورسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - . حتى قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم) (٣) فهل بعد هذه المنزلة والمكانة

(١) انظر اللع ص ١٢٧

(٢) انظر كشف المحجوب ص ٢٧٣

(٣) حلية الأولياء ج ١ ص ٥٩

من منزله ؟ وأما أنتم أيها المتصوفة فعلى النقيض من ذلك فأنتم تحرمون جميع المال وتقولون : (لا يكن معك شيء تعطي منه أحداً) (١) (وكان بعضهم - أي المتصوفة - إذ أصبح وعنده شيء أصبح حزينا وإذا لم يصبح عنده شيء أصبح فرحاً مسروراً) (٢) وتقولون أيضاً: إن (الفقر أساس التصوف وبه قوامه) (٣) فهل هذه سيرة عثمان - رضي الله عنه -؟ وهل يستطيع تجهيز جيش بأكمله وشراء بئر رومة ؟ لو كان فقيراً؟ ولو كان يكره أن يبيت عند شيء من المال ؟

إن من يجعل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قدوة وإماماً له فعليه أن يسلك نفس طريقه ويقتدي به ، فلا قيمة للدعوى إذا لم يتبعها تطبيق ، فعثمان بن عفان - رضي الله عنه - كان يجمع المال من حله ومن الطريق الحلال فيتعب ويجتهد ويتخذ الأسباب المعينة له على الربح ثم ينفقه في نصرة الإسلام ووجوه البر والإحسان المختلفة ، وهذا بخلاف حال أهل التصوف الذين يدعون إلى عدم العمل وإلى البطالة والتسول وعدم الإنتاج فكانوا عالة على المجتمع الإسلامي بدلاً من أن يكونوا أعضاء عاملين نافعين .

(١) عوارف المعارف للسهروردي ص ٩٢

(٢) إيقاظ الهم لابن عجيبة الحسني مطبعة الباني الحلبي ط ٣ سنة ١٤٠٢ هـ ص ٢١٣

(٣) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

د . علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - :

نظراً لتشابه موقف الصوفية من الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مع موقف الشيعة وتجنباً للتكرار فإنني سأبحث ذلك في مبحث التشيع . (١)

هـ . أهل الصفة - رضي الله عنهم - :

يدعي الصوفية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد رأى حال أهل الصفة وعلم ما هم عليه من ترك الاكتساب والجلوس انتظاراً للصدقات فأقرهم على هذا العمل ولم يأمرهم بالعمل أو بطلب المعاش (٢) وهم الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ، وكفوا أيديهم عن الدنيا ، وأعرضوا عن الكسب ، (٣) وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع (٤)

(١) انظر ص ٨٥ من هذا البحث

(٢) انظر اللمع ص ١٣٣

(٣) كنف المحجوب ص ٢٨٥

(٤) عوارف المعارف ص ١٠٢

المناقشة:

يرى الصوفية أن أصحاب الصفة قد تركوا الكسب والعمل اختياراً وأن انقطاعهم إلى العبادة في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس اضطراراً فأقول وبالله التوفيق :

إن بناء الصفة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ضرورياً لمواجهة ظرف طارئ على المسلمين ، وذلك نظراً لأنهم قد هاجروا من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فراراً بدينهم من أذى قريش وجبروتها ونتيجة لذلك فقد هاجر بعض المسلمين وترك خلفه كل ما يملك .

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاًً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١) ومع ذلك فقد كان هؤلاء الفقراء من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند إمكان الاكتساب الذي لا يصدهم عما هو أوجب أو أحب إلى الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - من الكسب وأما إذا أحصروا في سبيل الله عن الكسب ، فكانوا يقدمون ما هو أقرب إلى الله ورسوله ، وكان أهل الصفة ضيوف الإسلام يبعث إليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بما يكون عنده ، لأن الغالب عليهم الحاجة ؛ لأن ما يكسبونه لا يكفي بما يحتاجون إليه من الرزق (٢)

(١) سورة الحشر آية ٨

(٢) انظر فتاوي شيخ الإسلام ج ١١ ص ٤٤

ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد ، بل منهم من يتأهل ، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له ، ويجيء ناس بعد ناس ، فكانوا تارة يقلون وتارة يكثر (١) ولم يكن من أهل الصفة من يتخذ مسألة الناس ولا الإلحاف في المسألة صناعة وحرفة (٢) ومع ذلك فلم تمنعهم هذه الحالة التي هم عليها من الفقر والجوع عن الخروج في سبيل الله مجاهدين يقاتلون أعداء الله ورسوله وينشرون الإسلام (٣) ولم يكن أهل الصفة مثل فقراء التكايا - الصوفية - بل كانوا أول من يسارع إلى القتال إذا دعا داعية فكانوا بمثابة الجيش الواقف على قدم الاستعداد لأي نازله تصيب الأمة أو تهدد كيانه .

ولما كثر عدد المسلمين ، ولم يبق لبقائهم حاجة أخرجهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من المسجد ؛ ليكلفوا أرزاقهم بأنفسهم (٤) لتغير الأحوال والظروف التي دعتهم للسكن في صفة مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتي انتهت دورها بالنسبة لهؤلاء بإخراج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لكل من كان فيها من الفقراء لكي يعتمدوا على أنفسهم في كسب أرزاقهم وأقواتهم بدلاً من انتظار الصدقات وما تجود به أيدي الناس عليهم ، فكان في عمل أمير المؤمنين - رضي الله عنه - أبلغ إشارة لكل متهاون كسول في طلب رزقه ؛ لأن السماء لا تمطر ذهباً فكل إنسان مسؤول عن نفسه .

(١) الفتاوى لشيخ الإسلام ج ١١ ص ٤١

(٢) انظر الفتاوى لشيخ الإسلام ج ١١ ص ٤١

(٣) انظر التصوف منشؤه ومصطلحاته للدكتور أسعد السحمراني ص ١٥-١٧

(٤) التصوف في الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه د/ عبد اللطيف محمد العبد ص ٢٠

المطلب الثاني : التشيع •

تعريف الشيعة :

الشيعة في اللغة : هم الأتباع والأنصار " وشيعة الرجل " بالكسر " أتباعه وأنصاره ، والفرقة على حده ، ويقع على الواحد والاثنتين والجمع والمذكر والمؤنث وجمعه أشياع وشيع" (١) (وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ... ، وكل من عاون إنساناً وتحزب له فهو له شيعة) (٢)

وأما في الاصطلاح: فالشيعة : (هم الذين شايعوا علياً - رضي الله عنه - على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً واعتقدوا أن الأمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فيظلم يكون من غيره ، أو ببقية من عنده) (٣) وهكذا فالتشيع اصطلاحاً أساسه الاعتقاد بأن علياً - رضي الله عنه - وذريته أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأن علياً، أحق بها من أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - عهد بها من بعده إليه وكل إمام يعهد بها لمن بعده (٤) وهي منصب إلهي كالنبوة (٥) عند الشيعة .

(١) القاموس المحيط (باب العين فصل الشين)

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس محب الدين أبي الفيض الواسطي طبعة دار مكتبة الحياة لبنان مادة شاع

(٣) الملل والنحل للشهرستاني تحقيق عبد العزيز الوكيل طبعة دار الفكر ص ١٤٦ وانظر الصلة بين التصوف

والتشيع طبعة دار الأنجلس بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ للشيباني ج ١ ص ١٩

(٤) انظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية الدكتور عرفان عبد الحميد ص ٢٢

(٥) انظر أصل الشيعة وأصولها محمد حسين آل كاشف الغطاء بدون تاريخ طبعة ص ٥٨

وتبدو الصلة بين التشيع والتصوف واضحة في عدة جوانب وهم يتفقون فيها اتفاقاً يكاد يكون متطابقاً حتى ولو حاولوا تجنب استخدام نفس العبارات والمصطلحات التي يستخدمها الطرف الآخر، وكون التشيع كان متقدماً على التصوف في النشأة فلا مجال للشك، في أن الصوفية قد تأثروا في بعض الجوانب بالتشيع والتي من أهمها ما يلي :

أ - الإمامة الشيعية والولاية الصوفية (١) .

١ - الإمامة عند الشيعة:-

الإمامة لغة : أم القوم تقدمهم وهي :الإمامة ، رأس القوم : أمهم . والإمام : ما أؤتم به من رئيس وغيره والجمع أئمة (٢)

واصطلاحاً : هي خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسية الدنيا (٣)

وللإمامة عند الشيعة مفهوم خاص ولذلك فقد بنوا مذهبهم على أن الأئمة أناس مختارون من قبل الله - سبحانه وتعالى - لقيادة الأمة وتدبير شؤونها بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولذلك فهم يملكون علوماً خاصة لدنية ولا يخطئون ولا ينسون ، ولهم منزلتهم من الله التي استحقوها استحقاقاً ووهباً واختصاصاً واجتباءً ثم غلوا في هؤلاء الأئمة فجعلوهم آلهة وأرباباً بكل ما تحمله الكلمة من معان فالأئمة عند الشيعة متصرفون في كل ذرات الكون وهم الذين يدخلون الجنة من شاءوا ويدخلون النار

(١) انظر قطر الولي على حديث الولي للإمام الشوكاني تحقيق الدكتور ابراهيم هلال توزيع دار الباز ص ٧٨

(٢) انظر المعجم الصافي في اللغة صالح العلي وأمينة الأحمد باب (الألف) وانظر القاموس المحيط باب (الميم)

(٣) الأحكام السلطانية تأليف ابن الحسن علي بن محمد الماوردي الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧هـ ص ٥

من أرادوا ومنهم من جعل منزلة هؤلاء الأئمة فوق منازل الرسل والملائكة جميعاً (١)؛ لأن لأئمتهم مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وإنهم يتحكمون في قرارات هذا الكون (٢) ولهذا فإن للإمام عند الشيعة (مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون وإن من ضروريات - المذهب الشيعي - أن للأئمة مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ونبي مرسل بموجب ما لديهم من روايات وأحاديث تثبت أن الأئمة كانوا قبل هذا العالم أنواراً فجعلهم الله بعرشه محدقين وجعل لهم من المنزلة الزلفى ما لا يعلمه إلا الله ... وقد ورد عن أئمتهم أن لهم مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ونبي مرسل (٣) ثم يستمر الغلو الشيعي في الأئمة حتى نزلوا أئمتهم منزلة تساوي منزلة الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - ومن ذلك ما ينسبونه لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: (أنا الذي علوت فقهرت ، وأنا الذي أحييت وأميت وأنا الأول والآخر والظاهر والباطن) (٤) ولهذا فإن إمام الشيعة (يعلم ما في السماوات والأرض وما في الجنة وما في النار ويعلم ما كان وما يكون) (٥) ؛ لأن (الأئمة لم يفعلوا شيئاً ولا يفعلون إلا بعهد من الله عز وجل وأمر منه لا يتجاوزونه) (٦)

(١) بحار الأنوار محمد باقر المجلسي دار الكتب الإسلامية ج ٢٦ ص ١٩٤-٢٠٠ وانظر الفكر الصوفي

عبد الرحمن عبد الخالق ص ٤١٧

(٢) الحكومة الإسلامية آية الله الخميني طبعة دار الطليعة بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٩ م ص ٥٢

(٣) الحكومة الإسلامية آية الله الخميني ص ٥٢ (بتصرف يسير)

(٤) انظر الاختصاص للشيخ المفيد تحقيق محمد باقر مكتبة بصيرتي بقم بدون تاريخ ص ١٥٧ وانظر الاحتجاج

لأحمد علي الطبرسي مؤسسة النعمان بيروت بدون تاريخ ج ٢ ص ٢٨٥

(٥، ٦) الأصول من الكافي / محمد يعقوب الكليني تحقيق علي الغفاري ط ٤ ١٣٩٢ ج ٢ ص ٥٧، ١١

ولأن الإمامة عند الشيعة ذات مكانة رفيعة ، ودور عظيم فإنه لا بد من إمام في كل زمان ومكان ولو لم يكن في الأرض إلا اثنان لكان الإمام أحدهما ولهذا فإن (الأرض لا تخلوا من حجة) (١) أبداً (ولو بقيت الأرض بغير إمام لساخت) (٢) - كما يزعمون - ولهذا فإن الأئمة معصومون عن الخطأ والنسيان وعن اقتراف الكبائر والصغائر (٣) . وتبعاً لذلك فإن الدين كله يكون بطاعة رجل (٤) ولمكانة الإمام وجسامة الدور الذي يقوم به فلا بد من مساعدين له يساعدونه ويسمون الحجاج يبنون الدعوة في غيبة الإمام أو في حضرته وهم مقدسون وعددهم ثابت لا يتغير وهو اثنا عشر رجلاً وهكذا يشارك الحجة الإمام في العلم والدعوة والسند الإلهي (٥) .

٢ - الولاية عند الصوفية :-

الولاية لفظ يدور حول الولي ، والولي لغة هو : (المحب والصديق والنصير وولي الشيء ووليّه ولاية وولاية وتولية : اتخذ ولياً) (٦)

(١) الأصول من الكافي للكليني ط دار الكتب الإسلامية طهران ط ١٩٨٨م ج ١ ص ١٨٠

(٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٧٩

(٣) انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٠١ وانظر تاريخ الإمامية عبد الله فياض مؤسسة الأعلمي بيروت ط ٢ سنة ١٣٩٥هـ ص ١٥٧ وانظر حياة الإمام الحسين بن علي تأليف باقر شريف

القرشي مطبعة الآداب ط ٢ سنة ١٣٩٠هـ ج ١ ص ١١١

(٤) انظر الملل والنحل للشهرستاني ص ١٤٧

(٥) الصلة بين التصوف والتشيع للشيبي ج ١ ص ٢٢٥ وانظر خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٣١

(٦) القاموس المحيط (باب الياء فصل الواو) ومختار الصحاح محمد بن أبي بكر الرازي مكتبة لبنان (باب الواو)

وكما أن للإمامه عند الشيعة مفهوم خاص للولاية عند الصوفية مفهوم يشابه إلى حد كبير ما عند الشيعة فهذا القشيري يذكر معنى الولي بقوله: (١) إذا قيل ما معنى الولي ؟ قيل : يحتمل أمران : -

الأول : أن يكون فعيل مبالغة من الفاعل ، كالعليم والقدير وغيره ويكون معناه : من توالى طاعته من غير تخلل معصية .

والثاني : يجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول ، كقتيل بمعنى مقتول وجريح بمعنى مجروح ، وهو الذي يتولى الحق سبحانه وتعالى حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة قال تعالى : ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ (٢) فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايته (٣) ثم قال : (وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي ولياً يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ودوام حفظ الله - تعالى - إياه في السراء والضراء ومن شروط الولي أن يكون محفوظاً ...) (٤)

(١) الرسالة القشيرية للقشيري ص ٣٥٩

(٢) سورة الأعراف آية ١٩٦

(٣) الرسالة القشيرية للقشيري ص ٢٦٠

(٤) الرسالة القشيرية للقشيري ص ٢٦٠

لأن (نهايات الأولياء بدايات الأنبياء) (١) ، ويفهم من هذه الأوصاف أن الولي يكون معصوماً فلا يقع منه الخطأ أو النسيان ؛ ولهذا (لا تخلوا الأرض من قائم لله تعالى بحجة إما ظاهراً مكشوفاً وإما خائفاً مقهوراً لنلّا تبطل حجج الله تعالى وبيّناته) (٢) وقد ادعى الصوفية أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قد أفادهم من علم التصوف ؛ (لأنه أعطي علم اللدني وله خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمعاني جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة ... ؛ ولهذا تعلق وتخلق به أهل الحقائق من الصوفية) (٣) ويرون أن لأمير المؤمنين - رضي الله عنه - شأنًا عظيمًا ودرجة عالية في طريقة التصوف حتى قال الجنيد : (شيخنا في الأصول والبلاء علي المرتضى) (٤) ثم يذهب الصوفية أبعد من ذلك حين قالوا : (يجوز أن يكون من جملة كرامات الولي أن يعلم أنه مأمون العاقبة وأن عاقبته لا تتغير) (٥) وأيضاً فإن الولي الصوفي (يأخذ علمه من ربه بأي وقت شاء بلا تحفظ ولا درس) (٦) ويقول أحد أئمة التصوف : (٧) (إن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم حتى يكون علمه من الله عز وجل بلا وساطة ... فيأخذ عنه العلم بالأمور من طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب ولا سهر) (٨) ويقول أبو يزيد البسطامي (٩) لعلماء عصره : (أخذتم علمكم من

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب أبو طالب الملكي ط دار الفرج ١ ص ١٣٤

(٤) انظر كشف المحبوب للهجویری ص ٢٧٤ (٥) الرسالة القشيرية ص ٣١٠

(٧) ابن عربي

(١) الرسالة القشيرية ٢٦٢

(٣) التلح للمراج ص ١٢٩

(٦) المكنون الدرية ٢٤٦/١

(٨) رسائل ابن عربي - رسالته إلى الإمام فخر الرازي - دار احیاء التراث العربی بیروت ط ١٣٦١ هـ

(٩) أبو یزید طیفور - بن عیسی البسطامي (١٨٨ - ٢٦١ هـ) كان جده مجوسياً وقد أسلم (الرسالة القشيرية ص ٣٩٥)

علماء الرسوم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت (١) وإذا كان الولي قد وصل إلى هذه المرتبة من العلم والقدرة فإنه تجب له الطاعة المطلقة لأنه (ليس مريداً البتة من لم يكن أطوع لشيخه من ربه) (٢) ويقول أحد أولياء الصوفية لأحد تلاميذه (إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بي) (٣) ويستمر الغلو الصوفي في النسق ذاته الذي سار فيه الغلو الشيعي إلى أن يصل إلى مرحلة ادعاء الألوهية .

فهذا ولي (٤) صوفي يدعي أنه وصل إلى مرحلة الألوهية يقول: (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني) (٥) ويقول: (سبحاني ما أعظم شأني) (٦) فهل وراء هذا من شيء - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - ؟ ثم ينهج المتصوفة نهج الشيعة في تقسيمات الولاية إذ يجعلون الولاية مراتب ويقع على رأس هذا التقسيم الغوث الأكبر وهو أكبر الأولياء جميعاً وهو واحد فقط في كل زمان وتحت الغوث أربعة أوتاد كل وتد في ركن من أركان العالم يقوم به ويحفظه ثم الأقطاب السبعة ثم الأبدال وهم أربعون فالنجباء وهم ثلاثمائة (٧)

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٥

(٢) تذكرة الأولياء فريد الدين العطار ج ١ ص ١١١

(٣) قتال هذا الكلام نور النون المصري

(٤) هو أبو يزيد البسطامي

(٥) تذكرة الأولياء ١١٦/١

(٦) تذكرة الأولياء ١١٩/١

(٧) انظر في ذلك كتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر عبد الوهاب الشعراني دار المعرفة بيروت

أوجه الشبه بين الإمامة عند الشيعة والولاية عند الصوفية :-

- ١ - يتفقون على وجوب الإمامة والولاية (١).
 - ٢ - يتفقون على أن لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مكانه خاصة تختلف عن باقي الصحابة - رضي الله عنهم - جميعاً .
 - ٣ - يدعون العصمة للإمام والولي .
 - ٤ - يدعون أن الإمام والولي يعلمان الغيب ويتصرفان في الكون .
 - ٥ - يذهب الغلاة منهم إلى وصف الإمام والولي بصفات الإلهية .
 - ٦ - يتفقون في أن الدين طاعة رجل .
 - ٧ - لهم تقسيمات تشبه بعضها فيما يتعلق بالإمامة والولاية مثل إمام وحجة وولي وغوث ووند .
- ولهذا فقد ثبت لديّ وبما لا يدع مجالاً للشك أن الإمامة والولاية هما وجهان ، لعمله واحدة ، فهذه حال أهل الضلال وإن اختلفت مسمياتهم فإنهم في الحقيقة ينطلقون من قاعدة واحدة ويسعون لهدف واحد وغاية مشتركة .

(١) وجوب الإمامة أصل من أصول أهل السنة والجماعة ، ولكنهم يختلفون عن الشيعة والصوفية في التفصيلات (انظر الأحكام السلطانية للماوردي ص ٥)

ب - القول بالظاهر والباطن :

وأما الفكرة الأخرى التي تسربت إلى التصوف من التشيع واعتنقها الصوفية بتمامها، فهي فكرة تقسيم الشريعة إلى الظاهر والباطن (١) ولما كانت العقائد الباطنية ، تقوم على التأويل الباطني فلا بد أن يكون لها ظاهر وباطن . والأصل في استعمال الباطن أنه خلاف الظاهر . وقد ورد أيضاً في القرآن الكريم بما يحدد دلالاته على أنه استعمال مخالف للظاهر (٢) يقول تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ (٣) وقد يتبادر إلى الذهن أن الأخذ بالظاهر هو من قبيل الالتزام بدلالة النصوص اللغوية المباشرة وما يفهم من ظاهرها إلا أن الأمر يختلف اختلافاً كلياً عند الباطنيين لأن الظاهر لديهم بمثابة رسوم الدخول في الباطنية حتى يتحقق لهم إسقاط التكاليف الشرعية ؛ لأنه في نظرهم من عرف المعنى الحقيقي لعبادة من العبادات سقطت عنه هذه العبادة متأولين بغير ما يقتضي على الإطلاق (٤) قوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ (٥) معتقدين أن اليقين هو معرفة التأويل .

ولهذا سأعرض لموقف كلا الفريقين من القول بالظاهر والباطن مختصراً

(١) التصوف المنشأ والمصادر احسان إلهي ظهير إدارة ترجمان السنة باكستان الطبعة الأولى ص ٢٤٣

(٢) العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها د . صابر طعيمة المكتبة الثقافية بيروت ط ٢ ١٤١١ هـ ص ١١

(٣) سورة الحديد الآية ١٣

(٤) انظر العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها (بتصرف) ص ١٥

(٥) سورة الحجر آية ٩٩

١ - الظاهر والباطن عند الشيعة :

الشيعة بوجه عام وخاصة الاسماعيلية (١) يعتقدون أن لكل ظاهر باطناً . وقد اختص بمعرفة الباطن علي - رضي الله عنه - وأولاده ولهذا قالوا : (لا بد لكل محسوس من ظاهر وباطن ، فظاهرة ما تقع الحواس عليه ، وباطنه ما يحويه ويحيط به بأنه منه ، وظاهره مشتمل عليه) (٢) ثم ينسبون كلاماً مكذوباً على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه قال : (ما نزلت عليّ آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع) (٣) ثم قسموا الظاهر والباطن بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين وصية علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقالوا : (كانت الدعوة الظاهر : قسط الرسول - عليه السلام - ، والدعوة الباطنة : قسط وصية الذي فاض منه جزيل الإنعام) (٤) ويستمرون على هذا المنوال فيقولون : (إن الظاهر : هو الشريعة ، والباطن : هو الحقيقة ، وصاحب الشريعة : هو الرسول - عليه السلام - ، وصاحب الحقيقة : هو الوصي

(١) الإسماعيلية : فرقة باطنية ، انتسبت إلى الإمام اسماعيل بن جعفر الصادق ، ظاهرها التشيع لآل البيت وحقيقتها هم عقائد الإسلام تشعبت فرقتها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر (انظر الموسوعة الميسرة في

الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٤٥) وانظر فضائح الباطنية للغزالي ص ١١ ، ١٢

(٢) كتاب أسامس التأويل للنعمان القاضي ط ١ دار الثقافة بيروت ص ٢٨

(٣) انظر أعلام النبوة لأبي حاتم الرازي تحقيق صلاح الصادي طبعة انجمن ١٣٩٧هـ - نقلاً من كتاب

النصروف المنشأ والمصادر ص ٢٤٣

(٤) كتاب الذخيرة في الحقيقة علي بن الوليد ط دار الثقافة بيروت ص ١١٣

على بن أبي طالب (١) وبهذا فهم يرون أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما هو إلا صاحب قشور ؛ لأن الظاهر هو القشر وأما اللب والحقيقة فهي عند الوصي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - .
 ويفهم من هذا القول أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يأتي بظاهر هذا الدين فقط ولا يعرف لبه و أسرار له وإنما أنيط ذلك بوصية ، ولهذا يقولون : (إن القرآن له ظهر وبطن) (٢) حتى يبيحوا لأنفسهم التصرف بنصوص القرآن كيفما يشاءون ؛ لأنهم هم المختصون بفهم باطن القرآن وما تقتضيه آياته وتشريعاته بخلاف الذين لا يستطيعون فعل ذلك ؛ لأنهم لا يستطيعون إدراك هذا العلم الباطني ، وإنما يقتصر علمهم على ظاهر الآيات فقط ، وبذلك فإنه من وجهة نظر الشيعة يكون سائر المسلمين - بخلافهم - محرومين من علم عظيم محجوبين عن فهم الدين الصحيح ؛ لأنهم مقيدون بعلم الظاهر وحده دون علم الباطن الذي هو في نظرهم العلم الحقيقي وهو المقصود .

(١) انظر الافتخار لأبي يعقوب المسجستاني ط لبنان ص ٧١

(٢) انظر كتاب الحجة من أصول الكافي للكليني ط طهران ج ١ ص ٣٧٤

٢ - الظاهر والباطن عند الصوفية :

لقد أخذ الصوفية بدورهم أفكار الشيعة ومعتقداتها في القول بالظاهر والباطن فأمنوا بها واعتقدوها وجعلوها من الأصول والقواعد عندهم وهذا حال الصوفية بوجه عام فهم يرقعون مذهبهم من المذاهب الأخرى كما يرقعون ثيابهم ، ومما يؤيد ما أشرنا إليه أنهم قالوا بمثل ما قالت الشيعة من أن (العلوم ثلاثة : ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن ، كما أن الإنسان له ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن . فعلم الشريعة ظاهر ، وعلم الطريقة باطن ، وعلم الحقيقة باطن الباطن) (١) ويقولون أيضاً : (إن العلم ظاهر وباطن ... ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ، ولا الباطن عن الظاهر) ويستشهدون بقول الله تعالى :

﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ (٢)

فالمستبطن هو العلم الباطن ، وهو علم أهل التصوف ، لأن لهم مستبطنات من القرآن والحديث ، وغير ذلك ... فالعلم ظـاهر وباطن ،

(١) الفتوحات الإلهية لابن عجيبة ط عالم الفكر القاهرة ص ٣٣٣

(٢) الآية ٨٣ من سورة النساء وتاممها ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذا عباه ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾

والقرآن ظاهر وباطن ، وحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ظاهر وباطن ، والإسلام ظاهر وباطن (١) وذكر الصوفية نفس الرواية التي نقلتها الشيعة الإسماعيلية وهي أن " لكل أية ظاهر وباطن ، وحد ومطلع " (٢)

ولم يقف التوافق مع الشيعة إلى هذا الحد ؛ بل تابعوا الشيعة بالقول باختصاص علي - رضي الله عنه - دون الآخرين بعلم الباطن فأوردوا في كتبهم نفس الرواية الشيعية وهي ما ينسبونه إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال : (علمني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبعين باباً من العلم لم يعلم ذلك أحد غيري) (٣) ؛ لأن علي بن أبي طالب هو ابن عم المصطفى ، وغريق بحر البلاء ، وحريق نار الولاء...وله في هذه الطريقة شأن عظيم ، ودرجة رفيعة . وكان له حظ تام في دقة التعبير عن أصول الحقائق إلى حد أن قال الجنيد شيخناً في الأصول والبلاء

(١) اللمع للسراج الطوسي ط دار الكتب الحديثة مصر ص ٤٣-٤٤

(٢) لطائف المنن لابن عطاء الله الأسكندري تحقيق الدكتور : عبد الحليم محمود ط مطبعة حسان القاهرة

١٩٤٧ ص ٢٤٨

(٣) انظر درر الغواص على فتاوي سيدي علي الخواص ص ٧٣ بهامش الإبريز للدباغ ط مصر وانظر كتاب

الخصال لابن بابوية القمي أبواب السبعين وما فوقه ط مكتبة الصدوق ص ٥٧٢

علي المرتضي - رضي الله عنه - ؛ أي أن علياً - رضي الله عنه - هو إمام هذه الطريقة في العلم والمعاملة فأهل الطريقة يطلقون على علم الطريقة اسم الأصول ، ويسمون تحمل البلاء فيها بالمعاملات (١) ثم يدعون أن علياً - رضي الله عنه - كان يملك علماً لدنياً أسوة بالخضر عليه السلام (٢) ومن الصوفية من يرى أن (علم الباطن: هو علم يقين المقربين ، وثمرته الفوز برضا الله تعالى ونيل سعادة الأبد ، وبه تزكية النفس وتطهيرها، وتنوير القلب وصفاءه بحيث يتكشف بذلك النور أمور جلية ويشهد أحولاً عجيبة) (٣) ؛ ولهذا فلا يكون (لأحد من أهل الظاهر حجة على أهل الباطن) (٤)؛ لأن (علم الباطن سر من أسرار الله) (٥) (يقذفه في قلب من يشاء من عباده) (٦) ويستمر الصوفية في هذا الهذيان فيقولون : (أهل الظاهر هم أهل الخبر واللسان وعلماء الباطن هم أرباب القلوب والعيان ... وعلم الظاهر محكوم ، وعلم الباطن حاكم والحكم موقوف حتى يأتي الحاكم بحكم فيه) (٧) إذن فكل ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١) كنف المحبوب ص ٢٧٣-٢٧٤

(٢) كتاب اللع ط دار الكتب الحديثة مصر ص ١٧٩

(٣) حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب لعماد الدين الأموي ج ١ ص ٢٥٩-٢٦١ بهامش قوت القلوب لأبي طالب المكي ط دار صادر بيروت .

(٤) انظر قواعد التصوف لأحمد بن زروق طبعة مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٧٦

(٥) جامع الأصول في الأولياء أحمد الكشمخاوي طبعة المطبعة الوهية طرابلس ١٢٩٨هـ ص ٢٥٨

(٦) جمهرة الأولياء لأبي الفيض المنوفي الحسني طبعة مؤسسة الحلبي القاهرة ج ١ ص ٨٨

(٧) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ١٥٨

موقوف - حسب زعم الصوفية - حتى يحكموا فيه بحكمهم ؛ لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صاحب العلم الظاهر ، وهم وأوليائهم أصحاب العلم الباطن فهل بعد ذلك من غلو ؟ وهل يمكن للمرء أن يقف أمام ذلك وقوف المتساهل الذي يبحث عن الأعذار لهؤلاء ؟ ، إنه طعن واضح وقدح صارخ بكل ما جاء به المصطفى - صلى الله عليه وسلم - من قرآن وسنة وهدم لكل الإسلام وتعاليمه وتشريعاته .

وقد يتساءل المرء ما الذي دفع الصوفية إلى الالتجاء إلى علم الباطن ومنه إلى التأويل فأقول : إن أسباب ذلك كثيرة ولعل أهمها : -
أنهم لم يجدوا في القرآن والسنة ما يمكن أن يكون سنداً لهم على منهجهم ومسلكتهم ودليلاً على طرقهم التي اختاروها والمناهج التي اخترعوها للوصول إلى الله والحصول على معرفته ورضائه فالتجأوا إلى العلم الباطن والتأويل الباطني (١) ومع ذلك استطاع الصوفية - متبعين في ذلك الشيعة - أن يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلاً يلائم أغراضهم ، على أن كل آية ؛ بل كل كلمة في القرآن تخفي وراءها معنى باطناً لا يكشفه الله إلا للخاصة من عباده ... ومن هنا نستطيع أن نتصور كيف سهل على الصوفية بعد أن سَلَمُوا بهذا المبدأ أن يجدوا دليلاً من القرآن لكل قول من أقوالهم ونظرية من نظرياتهم (٢) . وهناك سبب آخر

(١) 'تصوف المنشأ والمصادر إحصان إلهي ظهير ص ٢٥١

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه نيكولسن ترجمه أبو العلاء عفيفي ص ٧٦

موقوف - حسب زعم الصوفية - حتى يحكموا فيه بحكمهم ؛ لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صاحب العلم الظاهر ، وهم وأوليائهم أصحاب العلم الباطن فهل بعد ذلك من غلو ؟ وهل يمكن للمرء أن يقف أمام ذلك وقوف المتساهل الذي يبحث عن الأعذار لهؤلاء ؟ ، إنه طعن واضح وقدح صارخ بكل ما جاء به المصطفى - صلى الله عليه وسلم - من قرآن وسنة وهدم لكل الإسلام وتعاليمه وتشريعاته .

وقد يتساءل المرء ما الذي دفع الصوفية إلى الالتجاء إلى علم الباطن ومنه إلى التأويل فأقول : إن أسباب ذلك كثيرة ولعل أهمها : -
أنهم لم يجدوا في القرآن والسنة ما يمكن أن يكون سنداً لهم على منهجهم ومسلكتهم ودليلاً على طرقهم التي اختاروها والمناهج التي اخترعوها للوصول إلى الله والحصول على معرفته ورضائه فالتجأوا إلى العلم الباطن والتأويل الباطني (١) ومع ذلك استطاع الصوفية - متبعين في ذلك الشيعة - أن يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلاً يلائم أغراضهم ، على أن كل آية ؛ بل كل كلمة في القرآن تخفي وراءها معنى باطناً لا يكشفه الله إلا للخاصة من عباده ... ومن هنا نستطيع أن نتصور كيف سهل على الصوفية بعد أن سلّموا بهذا المبدأ أن يجدوا دليلاً من القرآن لكل قول من أقوالهم ونظرية من نظرياتهم (٢) . وهناك سبب آخر

(١) التصوف المنشأ والمصادر إحسان إلهي ظهير ص ٢٥١

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه نيكولسن ترجمه أبو العلاء عفيفي ص ٧٦

وهو (أنهم تقولوا بكلمات كلها كفر وإلحاد ونقل عن الباطنية والتشيع والفرق الباطنة الأخرى ، فلما سمع العلماء هذه المقولات كفروهم بها ورموهم بالإلحاد والزندقة فلم يسعهم آنذاك إلا القول بالظاهر والباطن والهروب إلى التأويل)(١) وقد أورد المتصوفة في كتبهم أمثلة كثيرة تبين ذلك (٢) ثم إن الصوفية يستخدمون هذا العلم للتحرر من العبادات وإسقاط التكاليف .

وفي هذا الإطار قالوا إذا وصلت إلى مقام اليقين سقطت عنك العبادات (٣) ، مؤولين قوله عز وجل : ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (٤) وقد رفع الله عن بعضهم فريضة الصلاة (٥) كما يزعمون .

(١) التصوف المنشأ والمصادر لإحسان إلهي ظهير ص ٢٥٢

(٢) انظر مثلاً للمع للسراج الطوسي ص ٤٩٧ وما بعدها

(٣) اتحاف السادة للزبيدي ج ٨ ص ٢٧٨ نقلاً عن كتاب نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها للدكتور عرفان

عبد الحميد طبعة المكتب الإسلامي بيروت ١٩٧٤ ص ٧٤

(٤) سورة الحجر آية ٩٩

(٥) انظر تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار (أردو) طبعة باكستان ص ٧٣ نقلاً من كتاب التصوف المنشأ و

المصادر .

ج . تقديس القبور ————— : -

نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن زيارة القبور في البداية مخافة تسرب الشرك للمسلمين لكونهم قريبي عهد بجاهلية ، وعندما وضحت تعاليم الدين واستقرت في القلوب أذن صلى الله عليه وسلم للمسلمين بزيارة القبور فقال صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة) (١) ولم يكن الهدف من ذلك مجرد زيارة وإنما للعبرة والعظة ، ولْيُعلم أن هذا مصير كل حيٍّ ومن خلال هذا التشريع أصبحت زيارة القبور سنة للرجال ، ولكن يحرم إسراجها أو اتخاذها مساجد (٢) لقوله صلى الله عليه وسلم (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) (٣) ويكره البناء على القبر وتجسيصه (٤) لما رواه الإمام مسلم (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه) (٥) وأما من

(١) رواه ابن ماجة في سننه كتاب الجنائز حديث رقم ١٥٧١ وقال الشارح حديث اسناده حسن وورد في (فيض القدير حديث رقم ٦٤٣٠) وقال اسناده صحيح .

(٢) انظر الروض المربع بشرح زاد المستقنع للعلامة الشيخ / منصور بن يونس البهوتي تحقيق / محمد عبد الرحمن عوض دار الكتاب العربي ص ١٦٠

(٣) رواه البخاري في الصحيح باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور حديث رقم ١٣٢٠

(٤) المغني لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه مكتبة الرياض الحديثة ج ٢ ص ٥٠٧

(٥) رواه مسلم في الصحيح كتاب الجنائز حديث رقم ٩٤

يزور القبور لطلب الشفاعة أو قضاء حاجة من الحوائج (أو يقصد الدعاء عند قبر لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء فالزيارة على هذا الوجه كلها مبتدعه لم يشرعها النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا فعلها الصحابة - رضي الله عنهم - لا عند قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا عند غيره وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك (١) فذلك كله حرام لا يقره الشرع الإسلامي ، ولم يكن ذلك من مقاصد الدين الإسلامي الذي جاء بالتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده سواء كانت عبادة قولية أو فعلية ؛ ولذلك (لا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشائخ الغائبين ولا الميتين ، مثل أن يقول يا سيدي فلان أغثني وانصرني وادفع عني ، أو أنا في حسبك ونحو ذلك ، كل ذلك من الشرك الذي حرم الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم - لما كانوا من جنس عباد الأوثان - صار الشيطان يضلهم ويغويهم كما يضل عباد الأصنام ويغويهم (٢) ومع ذلك فإن هناك ممن ينتسبون للإسلام ابتلوا بتقديس القبور وعبادتها .

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية المكتب الإسلامي ص ٢٤

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٥٤ وانظر كتاب الرد على الأحنائي تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض سنة ١٤٠٤ هـ ص ١٩٩ وانظر الوصية الكبرى في عقيدة أهل السنة والفرقة الناجية لشيخ الإسلام ابن تيمية ط ٣ سنة

١ = الشيعة وتقدس القبر ———— : -

يعتقد الشيعة أن زيارة قبور أئمتهم من الأمور العظيمة ؛ بل يرون أن زيارة قبر أي إمام أفضل من زيارة مكة المكرمة ؛ بل وأفضل من أداء فريضة الحج ذاتها؛ لأن (الله يتجلى لزوار الحسين قبل أهل عرفات) (١) ويرون أن (من زار أرض كربلاء ليلة عرفة وأقام بها العيد وقاه الله شر سنته) (٢) ؛ لأنها مكان لأضرحة ومقابر أئمتهم ومن أراد زيارة الله في عرشه - تعالى الله عما يقولون - فعليه زيارة قبر الحسين في النصف من شعبان (٣) ولمكانة أئمتهم - حسب زعمهم - جعل الله زيارة قبورهم فريضة فيقولون : (الزيارة فريضة من الله واجبة على كل مسلم) (٤) ومن ترك هذه الزيارة فهو من أهل النار (٥) ،

وهذا زعم لا تقوم عليه حجة ولا يستند إلى برهان ؛ بل تشتم فيه رائحة الصد عن الحج لبنت الله الحرام وهدم ركن من أركان الإسلام وتفريق جمع المسلمين إلى طوائف وأحزاب .

(١) انظر وسائل الشيعة إلى تحقيق مسائل الشريعة / محمد بن الحسن الحر العاملي دار إحياء التراث العربي

الطبعة الثانية بيروت ج ٥ ص ٣٤٧-٣٧٦ وانظر من لا يحضره الفقيه أبو جعفر محمد بن بابويه القمي دار

الكتب الإسلامية طهران ط ٥ سنة ١٣٩٠ هـ ج ٢ ص ٣٣٨

(٢) وسائل الشيعة ج ٥ ص ٣٤٧-٣٧٦ وانظر المزار لمحمد بن علي الفضل والمزار لمحمد بن علي المشهدي

والمزار لمحمد بن همام والمزار لمحمد بن أحمد بن داود وانظر بحار الأنوار ج ١٠١ ص ١٠٧

(٣) وسائل الشيعة ج ٥ ص ٣٤٧-٣٧٦

(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ٣٣٣

(٥) وسائل الشيعة ج ٥ ص ٣٣٣ وانظر الوافي للفيض الكاشاني المكتبة الإسلامية طهران المجلد الثاني ج ٥ ص ٢١٩

ولم يكتف الشيعة بذلك بل أضفوا على الأموات صفات الألوهية والربوبية حيث قال أحد شعرائهم (١) في الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما نصه :

يا صاحب القبة البيضاء على النجف من زار قبرك استشفى لديك شفى
 زوروا أبا الحسين الهادي فإنكم تحظون بالأجر والإقبال والزلف
 زوروا لمن يسمع النجوى لديه فمن يزر قبره ملهوفاً لديه كفى
 إذا وصلت فأحرم قبل أن تدخله مليباً واسع سبعاً حوله وطف
 وإن أسماءك الحسنى إذا تليت على مريض شوفي من سقمه الدنف
 والموت طوعك والأرواح تملكها وقد حكمت ولم تظلم ولم تخف (٢)

إن صاحب القبر يشفي من الأمراض ويسمع النجوى ويجب على من يزوره أن يحرم أسوة بالحج ثم يطوف سبعاً مليباً كما يفعل الحاج عند قدومه للكعبة ، وله أسماء حسنى أسوة بالله والموت طوع يديه والأرواح ملكه ! فهل بعد هذا من غلو في القبور ؟ وللمرء أن يتساءل إن كان الموت طوعاً للإمام علي - رضي الله عنه - والأرواح ملكه فلما مات ؟ ولماذا لم يدفع الموت عن نفسه ؟.

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد الحاج شاعر شيعي

(٢) دار السلام فيما يتعلق بالروايات والمنام ميرزا حسين النوري الطبرسي ج ١ ص ٢٢١

سار الصوفية في نفس الاتجاه الذي سلكه الشيعة في القبور ؛ بل إن الصوفية اتبعوا الشيعة في ذلك اتباعاً متطابقاً فاتخذوا المزارات وبناء المساجد على الأضرحة ويعتقدون بمشائخهم مثل اعتقاد الشيعة بأئمتهم ولذلك يورد الشعراني (١) في طبقاته حكايات وأقوالاً تتشابه مع أقوال الشيعة ومنها ما قاله عن أحد أئمة التصوف : (٢) (هو من جملة المشائخ المشهورين بالزهد والسورع والفتوة مجاب الدعوة يستشفى بقبره) (٣) وإذن فليس على المريض أو من يصاب بعلّة إلا أن يزور قبر ولي صوفي فيشفى من مرضه وعلته ، ولم يكتف الشعراني بذلك بل ذهب أبعد من ذلك وادعى أن الأموات من مشائخه يجيبون الدعوة ويخرجون من قبورهم تلبية لنداء من يستغيث بهم فيـُـورد حكاية هو طرف فيها فيقول : (وقبره (٤) بها - أي بثغر دمياط - ظاهر يزار - رضي الله عنه - ولقد قصدته في حاجة وأنا فوق سطوح مدرسة أم خوند بمصر

(١) هو أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصار الشافعي المصري المعروف بالشعراني من علماء القرن العاشر الهجري

(٢) يعني بذلك معروف الكرخي

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني جـ ١ ص ٧٢

(٤) يقصد بذلك شيخه أبو العباس الحريني

فرأيته خرج من قبره يمشي من دمياط وأنا أنظر إلى أن صار بيني وبينه خمسة أذرع فقال: (عليك بالصبر ، ثم اختفى) (١) إنه منتهى الاستخفاف بالعقول ولكن طالما أن الميت هو ولي فكل شئ جائز في حقه كما يدّعي الصوفية ، وأولياؤهم لا يخضعون لسنن الله ، فهم يخرجون من قبورهم متى شاءوا وكيف شاءوا ولكون هؤلاء الأولياء كثيراً ما يستغاث بهم ولأنهم حريصون على قضاء حوائج الناس فهم بحاجة لمن يساعدهم أو يخدمهم ولذلك فقد قالوا : (إن الله يوكل بقبر الولي ملكاً يقضي الحوائج وتارة يخرج الولي من قبره ويقضيها بنفسه) (٢) ولم يكتفوا بهذا الهذيان والسخف فقالوا عن أحد مشائخهم الأموات : (ولم يزل كذلك إلى يومنا هذا يستغاث بجنابه ويكتحل بتراب أعتابه ويلتجأ إلى أبوابه) (٣)

وكل هذه الأقوال والأفعال مخالفة للشرع ومؤدية إلى الشرك وهذا العمل من قبيل عبادة الأوثان والأصنام ولو كان عند هؤلاء الأموات قدرة أو نفع لنفعوا أنفسهم من باب أولى .

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ج ٢ ص ١٧١

(٢) تنوير القلوب / محمد أمين كردي ص ٤١٠

(٣) الأنوار القدسية في مناقب النقشبندية / محمد أمين كردي ص ١٤٢

المبحث الثاني : العامل الأجنبي :

إذا كان الزهد الإسلامي من العوامل الرئيسة التي ساعدت على ظهور التصوف كما يقول الصوفية والمتحمسون لهم فإن ذلك لا يبدوا قولاً مسلماً به ؛ لأن التصوف قد تأثر عبر الزمن بمؤثرات فلسفية ودينية أخرى لا تمت إلى الإسلام بصلة فأصبح خليطاً من مذاهب مختلفة وعقائد متباينة وعناصر غريبة عن الإسلام على الرغم من (أن تلك العناصر لم تدع إليها حاجة العرب إلى ما عند غيرهم بل اقتضى وجودها في التصوف الإسلامي أن كثيراً من المتصوفة كانوا غير عرب فحملوا معهم إلى الإسلام تخيلات غريبة ورياضات شاذة واعتقادات متفرقة دخل أكثرها فيما بعد في التصوف الإسلامي) (١) ومع وضوح هذه الحقيقة إلا أننا نجد بعض الباحثين من يحاول نفي تأثر الصوفية بغيرهم تأثراً جوهرياً ؛ لأنه يرى (أن التصوف الإسلامي نشأ من التأمل المتواصل للقرآن والأحاديث النبوية وهكذا تكون نشأته إسلامية خالصة من داخل الإسلام نفسه) (٢) ثم أنه يقر وعلى استحياء أن التصوف تأثر بمؤثرات أجنبية فيقول : (إنه مع تطور التصوف والاتصال بالأفكار الأجنبية انضافت إلى

(١) التصوف الإسلامي د / عمر فروخ بيروت دار الكتاب العربي سنة ١٤٠١هـ ص ٢٩ وانظر في الفلسفة

الإسلامية د / ابراهيم مذكور مصر دار المعارف سنة ١٩٨٣ ج ٢ ص ١٣٤

(٢) تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني تأليف د / عبد الرحمن بدوي وكالة

المطبوعات الكويت طبعة ١/ عام ١٩٧٥ ص ٤٨

التصوف الأول قسمات من أصول أجنبية كانت بمثابة زخارف وتنويعات (١)

ثم بين هذه القسمات بقوله : (إن أبرز هذه السمات الأجنبية الأصل هي تلك المستمدة من التراث الفلسفي اليوناني ومعظمها مصطلحات ثم الرهبانية المسيحية وهي مجرد عادات في التقوى) (٢)

أقول : إن هذا الدفاع غير موفق ؛ لأن العوامل الدخيلة على التصوف لم تقف عند حدود الزخارف بل تعدتها إلى طرح مفاهيم تتعلق بالعقائد وقادت أصحابها إلى التحلل من ضوابط الإسلام وفرائضه ؛ بل وصلت بهم إلى عقائد الحلول والاتحاد وادعاء الألوهية وما إلى ذلك من الانحرافات الخطيرة وهو ما سأبينه فيما يلي :

(١) المرجع السابق ص ٤٨-٤٩

(٢) المرجع السابق ص ٤٨-٤٩

١ = تأثير الفكر اليوناني على الصوفية :-

تعد بلاد اليونان مهداً من مهود الحضارات القديمة الخصبة بأنواع العلوم والفنون والآداب وجميع فروع المعارف الأخرى التي بلغت فيها مكانة راقية . إلا أن هذه البلاد لم تحظ برقي مماثل في العقيدة ، لاعتمادهم في هذا الشأن على العقل الإنساني وحده والفكر المستقل عن الوحي ، وإنسان هذا شأنه لا يمكن أن يصل إلا إلى المستوى البشري العاجز الذي يحاول أن يرضي فطرته المنطلقة إلى الإيمان بمدير لهذا الكون (١) ، ولذلك فقد حاول حكماء اليونان وضع تصورات عن الله وعن الكون والإنسان ولكنهم لم يصلوا إلى الحقيقة وإنما قالوا بأفكار ثبت فيما بعد أنها أفكار ساذجة بدائية تصور الآلهة أنهم (حكومة ملكية ... كلهم في صورة بشرية ، إلا أن سائلاً عجيباً يجري في عروقهم فيكفل لهم الخلود ، وهم أقوى من الأبطال وأسرع حركة ، يظهرون للناس أو يختفون كما يشاءون ، يسكنون قصوراً في السماء فخمة ، ... يأكلون ويشربون ويتزاوجون ، تجرحهم السهام والزماح فيألمون وينتحبون وهم حادثون وجدوا في الزمان ... لهم شهواتهم وعصبياتهم يتفرون أحزاباً ويتدخلون في منازعات البشر ... يخونون ويغدرون ، لا يرعون من البشر إلا من يتقرب إليهم كيفما كانت أخلاقهم) (٢) وأهم مايعيننا في هذا الموضوع : القول بالحلول ووحدية الوجود :

(١) الإنسان في ظل الأكيان د / عمارة نجيب مكتبة المعارف الرياض طبعة ١٤٠٠هـ ص ٢٦٧

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم دار القلم بيروت لبنان ص ٣

أولاً : الحلول :

لقد اختلف الباحثون في تعريفه فمنهم من قال : هو اتحاد جسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد (١) ومنهم من قال : هو اختصاص شيء بشيء بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما عين الإشارة إلى الآخر (٢) ، ومنه مذهب الحلولية إذ يعتقد أصحابه أن الله حال في كل شيء وفي كل جزء من كل شيء متحداً به حتى صار يصح أن يطلق على كل شيء أنه الله تغليفاً لللاهوت على الناسوت (٣) وقال بعض الباحثين معنى حلول الشيء في الشيء : أن يكون حاصلًا فيه بحيث تتحد الإشارة إليهما تحقيقاً كما في حلول الأعراض في الأجسام أو تقديراً كحلول العلوم في المجردات (٤)

وقد انحدرت فكرة الحلول من مصادر دخيلة على الإسلام كالهندوسية والبوذية والمسيحية واليونانية وغيرها من الديانات المختلفة يقول نيكلسون : إن الحلول وليد لاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية وبعبارة أدق وليد لاتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانة المسيحية (٥)

(١) دائرة المعارف بطرس البستاني ١٥٧/٧ ، المعجم الوسيط ابراهيم مصطفى وأحمد الزيات ١٩٣/١ ، محيط

المحيط بطرس البستاني ٤٤١/١ ، دائرة المعارف الإسلامية أحمد الشناوي و ابراهيم زكي ٥٥/٨

(٢) الصوفية معتقداً ومسلماً ص ٢٤٦ / ٢٤٧

(٣) قاموس المنجد في اللغة والأعلام دار الشرق الطبعة ٣٣ عام ١٩٩٢م مادة (حل)

(٤) فاكهة البستان عبد الله البستاني اللبناني ٢٢١/١ جامع العلوم الملقب بمستور العلماء في اصطلاحات

العلوم والفنون القاضي عبد النبي عبد الرسول أحمد شكري ٥٤/٢ (٥) الموسوعة الميسرة ص ٣٥٢

وقد تأثرت بعض الطوائف - وخاصة بعض غلاة الشيعة (١) - قبل الصوفية بهذه الأفكار الضالة نتيجة الفهم السقيم لآيات القرآن الكريم واتباع الهوى والمؤثرات الأجنبية فخالف هؤلاء النقل والعقل مما كانوا سبباً لنشر الفساد بين أقوامهم فتعرضوا للقتل على أيدي أوليائهم مثل بيان بن سماعيل (٢) الذي وضع جذور الحلول الأولى وهو من الغلاة القائلين بالهية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وأنه حل فيه جزء إلهي واتحد بجسده (٣) وأبو الخطاب الأسدي (٤) الذي قال إن الأئمة أنبياء ثم آلهة (٥) ، فهؤلاء وغيرهم هم البذور الأولى لنظرية الحلول والاتحاد وكان غرضهم جميعاً إفساد القول بتوحيد الصانع (٦) وقد واجه هذا الفكر

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٥٤

(٢) بيان بن سماعيل التميمي النهدي ، ادعى النبوة وكان يعتقد بالتناسخ والرجعة ظهر بالعراق أوائل القرن الثاني الهجري وقد أحرقه خالد القسري بمسجد الكوفة سنة ١١٩ هـ (موسوعة الفرق الإسلامية الدكتور محمد جواد مشكور مجمع البحوث الإسلامية بيروت لبنان ص ١٦٦ وتيارات الفكر الإسلامي محمد عمارة دار الشروق ص ٣٦٠)

(٣) الملل والنحل ص ١٥٢

(٤) أبو الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع مولى بني أسد ، خرج على أبي جعفر المنصور فقبض عليه عيسى بن موسى والي الكوفة وصلبه في سبحة الكوفة سنة ١٤٣ هـ وقيل ١٣٨ هـ (موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية الدكتور عبد المنعم الحفني دار الرشد الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ص ٢١٢)

(٥) الملل والنحل ص ١٧٩

(٦) الفرق بين الفرق ص ٢٥٤

الوافد والغريب مقاومة شديدة من الأولياء الذين حاربوا هذه الآراء الباطلة وعقدوا العزم على قلعها من جذورها ولا ننسى الحزم والشدة ضد هؤلاء الملحدين من قبل الولاية فقد أحرق بيان بن سمعان في مسجد الكوفة عام ١١٩هـ بعد أن قال بالحلول ، و صلبُ والي الكوفة لأبي الخطاب الأسدي سنة ١٤٣هـ وقيل ١٣٨هـ (١) لشناعة جريمة .

إذن الحلول لم ينبع مرة واحدة من عند الحلاج (٢) إنما كانت له بذور لدى فرق من الشيعة الباطنية (٣)

(١) موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية د: عبد المنعم الحفني ص ٢١٢
 (٢) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسط المراق صاحب الجنيد والنوري وغيرهم والصوفية في أمره مختلفون ، رده أكثرهم ونفوه وأبوا أن يكون له قدم في التصوف ، وقبله بعضهم ، وقد قتل لزندقته وكفره سنة ٣٠٩ هـ بعد ضربه ألف سوط ثم قطعت أطرافه (انظر الطبقات الكبرى للشعراني ج١ ص ١٠٧ ووفيات الأعيان الترجمة رقم ١٨١)

(٣) انظر الفرق بين الفرق ص ٢٥٤

والقرامطة (١) وغيرهم مستقنين مادتهم من الفكر الأجنبي ليقضوا على الإسلام وشريعته؛ إلا أن الصوفية هم أوضح من قال بذلك ولو نظرنا إلى شخصية الحلاج كأبرز شخصية صرحت بالحلول لوجدنا كلامه واضح الدلالة على أنه من الفلسفات القديمة والدليل على ذلك ما قاله الحلاج : (من هذب نفسه على الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين ثم لا يزال يصفو ويرتقي درجات حتى يصفو عن البشرية فإذا لم يبقَ فيه من البشرية حظٌ حلَّ فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم - عليه السلام - ولم يرد حينئذٍ شيئاً إلا كان كما أراد وكان جميع فعله فعل الله تعالى) (٢) وهو بذلك متأثر بفلسفات أجنبية وفكرة اتحاد اللاهوت بالإنسوت ، فقال مبيناً هذه العقيدة الفاسدة :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا (٣)

ومذهب الحلول قد سرى منه - أي من الحلاج - إلى كثير من المتصوفة

(١) القرامطة : حركة باطنية هدامة اعتمدت التنظيم السري العسكري ، ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وحقيقتها الإلحاد والشوعية والاباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية سميت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان بن قرمط الأشعث الذي نشرها في سواد الكوفة سنة ٢٧٨هـ - انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص (٣٩٥) .

(٢) الطواسين للحلاج ص ١٣٠ نقلاً من كتاب (من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة للدكتور محمد السيد الجنيد دار اللواء بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ وانظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١١٥

(٣) الطوا سين للحلاج ص ١٣٠ نقلاً من كتاب (من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة د / محمد السيد الجنيد دار اللواء بيروت ط ٣ ١٤١٠هـ ص ٨٦)

فاعتقوه وتتطور على يد ابن عربي وأصبح مذهباً يدين بوحدة الوجود وهذا المذهب أنكره أئمة الإسلام كابن تيمية وابن القيم في مصنفاتهم المختلفة حتى أن ابن الجوزي أفرد للحلاج نقداً على ما ذهب إليه في مستهل كلامه عن نقد مسالك الصوفية في كتابه (تلبيس ابليس) فقال : وقد تعصب للحلاج جماعة من المتصوفة جهلاً منهم وقلة مبالاة باجماع الفقهاء واستشهد بقول أحدهم : إن كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج قلت - القائل ابن الجوزي - وعلى هذا أكثر قصاص زماننا وصوفية وقتنا جهلاً من الكل بالشرع وبعداً عن معرفة العقل (١)

وابن تيمية هاجم ما قال به الحلاج وابن عربي مهاجمة في غاية العنف ونعت أصحابه بالحلولية والاتحادية وقسمهم إلى صنفين : قوم يخلصون بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء ، وصنف يعمون فيقولون بحلول الله أو اتحاده في جميع الموجودات كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومن تبعهم من الاتحادية كأصحاب ابن عربي وغيره (٢)

وعلى الجملة فإن الإسلام ينكر مذهب الحلول كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود فلا يقر الإسلام مذهباً بحلول الله في جسد إنسان أو غير

(١) تلبس ابليس ص ١٧٢

(٢) مجموعة الرسائل الكبرى الرسالة السابعة ج ١ ص ٢٩٢

إنسان (١) وصدق الله القائل ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ الآية (٢) وقال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ الآية (٣)

(١) الصوفية في الإسلام عباس العقاد ص ٨٢ نقلًا من كتاب التصوف والمتصوفة عبد الكريم الخطيب دار

الفكر العربي ط ١ ١٩٨٠ ص ١٤٨

(٢) سورة المائدة جزء من الآية ١٧ وتامها ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾

(٣) سورة المائدة جزء من الآية ٧٣ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا الله واحد وإن

لم يتوهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا عذاب ألیم﴾

ثانياً : وحدة الوجود :

قبل الحديث عن وحدة الوجود لابد من وقفة أمام هذه الكلمة
لأكشف عن معناها فأقول وبالله التوفيق :

قال سيبويه : الوحدة في معنى التوحد ، وَحَدَ الله آمن به وحده ، واتحد
الشيئان اتحاداً أي صار شيئاً واحداً (١) والوحدة مصدر يقال : هذا على
وحده ؛ أي توحد . والوحدة مصدر ضد الكثرة (٢)

أما في الاصطلاح فتعني : أن الله في كل شيء وهو كل شيء وليس من
شيء في الكون إلا ويستحق التقديس والإجلال (٣) وتغلب على هذه الوحدة
فكرة الإلهية ويرد كل شيء إلى الله فهو الموجود الحق وكل ما عداه
أعراض ومظاهر لوجوده أو مجرد فيوضات أو تجليات مستمدة منه (٤)
وعُرفت وحدة الوجود عند البراهمة في الهند والرواقية اليونانية
والأفلاطونية الجديدة وتعني عند اليونان : بأن العالم هو جوهر الله بالذات
وأن ما ندعوه الطبيعة أو الكون ليس شيئاً آخر غير الله ؛ فالله والطبيعة
اسمان يدلان على الحقيقة الكلية ذاتها وهذا يؤدي إلى القول بأنه ليس هناك
إلا عالماً واحداً وجوهرأ واحداً ، وهناك نظريات كان لها أثر كبير في
وحدة الوجود ومن هذه النظريات نظرية الفيض والتي قال بها افلوطين
ومن تابعه والتي تقرر بأن الموجودات فاضت عن الله وقد تأثرت الصوفية
تأثراً واضحاً بتلك المعتقدات وخاصة ما نقلوه من فكر أفلوطين (٥)

(١) لسان العرب باب الواو (٢) قرب الموارد سعد الفوري طبعة مرستي بيروت ١٩٨١ ج ٢ ص ١٤٣٢

(٣) الموسوعة الميسرة ص ٣٤٧ (٤) المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية طبعة ١٣٩٩ ص ٣١٣

(٥) قدر النقيض من البحر المحيط تاج الدين الحنفي التحوي بهائش البحر المحيط لأبي حيان دار الفكر ط ١٣٨٩ هـ ج ٣ ص ٤٤٨

الذي أثر تأثيراً مباشراً في الصوفية فهو يرى إمكانية الاتصال بالله لا عن طريق الحدس العقلي وإنما من خلال فقدان الشعور .

ولذلك فإن الجذب الأفلوطيني لا يختلف في شيء عن غيبوبة فقراء الهنود الذي يرى أن هذا التصوف يعتمد على قوة النفس ذاتها ؛ لأننا نستطيع الوصول إلى الله بقوتنا الذاتية على الرغم من وجود المسافة اللامتناهية التي تفصل بين الله وبين النفس (١) إنه يرى من خلال ذلك إمكانية الاتحاد مع الله وبالتالي وحدة الوجود ، لهذا يقول : (فيجب أن تكون النفس خلوا من كل صورة لكيلا يمنعها مانع من أن تمتليء وتستتير بالموجود الأول .

لنعتزل العالم الخارجي ولنتوجه بكليتنا نحو الداخل ، ولنجهل كل شيء حتى كوننا نحن الذين نتأمل ، وبعد الاتحاد به ، لنذهب ونقل للآخرين إن استطعنا القول ما هية الاتحاد هناك ، أو لنمكث) (٢) وما هو الهدف الذي ينشده من ذلك إنه يريد (حياة الآلهة والبشر الإلهيين السعداء والتحرر من أشياء هذه الدنيا والضيق بها والهرب وحدنا إليه وحده) (٣) وبهذا الفكر الفلسفي ذو النزعة الصوفية وجد الصوفية ضالتهم ولهذا قالوا: (إن التصوف لم يقتبس ولم يؤخذ إلا من المنابع الصافية والمصادر الطاهرة) (٤) وعلى رأسها الأفلاطونية المحدثة وتبنى الشيخ الأكبر

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٩٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٢

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٨٩

(٤) يتبادر إلى الذهن أن المقصود بذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة ولكن لتتابع ونرى ؟!

محي الدين بن عربي (١) نفس الأفكار التي نشرها أفلوطين الإسكندري ، والمبنية على الفكر الفلسفي والملاحظة الذاتية والذي يبين أن تركية النفس لايمكن إلا بالتبذل عن العلائق الدنيوية والعالم المادي ...) (٢) وهذا يؤدي بالتالي إلى وحدة الوجود التي يقول بها بعض المتصوفة ؛ لأن (أهم الأشياء في فلسفته - أي أفلوطين - أن طريق تهذيب النفس وتكميل الروح ليس ببرهان ولا عقلي ، بل هو وجداني وكشفي كما أن فلسفته في الإلهيات تدور على وحدة الوجود وهذا عين ما كان يؤمن به الشيخ الأكبر ابن عربي وغيره) (٣)

(وليس من شك ، في أن فلسفة أفلوطين الاسكندري التي تعتبر أن المعرفة مدركة بالمشاهدة في حال الغيبة عن المعرفة ، وكذلك كان لنظرية أفلوطين الأسكندري في الفيض وترتيب الموجودات عن الواحد أو الأول أثرها على الصوفية المتفلسفة من أصحاب الوحدة (٤) ومن هنا نحوهم ،

(١) هو أبو بكر محمد بن علي محمد بن أحمد ابن عبد الله العربي محي الدين أبو عبد الله الأنلسي المعروف بابن عربي وكان يطلق عليه أتباعه لقب " الشيخ الأكبر " كما كان يعرف في الأنلس باسم (ابن سراقه) من أئمة الصوفية ولد سنة ٥٦٠هـ في الأنلس كان ابن عربي على مذهب الظاهرية وأما فيما يختص بالمعقيدة الدينية فقد كان صوفياً (باطنياً) إلى أقصى الحدود وقد قال بوحدة الوجود ورمي بالزندقة من بعض الفقهاء الكبار كابن تيمية وغيره ومن مزاعمه الشهيرة أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وعرف اسم الله الأعظم وعرف الكيمياء بالمكاشفة لا بالتحصيل ، وكان غزير التأليف وأهم تصانيفه الفتوحات المكية توفي بدمشق عام ٦٣٨هـ ودفن بسفح جبل قاسيون . (انظر ترجمته هدية العارفين ج٦ ص ١١٤ ودائرة المعارف الإسلامية ج١ ص ٣٤٣)

(٢) انظر تاريخ التصوف (باللغة الإردية) ليوسف سليم جشتي ص ٦٣ وما بعدها ط علماء اكدي وزارة الأوقاف باكستان نقلاً عن التصوف المنشأ والمصادر ص ١٢٧ (٣) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة (٤) كالمسهروري المقتول ومحي الدين ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين

ونلاحظ بعد ذلك أن أولئك المتفلسفة من الصوفية نتيجة اطلاعهم على الفلسفة اليونانية قد اصطنعوا كثيراً من مصطلحات هذه الفلسفة مثل (العقل الأول - العقل الكلي ...) (١) ، ولهذا قال أحد كتاب التصوف المعاصرين: إن (وحدة الوجود الحلولية التي تجعل من الله كائناً يحل في مخلوقاته أو الاتحاد به ... وتجعل من الكائن الفاني شخصية تتحد بالموجود الدائم الباقي المنزه عن سائر النسب والأوصاف ، والأحياز الزمانية والمكانية المحدثة أو يتحد به شيء منها فإنها مذهب هندي أو مسيحي وليس بإسلامي ولا يعرفه الإسلام غدوا به مذهبهم الشاذ بفكر أفلاطونية (٢)؛ وفلسفية لأن هؤلاء الفلاسفة (ومن نشأ بعدهم كانوا على مثل مقالة الهند وكان فيهم من يرى أن الأشياء كلها شيء واحد - أي وحدة وجود - ثم من قائل في ذلك بالكمون ومن قائل بالقوة وأن الإنسان مثلاً لم يتفضل عن الحجر والجماد إلا بالقرب من العلة الأولى (٣) - الله - بالرتبة وإلا فهو هو ، ومنهم من كان يرى الوجود الحقيقي لليلة الأولى فقط ؛ لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها إليها وأن ما هو مفترق في الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأي الصوفية ... ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم) (٣) ونتيجة

(١) انظر مدخل إلى التصوف الإسلامي د / أبي الوفا التفتازاني ط مصر ص ٣٣-٣٤ وانظر في التصوف

الإسلامي وتاريخه نيكلمون ترجمة عربية ص ١٤

(٢) جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف للمنوفي الحسيني ط القاهرة ج ١ ص ٢٩٢

(٣) كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرفوضة تأليف أبو الريحان محمد بن أحمد

البيروني طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحدرد آباد الدكن الهند سنة ١٣٧٧ هـ ص ٢٤

لهذا الفكر الدخيل فقد (حار علماء الإسلاميات الأول في تعليل ذلك الخلاف الكبير في العقيدة بين مذهب الوحدة الحالي ومذهب أهل السنة) (١) ولكن هذه الحيرة تتبدد عند علمنا أن هذه الفكرة أخذت من الفكر اليوناني والفكر الأفلاطوني بوجه خاص ونتيجة لاعتناق بعض الصوفية لهذا الفكر فقد أعلن أنه اطلع على الغيب وأن في مقدوره الإتيان بخوارق العادات ، ثم يذهب إلى ما هو أبعد من هذا من ادعاء الوصول إلى مرتبة الألوهية كقول الحلاج المشهور: ما في الجبة غير الله ، وقوله : أنا الحق ، وبمثل هذه الأقوال والاعتقادات ثار على الحلاج معاصروه ورموه بالسحر تارة والجنون تارة أخرى وتبعاً لذلك عذب عذاباً أليماً إلى أن مات ، وكان هناك من أمثال الحلاج من بالغوا مبالغة قلت أم كثرت في هذا السياق كشهاب الدين عـ السهروردي ومحي الدين بن عربي

(١) التصوف ما سنيون ومصطفى عبد الرازق دار الكتاب اللبناني ط ١٩٨٤ ص ٤٧

وغيرهم (١) وقد حاول الصوفية إيجاد بعض المبررات والأعذار لما يقولون فهذا الجنيد (٢) يقول فيما نقله عنه الغزالي : (... أهل الإنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة) (٣) ، والعامة عند الصوفية هم كل ما سواهم (٤) ؛ لأن كل من لا يكون صوفي فهو من أهل الظاهر وأهل الرسوم ولذلك لا يفهم من الشريعة شيئاً (٥) ، ولذلك فهم يحاولون إخفاء عقائدهم عن هؤلاء العوام : -

يارب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسناً (٥)
فما هذا العلم الذي أخفاه ؟ وما هذا العلم الذي لو أظهره استحق القتل عليه مرتداً ؟ إنه وبلا أدنى شك قول كفر وزندقة ؛

(١) جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف للمنوفي الحسيني طبعة القاهرة ج١ ص ٢٩٢ "بصرف"

(٢) هو الجنيد بن محمد أبو القاسم الخزاز وكان أبوه يبيع الزجاج فلذلك كان يقال له القواريري أصله من نهاوند ولد ونشأ في العراق كان فقيهاً وهو من أئمة القوم وسادتهم توفي سنة ٢٩٧ هـ انظر طبقات السلمي ص ١٥٥ وانظر الفهرست لابن النديم دار المعرفة بيروت لبنان ص ٢٦٤

(٣) احياء علوم الدين للغزالي ج٤ ص ٢٩٢

(٤) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ تأليف / محمود القاسم المكتبة الإسلامية ص ١٧

(٥) ينسب هذا القول لزين العابدين انظر الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية في حاشية إيقاف الهمم لأحمد بن عجيبة الحسني دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان

فهل هو القول بوحدة الوجود ؟ أم ادعاء الألوهية ؟ وسيتضح الأمر بعض الشيء في القول التالي :

أنا أنت بلاشك فسبحانك سبحاني
وتوحيدك توحيدي وعصيانك عصياني
ثم ماذا بعد ذلك ؟!

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً في صورة الأكل الشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب (١)

ويستمر هذا الغلو حتى يصل إلى درجة مقبلة فهذا صوفي (٢) سمع (أذان المؤذن فقال طعنة وشم الموت ، وسمع نباح الكلاب فقال لبيك وسعديك) (٣) - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً سبحانه - وهذا يعني أن بعض الصوفية يؤمنون بهذه العقيدة الكفرية ومع وضوح هذه المسألة واتفاق الكثير من الباحثين - ومنهم من علماء الصوفية - على أن القول بوحدة الوجود عند الصوفية هي نتيجة للفكر المقتبس من الفكر اليوناني فإننا وللأسف نجد من يدافع عن هذه العقيدة الكفرية دفاعاً غير رشيد (٤) فبدلاً من الإقرار بالحقيقة يذهب إلى الصاق هذه التهمة الخطيرة بالإسلام ويدعي أن بذور وحدة الوجود موجودة في القرآن

(١) هذا الشعر للعلاج انظر ايضاً الهمم في شرح الحكم لأحمد بن عجيبة الحسني دار المعرفة للطباعة والنشر

بيروت لبنان وانظر ديوان العلاج ص ١٢٧ تقديم وتعليق وتصحيح عبد الحفيظ محمد منني هشام ط

(٢) هو أبو الحسين النوري بغدادي من أقران الجنيد مات سنة ٢٩٥هـ (انظر اللمع للسراج ص ٤٩٢)

(٣) نثر اللمع للسراج الطوسي ص ٤٩٢ (٤) أعني بذلك الدكتور / عبد الرحمن بنوي

الكريم وأن الصوفية وصلوا إلى وحدة الوجود من خلال التأمل في القرآن الكريم فيقول (١) (إن قسّمات وحدة الوجود التي نجدها عند البسطامي والحلاج ليس فيها من التعمق والتفصيل ما يؤذن بتأثير يتجاوز التأمل المتعمق لآيات القرآن في التوحيد ، خصوصاً الآية ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُو فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (٢)

فأقول وبالله التوفيق رداً على هذه الفرية العظيمة إن مذهب وحدة الوجود يخالف العقل والنقل من جمع الوجوه وهو قول باطل نقلاً وعقلاً:
أولاً : بطلان وحدة الوجود نقلاً :

إن أساس الدين الإسلامي قائم على توحيد الله وإفراده وحده بالعبادة والتزويه المطلق لله وجاء الإسلام بالتفريق الواضح بين الله - سبحانه - وبين مخلوقاته وأن الله - تعالى ذكره - هو الخالق الرازق لا يشبهه شيء من خلقه ولا يشبه شيئاً من خلقه ولهذا فقد جاء القرآن ناطقاً بهذه العقيدة مبيناً لها أوضح بيان فقد جاءت سورة بأكملها تبين ذلك فقال - سبحانه - وتعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ (٣) قال : ابن كثير - يرحمه الله - في تفسير هذه السورة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قال : يعنى هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ، ولا وزير ، ولا بديل له ولا شبيه ولا عدل ﴿ الله الصمد ﴾

(١) انظر تاريخ التصوف د / عبد الرحمن بدوي طبعة الكويت ص ٥٦

(٢) البقرة آية ١١٥ وتامم الآية ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾

(٣) سورة الإخلاص

يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم . ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ يعني صاحبه له وهذا كما قال تعالى ﴿ بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ﴾ (١) أي هو خالق كل شيء ومالكة فكيف يكون له من خلقه نظير بساميه أوقريب يدانيه ؟ (٢) ولقد أفحم القرآن الكريم المشركين ولم يستطيعوا الإجابة حين سألهم ذلك السؤال العقلي الذي لا جواب عليه إلا الاعتراف بالخالق عز وجل وأنه غير هذه المخلوقات وأنه مختلف عنها منزله منها قال تعالى ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴾ (٣) فلم يجرؤ أحد من المشركين حينذاك أن يدعي أنه خلق من غير شيء كما لم يجرؤ أحد منهم أن يدعي أنه هو خالق نفسه . كما يزعم هؤلاء الصوفية فخالفوا الشرع والعقل . فضلاً عن أن يدعي أنه خلق هذه الأجرام الهائلة التي لا يعلم مدى عظمها وقوانين تسييرها إلا الله عز وجل (٤) وقد ردّ القرآن عليهم بأبلغ إجابة فقال جل وعلا ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آله إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ (٦)

(١) سورة الأنعام جزء من الآية (١٠١) وتامهما (بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم يكن له صاحبة وخلق كل شيء بكل شيء عليم)

(٢) مختصر تفسير بن كثير ج٢ ص ٧٦٧

(٣) سورة الطور آية ٣٥ (٤) انظر موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ١٨

(٥) سورة الشورى آية ١١ (٦) سورة الأنبياء آية ٢٣، ٢٢

ثانياً : بطلان وحدة الوجود عقلاً :

- ١ = الكل يعلم بداهة أن الخالق غير المخلوق وأن الرب غير المربوب .
- ٢ = جاءت الرسل - عليهم السلام - ونزلت الكتب فلا معنى لذلك إن لم يكن الخالق غير المخلوق ووجود من هو مستحق للعبادة ومن هو مأمور بها .
- ٣ = المخلوقات المشاهدة تتفاوت في الأحجام والأشكال والطبائع والمهمات فلا يمكن أن تكون جميعاً تشكل وحدة وجود وهي بهذا التباين فلا يوجد عاقل لا يستطيع التفريق بين السماء والأرض أو بين جبل وطائر أو بين بحر وبئر .
- ٤ = الكل يعلم ويشاهد أن الأحياء يموتون ويمرضون فلو كانوا متحدين مع الله لم يحصل لهم هذا .
- ٥ = القول بوحدة الوجود يؤدي إلى تعطيل الخالق (١) وبذلك فليس هناك حكمة من خلق هذا الكون وهذه المخلوقات .
- ٦ = لا يصح لأصحاب هذا المذهب الاستشهاد بالقرآن الكريم ؛ لأن الاستشهاد به للمؤمنين الذين يقرون به باطناً وظاهراً وأما هؤلاء الملاحدة فيزعمون أن القرآن كله شرك ويقولون بوحدة الوجود ويقولون إن التوحيد في كلامنا (٢)
- ٧ = مذهبهم متناقض في ذاته لأنهم يقولون : إن الرب هو الموصوف بجميع النقاص التي يوصف بها المخلوق ، ويقولون إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق .

(١) انظر الصغدية لابن تيمية مكتبة ابن تيمية القاهرة تحقيق د رشاد سالم ط ١٤٠٦ هـ - ج ١ ص ٢٤٥

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ج ١١ ص ٢٤١ (بتصرف)

وبعد أن ثبت بطلان القول بوحدة الوجود نقلاً وعقلاً أعود لنقض كلام الدكتور عبد الرحمن بدوي وبيان بطلانه فأقول : كان المفروض عليه أن يعود إلى كتب التفسير لمعرفة تفسير هذه الآية الكريمة ومعرفة سبب نزولها فإن ذلك سيوضح الأمر ويزيده جلاءً فلا يقع في هذا المحذور ، وخصوصاً أن علماء التفسير تطرقوا لها وأوضحوها أشد إيضاح فقد قال ابن كثير يرحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿ لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ (١) ما يلي : هذا والله أعلم فيه تسلياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضي الله عنهم - الذين أخرجوا من مكة ، وفارقوا مسجدهم ، ومصلاهم ، وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه ، فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، ثم صرفه الله إلى الكعبة فارتاب اليهود وقالوا ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ (٢) فأنزل الله ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ (٣) وقال ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ (٤) ثم يصف - يرحمه الله - قولاً آخر : وهو أنها نزلت على رسول الله

(١) سورة البقرة آية ١١٥

(٢) جزء من الآية ١٤٢ من سورة البقرة وتام الآية ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي

كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشأ إلى صراط مستقيم ﴾

(٣) جزء من الآية ١٤٢ من سورة البقرة

(٤) جزء من الآية ١١٥ من سورة البقرة

صلى الله عليه وسلم إذناً من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيرة في سفره وفي حالة المسابقة وشدة الخوف (١) ثم يذكر مفسر آخر (٢) في تفسير هذه الآية فيقول : أي أي جهة تستقبلونها فهناك وجه الله أي المكان الذي يرتضي لكم استقباله وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها . (٣) وقال صاحب كتاب أسباب النزول في هذه الآية : (أن تصلي حيثما توجهت بك راحتك في التطوع) (٤) فهذا فيه البيان الشافي إن شاء الله ومن خلال العرض لأقوال بعض المفسرين في هذه الآية الكريمة يتضح لي أنهم قد أجمعوا على أن الآية المذكورة لاتشير لامن قريب ولامن بعيد إلى المعنى الذي رمى إليه الدكتور بدوي فقد أوضحوا المراد منها وبينوا سبب نزولها وهم أعلم الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته - رضي الله عنهم - بكتاب الله ومعانيه ولا يعتد بقول من خالفهم .

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير اختصار علي الصابوني دار القرآن الكريم ج١ ص٤٢ .

(٢) الإمام محمد بن علي محمد الشوكاني

(٣) انظر فتح القدير تأليف محمد بن علي محمد الشوكاني دار احياء التراث العربي بيروت ج١ ص١٣١

(٤) أسباب النزول للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحد النسيابوري تحقيق السيد أحمد دار القبلة للطباعة

٢ = تأثير النصرانية على الصوفية :

النصرانية هي الديانة التي أنزلت على عيسى عليه السلام ، مكملة لرسالة موسى عليه السلام ، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم ، موجهة إلى بني إسرائيل ، داعية إلى التهذيب الوجداني والراقي العاطفي والنفسي ، ولكنها سرعان ما فقدت أصولها ، مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها حيث ابتعدت كثيراً عن صورتها السماوية الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات وثنية (١) وكان من خصائص المسيحية (٢) (= النصرانية) وتعاليمها ترك الدنيا ، والتجرد عن المال والجوع وتعري الأجساد والإعراض عن زينة الحياة المباحة وتحريم الطيبات باسم الانقطاع إلى الآخرة (٣) واللجوء إلى الجبال والبراري فأخذ النصارى هذه الصفات من سيرة السيد المسيح ؛ لأنه كان يصعد إلى الجبل حين يريد أن يصلي أو يعلم الجموع ، وكذلك التقشف والفقر ، وتعذيب الأبدان بالجوع والعطش وخشن اللباس فقد فعله النصارى اقتداءً بالسيد المسيح (٤) ، وعندما أصبحت الكنيسة منظمة تحكم ملايين من البشر ولم تعد كما كانت جماعة

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - النواة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ط١ ص ٩٩

وانظر المال والنحل للشهرستاني ٢٢١

(٢) إن استخدام لفظ (النصارى) أو (النصرانية) أولى من (المسيحية) لأن هذا اللفظ هو الذي ورد في القرآن الكريم وهو الصواب لقوله تعالى ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمّا بينهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ الآية ١١١ سورة البقرة ، وهذا ماسأئقده به في هذا البحث .

(٣) التصوف المنشأ والمصادر احسان إلهي ظهير ص ٦٤

(٤) انظر مقارنة الأديان د / أحمد شلبي مكتبة النهضة المصرية القاهرة ط١٠ ص ٢٠٥

من المتعبدین الخاشعين ، أخذت تنظر إلى الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة وأصبحت لا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا ، وأن تشاركهم في هذا الاستماع غير أن أقلية من النصارى لم يعجبهم هذا الأمر فرأت أن في ذلك نزول إلى درك الخيانة لتعاليم المسيح ، فاعتزمت أن تجد مكانها في السماء عن طريق الفقر والصلاة والترفع عن الأمور الدنيوية فاعتزلت العالم اعتزلاً تاماً (١) وقد ورد في الإنجيل ما يدعو لذلك فقد قال المسيح - عليه السلام - : (لا تكتزوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا) (٢) وقد ورد فيه كذلك (أن شاباً تقدم إلى المسيح وقال له : أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل به لتكون لي الحياة الأبدية ؟ فأجابه المسيح ببعض الأجوبة ثم قال له : إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني . فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة فقال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لكم ، إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات وأقولكم أيضاً أن مرور رجل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني ملكوت الله) (٣)

(١) انظر قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ترجمة عربية محمد بدران ط الإدارة الثقافية بجامعة الدول

العربية القاهرة ١٩٦٤ ج ١٢ ص ١٩٩

(٢) متى ١٠ : ٩ ، ١٠

(٣) متى ١٩ : ١٦ - ٢٤

وتستمر النصرانية المحرفة تحت أتباعها على عدم جمع المال والبحث عن تكوين الكنوز في السماء (لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وينقب عنها اللصوص ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس وحيث لا ينقب عنها لصوص ولا يسرقون فحيث يكون كنزك هناك أيضاً يكون قلبك) (١) وتتواصل الدعوة للسلبية والكسل وعدم العمل والكسب فيقول الإنجيل : (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدروا أن تخدموا الله والمال لذلك أقول لكم . لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسامكم بما تلبسون أليست الحياة أفضل من الطعام ؟ (٢) والجسد أفضل من اللباس انظروا إلى طيور السماء أنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن (٣) وأبوكم السماوي يقوتها أستم أنتم بالحري أفضل منها ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة (٤) ولماذا تهتمون باللباس تأملوا زنابق (٥) الحقل تنموا لا تتعب ولا تغزل ولكن أقول لكم أنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحد منها (٦)

-
- (١) متى ٦: ١٩، ٢٠، ٢١ وانظر الكتاب المقدس العهد الجديد متى ٦: ١٩، ٢٠، ٢١ دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط مع ملاحظة وجود اختلاف في هذا النص بين الكتاب المقدس وبين الإنجيل (كتاب الحياة) ص ٣٥
- (٢) نسيم الحياة أفضل من الطعام ولكنها لا يمكن أن تستمر بدون طعام .
- (٣) لأن الله خلقها هكذا؛ دعوة للسلبية وترك العمل والاعتماد على الغير في الكسب وهذا ما يفعله بعض الصوفية
- (٤) قياس فاسد؛ لأن زيادة الطول من الله سبحانه ولم يجعلها بمقدورنا ولم يأمرنا بها وأما طلب الرزق فهو بمقدورنا وأمرنا به وبه قوام الحياة .
- (٥) الزنابق نبات من فصيلة الزنبقيات زهرته من أجمل الأزهار
- تفوح منها رائحة نكية مهده الأصلي الشرق الأوسط يرمز لونه الأبيض إلى الطهارة يوجد منه أنواع مختلفة
- الألوان (انظر المنجد باب الزاي) (٦) متى ٦: ٢٤ - ٢٩

وبعد الحث على الجلوس عن العمل والكسب والدعوة إلى البطالة وعدم الانتاج تتجه الدعوة إلى مجال آخر وهو القضاء على الجنس البشري واعتزال النساء وعدم الإنجاب بل واللجوء إلى الخصي فورد في الإنجيل ما نصه (فإن بعض الخصيان يولدون من بطون أمهاتهم خصيان وبعضهم قد خصاهم الناس وغيرهم قد خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات فمن استطاع أن يقبل هذا فليقبله) (١) ثم يبين الإنجيل أن هذه حال (الذين أنعم الله عليهم بذلك) (٢) هذه بعض تعاليم النصرانية والتي اقتبسها الصوفية بكاملها ولم يغيروا بها أو يبدلوا وقد اعترفوا أن من مصادر علمهم ومعرفتهم بعض رهبان النصارى فهذا أحد أعلام التصوف يتفاخر بأنه أخذ العلم والمعرفة عن راهب نصراني فيقول (٣): تعلمت المعرفة من راهب يقال له أبا سمعان دخلت عليه صومعته فقلت له: يا أبا سمعان منذكم أنت في صومعتك هذه ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : فما طعامك؟ قال يا حنيفي فما دعاك إلى هذا ؟ قلت : أحببت أن أعلم ، قال : في كل ليلة حمصة ، قلت فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الدير بحدائك ؟ قلت : نعم ، قال إنهم (٤) يأتونني كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حواليتها ويعظموني بذلك ، فكلما تناقلت نفسي عن العبادة ذكرتها تلك الساعة وأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد فوقر في قلبي المعرفة) (٥)

(١) متى ١٩: ١٢ (٢) متى ١٩: ١١ (٣) هو ابراهيم بن أدهم (٤) يظهر من كلامه أنه يقصد الملائكة

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني دار الفكر ج٨ ص ٢٩

ولكي يتضح الأمر ويزدد جلاءً سأورد بعض أقوال الصوفية التي اقتبسوها من النصرانية فهذا سيد الطائفة الجنيد البغدادي يقول : (أحب للمريد المبتدئ أن لا يشغل قلبه بالتكسب وإلا تغير حاله) (١) وأيضاً يقول : (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المؤلفات والمستحسنات) (٢) ونقل السراج الطوسي عن الجنيد أيضاً أنه سئل عن الزهد قال : (الزهد هو تخلي الأيدي من الأملاك) (٣) وبمثل هذا قال صوفي آخر (٤) حينما سئل عن الزهد قال : (هو ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا) (٥) ويتضح لنا أن هذه الأقوال هي عين ما تدعو إليه النصرانية من ترك الدنيا بالكلية والتخلي عن الأموال والأملاك وينقل عن صاحب أحد الطرق الصوفية (٦) أنه كان يقول : (أكره للفقراء دخول الحمام ، وأحب لجميع أصحابي الجوع والعري والفقر والذل والمسكنة وأفرح لهم إذا نزل بهم ذلك) (٧)

ونقل السراج الطوسي عن ابراهيم بن أدهم أنه قال : (إذا تزوج الفقير فمثله مثل رجل قد ركب السفينة فإذا ولد له ولد قد غرق) (٨)

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج١ ص ٢٦٧ أيضاً غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطانية للنفري

الرندي طبعة دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٠م ص ٢٠٨

(٢) الرسالة القشيرية ج١ ص ١١٧

(٣) اللع للسراج الطوسي ص ٧٢

(٤) هو رويم بن أحمد الصوفي المتوفي سنة ٣٠٣هـ

(٥) اللع للسراج ص ٧٢

(٦) هو أحمد بن أبي الحسين الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية

(٧) النفحة العلية في أورد الشاذلية عبد القادر زكي ط مكتبة المتي القاهرة ص ٢٦٣ (٨) اللع ص ٢٦٥

ونقل السهروردي قولاً آخر عنه - أي ابراهيم بن أدهم - أنه قال (من تعود
أفخاذ النساء لا يفلح) (١) ويقولون إن (من تزوج فقد ركن إلى الدنيا) (٢)

فالنصوص في هذا المعنى كثيرة جداً ... وكل هذه النصوص
تنطلق صراحة عن مصدرها الأصلي ومرجعها الحقيقي ولا علاقة لها
بتعاليم الإسلام وإرشاداته ؛ بل إنها مخالفة تماماً لتلك (٣)
هذا وقد ذم الإسلام ما عليه رهبان النصاري ؛ لأنهم أحدثوا هذه الرهينة من
تلقاء أنفسهم ، ولأنها لم تفرض من الله ؛ ولأن فيها رفض النساء وما أبيح
من الدنيا واتخاذ الصوامع (٤) ؛ ولأنهم كذلك غلوا في العبادة وحملوا على
أنفسهم المشقات في الامتناع عن المطعم والمشرب وتعلقوا بالكهوف
والصوامع (٥)

(١) عوارف المعارف للسهروردي ص ١٦٦

(٢) قوت القلوب ط دار صادر بيروت ج ١ ص ٢٥٢

(٣) التصوف المنشأ والمصادر إحسان إلهي ص ٧٨

(٤) انظر صفوة التفسير للصابوني ج ١ ص ٨٦

(٥) انظر فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ١٧٨

٣ = تأثير البوذية على الصوفية :

البوذية هي الديانة التي ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمنية في القرن الخامس قبل الميلاد كانت في بدايتها متوجهة إلى العناية بالإنسان كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير ولم تلبث بعد موت مؤسسها أن تحولت إلى معتقدات باطلة ذات طابع وثني ، ولقد غالى أتباعها في مؤسسها حتى ألوهه (١) وكان بوذا ينتمي إلى قبيلة كان لها السلطان وكان والده أحد نبلاء هذه القبيلة ، يملك الكثير من المال ويتمتع بالجاه والسلطان ، تزوج بوذا من ابنة أحد الأمراء ورزق منها بولد وكان سنة عند الزواج تسعة وعشرين عاماً ، وكانت قد لعبت برأسه أفكاراً شتى وتجاوزته أحاسيس متباينة كانت صدى للحياة الهندوسية التي كان يعتقدونها من جانب وللواقع الذي كان يعيشه ، ولذلك قرر أن يتخلى عن هذه الحياة المنعمة وأن يترك الترف والبذخ ويبدأ حياة كلها زهد وتكشف لعله يصل إلى معرفة سر الكون فغادر أرض قبيلته وغير كل مظاهر حياته حتى لا يُعرف وواصل سيره إلى أن التقى براهبين من البراهمة وصاحبهما مدة من الزمن ولكن فشل في الاستفادة منهما فهجرهما وقرر أن يسعى بنفسه لينال المعرفة وكشف أسرار الكون فبدأ حياة الترهّب وعُرف بالراهب وقد خلع ثيابه واكتفى بأوراق الشجر وصار يمارس الرياضات الشاقة حتى اضمحل جسمه ، ثم

(١) انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة النواة العلمية للشباب الإسلامي ص ١٠٧

بعد ذلك وضع أفكاره والتي تنص على القضاء على الرغبات وعدم السعي للكسب (١) وكان اتباع بوذا جماعة واحدة يتعاون أفرادها على الوعظ والإرشاد ويلتزمون حياة شعارها ضبط النفس من الشهوات (٢) وكان من تعاليم هذا الجماعة أنه على الراغب في الالتحاق بها (أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل مخلاته للسؤال) (٣) ومن تعاليم بوذا أيضاً (ترك الغنى والترف وحمل النفس على التقشف والخشونة وفيها تحذير من النساء والمال وترغيب في البعد عن الزواج) (٤) وكما تأثر الصوفية بالنصرانية فقد تأثروا بالبوذية أيضاً فهذا ابراهيم بن أدهم كان أبوه من أهل بلخ وكان من ملوك خرسان فترك ملك أبيه وخرج إلى البراري ولبس كساء الرعاة وخرج من كل ما يملك وترك أهله وزوجته وأولاده وأمواله وكل أملاكه (٥) مقتدياً ببوذا ، وكان بعض الصوفية يخطب من على المنبر وهو عريان أقتداءً ببوذا فهذا الشعراني يورد في طبقاته عن ابراهيم العريان (٦) أنه كان (يطلع المنبر ويخطب عريان) (٧)

(١) بتصرف من كتاب أدبيان الهند الكبرى د / أحمد شلبي ط القاهرة طبعة ١٩٦٤م ص ١٤٩ وانظر اضواء

على مقارنة الأدبيان د / محمد طلعت أبو صير ط دار الطباعة المحمدية ١٤٠٨ ص ١١١ وما بعدها

(٢) أدبيان الهند الكبرى د / أحمد شلبي ط ٩ عام ١٩٩٠ مكتبة النهضة المصرية ص ١٧٧

(٣) نفس المراجع السابقة نفس الصفحة =

(٤) الموسوعة الميسرة في الأدبيان ص ١٠٨ وانظر أدبيان الهند الكبرى لأحمد شلبي ص ١٧٩-١٨٠

(٥) انظر القصة كاملة بالحلية ج ٧ ص ٣٦٨ (٦) ابراهيم العريان مات في مصر سنة نيف وثلاثين وتسعمائة

هجرية ودفن بالروضة (الطبقات وجامع كرامات الأولياء ج ١ ص ٤١٢)

(٧) انظر طبقات الشعراني ج ٢ ص ١٤٣

وأما التسول والاستجداء والوقوف على أبواب الناس وحمل المخلاة للسؤال فهي من لوازم الديانة البوذية وهي من ضمن التعاليم المشهورة لبوذا وقد أخذها الصوفية كما هي دون تبديل ولا تغيير فكأن بوذا وجّه تعاليمه لهم؛ ولذلك يقولون : (الأكل بالسؤال أجمل من الأكل بالتقوى) (١) وقال السراج الطوسي : (كان بعض الصوفية ببغداد لا يكاد يأكلون شيئاً إلا بذلة السؤال) (٢)

وخلاصة القول في هذا الباب أنه من الصعب أن أتتبع كل ما أخذه الصوفية من الديانات الأخرى؛ لأن ذلك يستحق بحثاً مستقلاً؛ بل بحثاً مستقلة وإنما اكتفيت بإيراد أهم الديانات والمذاهب التي تأثرت بها الصوفية تأثيراً واضحاً ولعل في ذلك بيان المقصود وإثبات أن الفكر الصوفي لم يكن فكراً إسلامياً خالصاً وإنما اختلط هذا الفكر بأفكار أجنبية غريبة عن الإسلام وبالتالي تبنى الصوفية آراءً وأقوالاً وأفعالاً تتصادم مع أصول وقواعد الإسلام المتفق عليها والتي لا مجال فيها للاجتهاد أو النظر .

(١) اللع للطوسي ص ٢٥٥

(٢) اللع للطوسي ص ٢٥٣

الباب الثاني

التوكل : حقيقته ، ومصادره ، وعلاقته بالقضاء والقدر
والأخذ بالأسباب .

ويتكون من ثلاثة فصول :

الفصل الأول : حقيقة التوكل .

الفصل الثاني : شروط التوكل ودرجاته .

الفصل الثالث : علاقة التوكل بالقضاء والقدر والأخذ بالأسباب .

الفصل الأول

حقيقة التوكل

ويتكون من مبحثين :

الأول : بيان معنى التوكل والتوكل لغة واصطلاحاً
والفرق بينهما .

الثاني : شروط التوكل ودرجاته ————— هـ .

المبحث الأول: بيان معنى التوكل والتوكل لغة واصطلاحاً والفرق بينهما.

التوكل لغة : لفظ مشتق من (وَكَلَّ) ويأتي بعده معاني ومنها ما يلي :

المعنى الأول :

أن يكون بمعنى (إظهار العجز في الأمر ، فيقال : وَكَلَّ فلان فلاناً إذا عجز عن القيام بأمر نفسه ، ويقال أيضاً : رجل موكل ، أي ضعيف عاجز و (الوكلُ) العاجز الذي إذا نابه أمر لا ينهض فيه ؛ بل يكله إلى غيره) (١) والتوكل (إظهار العجز ، والاعتماد على الغير) (٢)

المعنى الثاني :

أن يكون التوكل بمعنى (القوامة) فيكون الوكيل بمعنى المقيم (والوكيل في صفة الله تعالى الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق) (٣) وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ (٤) (ووكيل الرجل الذي يقوم بأمره ، فهو موكل إليه الأمر) (٥) .

(١) مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن زكريا بن فارس ط١ القاهرة عام ١٣٧١هـ دار إحياء الكتب العربية

باب وكل وانظر لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظور دار صادر ١٣٨٨هـ (باب اللام فصل الواو)

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي باب اللام مؤسسة الرسالة ط٢ ١٤٠٧هـ (فصل الواو)

(٣) المعجم الصافي في اللغة العربية تأليف صالح العلي وأمينه الأحمد باب (وكل) .

(٤) سورة الإسراء آية ٢

(٥) لسان العرب لابن منظور (باب اللام فصل الواو)

المعنى الثالث :

ورد لفظ التوكل بمعنى الكفالة فيكون الوكيل هو :الكفيل (١) وجاء فى لسان العرب (٢) ونعم الكفيل بأرزاقنا ومنه قولهم : (حسبنا الله ونعم الوكيل) والمتوكل على الله الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره (٣)

المعنى الرابع :

وجاء التوكل بمعنى (الاستسلام) فقد جاء فى القاموس المحيط (٤): (وكل بالله يكل وتوكل على الله وأوكل واتكل استسلم إليه ووكل إليه الأمر وكلاً ووكللاً سلمه وتركه) .

المعنى الخامس : يأتي التوكل بمعنى الاعتماد والإلجاء وكلت أمري إلى فلان ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه . (٥)

هذه بعض معاني التوكل فى اللغة فهي تدور حول الاعتماد على الغير فى أمر من الأمور يعجز الموكل عن تحقيقه لأي سبب من الأسباب ويرى أن فى استطاعة الوكيل تحقيق ذلك الأمر نيابة عنه .

(١) انظر المعجم الصافي فى اللغة العربية تأليف صالح العلي وأمينه الأحمد باب (وكل)

(٢) لسان العرب لابن منظور ج ١١ ص ٧٢٤

(٣) المعجم الصافي تأليف صالح العلي وأمينه الأحمد باب (وكل)

(٤) 'قاموس المحيط للفيروز آبادي باب (اللام فصل الوكل)

(٥) المعجم الصافي فى اللغة العربية باب (وكل)

التوكل اصطلاحاً :

له عدة معان ومنها ما ذكره الإمام أحمد (١) حين قال: (التوكل عمل القلب ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح) (٢) فمن خلال هذا التعريف يرى الإمام أحمد - رحمه الله - أن التوكل عمل قلبي محض ليس عمل جوارح وليس كلاماً باللسان يتلفظ به .

وقال الإمام ابن القيم (٣) : (التوكل نصف الدين ، والنصف الثاني الإجابة، فإن الدين استعانة، وعبادة ، فالتوكل هو : الاستعانة، والإجابة هي: العبادة) (٤)

وقد عرّف التوكل بعض علماء الصوفية فذكروا عدداً كثيراً من التعاريف فهذا أبو طالب المكي (٥) يذكر أن: (التوكل نظام التوحيد وجماع الأمر) (٦) وذكر الكلاباذي نقلاً عن سري السقطي (٧) قوله : (التوكل الانخلاع من الحول والقوة) (٨)

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن أسد بن عوف القشيري البغدادي إمام في الفقه وصاحب المذهب الحنبلي ، ولد في بغداد وقيل بمر في ربيع الأول ، وطلب العلم وسمع الحديث من شيوخها ثم رحل إلى الكوفة والبصرة وغيرها من المدن توفي ببغداد ١٣ ربيع الأول وقيل الآخر له من الكتب المسند ، التامع والمنسوخ وكتاب الزهد (الأعلام : ٢٠٣/١ ووليات الأعيان : ١٧/١)

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية دار الحديث القاهرة ج٢ ص ١١٩

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله) فقيه أصولي مجتهد مفسر متكلم نحو محدث ولد بدمشق ولازم ابن تيمية توفي في ١٣ رجب ودفن بدمشق ومن تصانيفه روضة المحبين ، نزهة المشتاقين ، زاد المعاد، تهذيب سنن أبي داود وله نظم (سم المؤلفين ١٠٦/٩ - ١٠٧)

(٤) مدارج السالكين ص ١١٩

(٥) أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي كان ينتمى إلى الجنيد في الصحبة ولقي أبا عبد الله التاجي وأبا سعيد الخراساني وغيرهما وكان شيخ القوم في وقته (طبقات الشيعي ج ١ ص ٨٩)

(٦) قوت القلوب لأبي طالب المكي ط ١ سنة ١٩٣٢م ج ٣ ص ٣

(٧) أبو الحسن سري بن مقبل المسقطي توفي ٢٥٣ هـ خال الجنيد وأستاذ تلميذ معروف الكرخي (الرسالة القشيرية ص ٤١٧)

(٨) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي المطبعة المصرية ص ١١٨

ونقل كذلك عن سهل التستري (*) أنه قال : (التوكل الاسترسال بين يدي الله تعالى) (١) وقال بعضهم (٢) : (التوكل ترك الإيواء إلا إلى الله) (٣) وقال ابن مسروق (٤) : (التوكل الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام) (٥) وقال القشيري : (التوكل نفي الشكوك والتفويض إلى ملك الملوك) (٦) وسئل ذو النون (٧٠) عن التوكل فقال : (خلع الأرباب ، وقطع الأسباب) (٧) ويتبين من ذلك أن التوكل يكون باللجوء إلى الله - سبحانه - وحده دون التعلق بالأسباب مهما كانت ، وقيل في تعريف التوكل أيضاً : (إنه عمل وأمل ، مع هدوء قلب وطمأنينة نفس واعتقاد جازم بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً) (٨) ومعنى ذلك أن الإنسان يعمل وهو متوجه بعمله إلى الله - سبحانه - ويعلم علماً يقينياً أن الله بيده كل شيء ، وأن اتخاذ الأسباب ما هو إلا وسيلة من

(*) أبو محمد سهل بن عبد الله التستري (٢٠٠-٢٨٣هـ) أحد أئمة القوم لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع (الرسالة القشيرية ص ٤٠٠)

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١٩ (٢) هو أبو عبد الله هيكال القرشي ولم أعثر له على ترجمة

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ١١٩

(٤) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق قال عنه الشعراني في الطبقات إنه من أفضل أهل طوس سكن بغداد ومات بها سنة ٢٩٩هـ

(٥) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ١١٩

(٦) الرسالة القشيرية للقشيري ص ١٦٨

(**) هو ثوبان بن إبراهيم المصري أحد الزهاد العباد كانت له فصاحة وحكمة وشعر وهو أول من تكلم بمصر

في ترتيب الأحوال ومقامات الولاية توفي بالجيزة عام ٢٤٥هـ (الأعلام ٢/ ٨٨)

(٧) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي دار الكتب العلمية بيروت ج ٤ ص ٢٦٤

(٨) منهاج المملم تأليف أبو بكر الجزائري طه دار الفكر ص ١٤١

الوسائل والتوفيق من الله وحده .

ومن خلال ما سبق أرى أن هناك تشابهاً في بعض الجوانب بين التعريف اللغوي للتوكل والتعريف الاصطلاحي ، فالاعتماد والثقة والتفويض والاستسلام هي من المعاني المشتركة بين التعريفين ، إلا أن هناك فرقاً جوهرياً بين التعريفين ، وهو القول بأن التوكل عمل القلب ، وعدم التعلق بالأسباب ، فهذا خاص بالتعريف الاصطلاحي فقط .

فالتوكل في الحقيقة هو : (عمل وأمل ، مع هدوء قلب وطمأنينة نفس واعتقاد جازم بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن وأن الله لا يضع أجر من أحسن عملاً) (١)

هذا التعريف جامع لصفات الله - عز وجل - ولعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وما يترتب على هذا العمل من أسباب ، وكذلك فيه بيان أن التوكل الحق لا ينافي الأخذ بالأسباب المشروعة خلافاً لمن قال : إن التوكل هو الاعتماد على رب الأرباب مع ترك الأسباب فترك الأسباب ليس توكلاً بل تواكل وفرق كبير بين الإثنين (٢)

وكما سيظهر فيما بعد من تعريف التواكل لغة واصطلاحاً :

(١) منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري ص ١٤١

(٢) انظر عقيدة التوكل عند أهل السنة (رسالة ماجستير) نور محمد مصيري عام ١٤٠٨ هـ ص ٢٠

تعريف التواكل لفظة :

التواكل كلمة مشتقة من (وَكَلَّ) يقال : (تواكل القوم مواكلة ووكالاً أي اتكل بعضهم على بعض) (١) ورجل (مواكل أي عاجز) (٢)

ويقال : (استغثت القوم فتواكلوا أي وكنني بعضهم إلى بعض ومنه - قولهم - : (وإذا كان الشأن اتكل) أي إذا وقع الأمر لا ينهض فيه ويكله إلى غيره) (٣)

تعريف التواكل اصطلاحاً:

هو (ترك الكسب والطمع في المخلوقين) (٤)

(١) لسان العرب (باب اللام فصل الواو) وانظر المعجم الوسيط ج ٢ ص ١٠٥٤

(٢) المعجم الصافي في اللغة العربية صالح العلي وأمينه الأحمد باب (وكل)

(٣) انظر لسان العرب (باب اللام فصل الواو) وانظر المعجم الوسيط ج ٢ ص ١٠٥٤

(٤) كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد التهانوي ط ١ الهيئة العامة للكتاب ج ١ ص ١٥١١

وذلك بأن يكون الإنسان عالة على غيره بحجة أن رزقه مقدر وهو آتيه لا محالة فلذلك يرى أنه لا داعي للعمل والكسب واتخاذ الأسباب ، وقيل هو: طرح الأسباب التي وضعها الله عز وجل والاتكال عليه أن يخرق له العوائد ويجعل السماء فوقه تمطر الذهب والفضة ، والأرض من تحت قدميه تخرج له من كل الطيبات دون عناء أو تعب ولا سعي ولا عمل (١)

ومن هذا الباب أثر بعض الصوفية الخمول والكسل وتوقفوا عن الكسب وأصبحوا يستجدون الناس فهم يرون أن (الاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء أقبح) (٢)

وذكر عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه لقي ناساً من أهل اليمن فقال : (من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون . قال : بل أنتم المتواكلون ، إنما المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض ويتوكل على الله) (٣)

وفي ذلك رد بليغ على كل من ترك الأسباب كسلاً وتقاعساً بدعوى أن التوكل على الله يتنافى مع الأخذ بالأسباب ولو صدقوا لأحسنوا أعمالهم

(١) انظر الإيمان والحياة د يوسف القرضاوي مكتبة وهبه ص ٢٩٦

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ج٤ ص ٢٧٥

(٣) انظر كتاب التوكل على الله للحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا تحقيق مجدي إبراهيم مكتبة القرآن ص ٣٦

الفرق بين التوكل والتواكل :

ومما سبق أستطيع أن أبين بعض الفروق بين التوكل والتواكل بما يلي:

١ - التوكل: مأمور به شرعاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

أما التواكل : فمنهي عنه ؛ لأنه مخالف لحال الرسول صلى - الله عليه وسلم - وسنته •

٢ - التوكل أخذ بالأسباب ، واعتماد على رب الأرباب ؛ لأن المتوكل مأمور بالأخذ بالأسباب لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢)

أما التواكل فهو : تعطيل الأسباب التي أوجدها الله لتستقيم بها الحياة •

٣ - التوكل ناتج من ثقة الموكل بقدرة من توكل عليه ، وكفايته في قضاء حوائجه •

وأما المتواكل : فإنه يطمع فيما عند الله ، أو فيما عند غيره بدون بذل الجهد واتخاذ الأسباب •

(١) سورة المجادلة آية ١٠

(٢) سورة الجمعة آية ١٠

- ٤ - التوكل : يثمر الرضا التام بكل ما يقع للإنسان بعد بذل الأسباب .
- وأما التواكل : فهو الرضا في الرخاء والجزع في الشدة ، وعدم الاستقرار .
- ٥ - التوكل : يؤدي إلى القوة لقوله - صلى الله عليه وسلم - : (من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله) (١) .
- وأما التواكل : فإنه عكس ذلك إذ يؤدي إلى الضعف والذل .
- ٦ - التوكل يبعد الشيطان لقوله عليه السلام : (من قال بسم الله توكلت على الله لآحول ولا قوة إلا بالله فيقال له حينئذ كيفيت ووقيت وتتحى له الشيطان) (٢)
- وأما المتواكل : فيخذله الله ، لأنه لم يعتمد عليه ، ولا يبعد الشيطان عنه .
- ٧ - التوكل : سبب من أسباب دخول الجنة بغير حساب لقوله صلى الله عليه وسلم : (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيطرون وعلى ربهم يتوكلون) (٣)
- وأما المتواكل : فلا ينال ذلك ؛ لأنه مفرط .
- ٨ - التوكل : يجلب الرزق لقوله - عليه السلام - : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماساً وتروح بطاناً) (٤)
- وأما التواكل : فهو جالب للفقر وطارد للرزق ؛ لأن صاحبه يعتمد على ما في أيدي الناس ولا يسعى في طلب رزقه بنفسه .
- ٩ - التوكل : صفة الأنبياء (٥) وأما التواكل : فليس من صفاتهم

(١) التوكل على الله للحافظ ابن أبي الدنيا ص ٢٥ ورواه الحاكم والبيهقي وأبو يعلى والطبراني عن أنس - رضي الله عنه - فيض القدير حديث رقم ٨٧٤٢

(٢) التوكل على الله للحافظ ابن أبي الدنيا ص ٣٦

(٣) رواية البخاري في الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنه - كتاب الرقاق حديث رقم ٦٥٤١

(٤) رواية الترمذي وأحمد في مسنده والحاكم عن عمر - رضي الله عنه - فيض القدير حديث رقم ٧٤٢٠

(٥) انظر مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج ٢ ص ١٢٢

المبحث الثاني : شروط التوكل ودرجاته :

أولاً : شروط التوكل :

إن التوكل حال مركبة من مجموعة أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها وهذه الأمور هي :-

أ - معرفة الرب وصفاته : فمعرفة قدرة الله وكفايته وقيومته ، وأن الأمور كلها منتهية إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته ، وقدرته كان ذلك دافعاً قوياً ؛ ليكون التوكل توكلأً قوياً وصحيحاً .

ب - صحة الاعتقاد : لا تستقيم عبادة من العبادات ، ولا تقبل طاعة من الطاعات إذا شاب التوحيد والإخلاص أي شائبة ؛ ولأن التوكل عبادة وهو توحيد القلب ، فلا يكون صحيحاً ومقبولاً إذا كان في القلب شيء من الشرك فإن العبد متى التفت إلى غير الله أدخل ذلك بصحة توكله .

ج - اعتماد القلب على الله اعتماداً كلياً :

وذلك بأن يستند المرء إلى الله تعالى استناداً كاملاً ، ويسكن إليه سكوناً تاماً ، بحيث لا يبقى منه اضطراب أو تشوش إلى الأسباب ، ولا يسكن لها بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها وهو الله مسبب الأسباب ومقدر الأقدار .

د / الثقة بما عند الله والاطمئنان إليه :

فالأخذ بالأسباب سنته صلى الله عليه وسلم والثقة بما عند الله من جلب نفع أو دفع ضرر هي عقيدته صلى الله عليه وسلم فيكون رفض الأسباب هنا عن القلب لا عن الجوارح .

هـ - إثبات الأسباب والمسببات والأخذ بها :

وذلك عن طريق الاجتهاد والسعي واتخاذ الأسباب المشروعة .

و - حسن الظن بالله - عز وجل - :

فعلى قدر حسن الظن بالله - جل وعلا - ودرجة الرجاء منه يكون التوكل عليه . فكلما عظم حسن الظن بالله كان ذلك زيادة في التوكل .

ز - التفويض :

فهو روح التوكل ولبه وحقيقته وهو : إلقاء الأمور كلها إلى الله عز وجل وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراً (١)
هذه هي الشروط المطلوبة لكي يكون التوكل صحيحاً وموافقاً لما جاء به الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - .

(١) انظر مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج٢ ص ١٢٢ وما بعدها وانظر مختصر منهاج القاصدين للإمام ابن قدامة المقدسي . مؤسسة الكتب الثقافية ص ٣١٥ وما بعدها كذلك عقيدة التوكل عند أهل السنة والجماعة رسالة ماجستير . نور محمد مصيري ص ٢٩

ثانياً درجات التوكّل :

قسم العلماء درجات التوكّل إلى ثلاث درجات تتفاوت في القوة والضعف وفيما يلي إيضاح ذلك :

الدرجة الأولى :

وهي أن يكون - المتوكّل - حاله في حق الله سبحانه والثقة بكفّالته وعنايته كحالة في الثقة بالوكيل (١) وهذه الدرجة تسمى : توكّل العامة ومنه :

أ - توكّل العبيد : فهم لا يفكرون في أمر المعاش اتكالاً على مواليتهم فيما يحتاجون إليه .

ب - توكّل الجند : وذلك كجنود السلطان ، أو الحاكم ، فإنهم لا يفكرون في طلب المعاش اتكالاً على السلطان أو الحاكم في أرزاقهم المفروضة لهم وهم مشغولون بخدمة سلطانهم أو حكامهم .

ج - توكّل الأغنياء : فالأغنياء يتوكّلون على ذخائرهم وأموالهم ، وقلوبهم ساكنة ، ونفوسهم هادئة ، ولكن الحرص والرغبة في الزيادة يحثّانهم على الطلب وهم في الطلب متوكّلون على رؤوس أموالهم ، وخدمتهم البيع والشراء في طلب الربح والكسب .

د - توكّل الفقراء : وأما الفقراء الذين يعملون بأبدانهم فيتوكّلون على عملهم وقوة أبدانهم .

هـ - توكّل المكدين : وهم المتسولون فإنهم يتوكّلون على الناس في مواساتهم

(١) أحياء علوم الدين للغزالي ج٤ ص ٢٧٧

من فضل ما في أيديهم (١) من أموال وأرزاق ، فالمتوكل في هذه الدرجة يكون حاله في حق الله - تعالى - والثقة بكفالاته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل .

الدرجة الثانية :

وهي أقوى من الأولى وذلك بأن يكون حال المتوكل مع الله - تعالى - كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، فإن رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابته أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماه وأول خاطر يخطر في قلبه أمه فإنها مفزعه ، ولأنه قد وثق بكفالاتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له (٢) فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً ، فإن الطفل متوكل على أمه ، والفرق بين هذه الدرجة والأولى أن هذا

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين للإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي ص ٣١٦ وانظر عقيدة

التوكل عند أهل السنة رسالة ماجستير نور محمد مصيري ص ٣٠

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٤ ص ٢٧٧

متوكل وقد فني في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ؛ بل إلى المتوكل عليه فقط (١) .

الدرجة الثالثة :

وهي أعلاها وتكون باستسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعته (٢) بأن يكون بين يدي الله - تعالى - في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذي قوي يقينه بأنه مجري للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات (٣) وهذه الدرجة هي درجة توكل الخاصة وفيها يدرك المتوكل أنه يعتمد اعتماداً كلياً على الله - عز وجل - اعتماد ثقة وطمأنينة وتفويض مع بذل الأسباب بقدر الطاقة.

وتعتبر منزلة التوكل أوسع المنازل وأجمعها ؛ لأنه فعل عام يقع من العموم لسعة متعلقه وكثرة حوائج العالمين ، فهو يقع من المؤمنين والكفار ، والأبرار والفجار ، والطير والوحش ، وسائر البهائم ؛ فأهل السماوات والأرض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل وإن تباين متعلق توكلهم

(١) إحياء علوم الدين للفتاوى ج٤ ص ٢٧٨

(٢) انظر مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج٢ ص ١٢٧

(٣) إحياء علوم الدين للفتاوى ج٤ ص ٢٧٨

فأولياء الله وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان ، ونصرة دينه وإعلاء كلمته ، وجهاد أعدائه ، وفي محابه وتنفيذ أوامره ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه باستقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله فارغاً عن الناس ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية ، أو نصر على عدو ، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها إلا باستعانتهم بالله ، وتوكلهم عليه ؛ ولهذا فهم قد يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك ، معتمدين على الله أن يسلمهم ، ويظفرهم بمطالبهم (١) .

ثم يبين الإمام ابن قيم الجوزية أن مراتب التوكل تتفاوت في الفضل والمكانة فيقول : (فأفضل التوكل : التوكل في الواجب - أي واجب الحق ، وواجب الخلق ، وواجب النفس - وأوسع وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية ، أو في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم ثم الناس بعد ذلك في التوكل على حسب همهم ومقاصدهم ، فمن متوكل على الله في حصول الملك ، ومن متوكل في حصول رغيف . ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله فإن كان محبوباً له مرضياً كانت له فيه العاقبة المحموده ، وإن كان مسخوطاً مبغوضاً كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه ، وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعين به على طاعاته) (٢)

(١) انظر مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ج٢ ص ١١٨ (بنصرف) (٢) المرجع السابق ص ١١٩

الفصل الثاني

مصادر التوكل عند أهل السنة والجماعة

ويتضمن مبحثين :

الأول : التوكل ————— ل في الكتاب الكريم .

الثاني : التوكل ————— ل في السنة الشريفة .

قبل أن نتناول الحديث عن مصادر التوكل عند أهل السنة والجماعة لابد من وقفة أمامهم لبيان المقصود بأهل السنة والجماعة فأقول وبالله التوفيق:

اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تعريف أهل السنة والجماعة فمنهم من اعتبرهم التابعين لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام - رضي الله عنهم - ومنهم من اعتبرهم التابعين له عليه السلام من حيث الاعتقاد والعمل دون تقييد بزمن ، وممن عرفهم قديماً عبد القاهر البغدادي (١) فقال : (هم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم) . (٢) ويرى الدكتور فاروق الدسوقي (٣) أن أهل السنة والجماعة هم السلف فيقول : السلف أهل السنة والجماعة وقد صار حول هذا المفهوم تنازع حيث حاولت كل فرقة من الفرق (٤) أن تنتسب إليهم أو تتدعي اتباعها للسلف أو تثبت التوافق معهم منهجياً وعقائدياً وذلك لإثبات مذهبهم وإحقاق مناهجهم وعلى كل فهم جميعاً يحاولون جاهدين اعتبار القرآن الكريم والسنة المطهرة أصلاً لمذهبهم ومعظم الفرق قد أعلنت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو إمامهم وأنهم متبعون لا مبتدعون . فهو عند الصوفية الصوفي الأول في الإسلام وكذلك يجعل المعتزلة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة رضي الله عنهم على رأس طبقاتهم والأشاعرة يسمون أنفسهم أهل السنة والجماعة كما يسمون أنفسهم الخلف باعتبار أنهم خلفوا في اعتقادهم .

(١) صدر الإسلام الأصولي العالم المتفطن عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الاسفراييني التميمي توفي عام ٤٢٩هـ

(٢) الفرق بين الفرق، ص ٣١٨

(٤) كالشيعية والمعتزلة والمرجئة والأشاعرة

(٣) القضاء والقدر في الإسلام ١٥ / ٢

والسلف في نظر الشيخ محمد أبو زهرة هم : أنك الذين ظهوروا في القرن الرابع الهجري وكانوا من الحنابلة وزعموا أن جملة آرائهم تنتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل الذي أحيا عقيدة السلف وحارب دونها ثم تجدد ظهورهم في القرن السابع الهجري وأحيا شيخ الإسلام ابن تيمية وشدد في الدعوة إليه وأضاف إليه أموراً أخرى قد بعثت إلى التفكير في أحوال عصره ، ثم ظهرت تلك الآراء في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر من الهجرة وأحياها محمد بن عبد الوهاب (١) ونادى [أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب] بها وتحمس بعض العلماء من المسلمين إليها (٢) ويمكن القول : أن أهل السنة والجماعة منهم فقهاء وقراء ومحدثون ومتكلمون كلهم متفقون على مقالة واحدة في توحيد الصانع وصفاته وفي أبواب النبوة والإمامة والآخرة وفي إباحة ما أباح القرآن وتحريم ما حرمه مع قبول ما صح من سنة رسول البشرية صلى الله عليه وسلم (٣) والمراد بمذهب السلف : ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليه والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين وأتباعهم وأئمة الدين ممن شهد لهم بالإمامة

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي النجدي ينتهي نسبه إلى عدنان وولد سنة ١١١٥هـ وتوفي ١٢٠٦هـ فقيه أصولي مفسر محدث متكلم ولد في العيينة من بلاد نجد وقام بالدعوة إلى العقيدة السلفية والعمل بالكتاب والسنة قصد الدرعية وتلقاه أميرها محمد بن سعود وقبل دعوته وانتشرت على أثر ذلك في كثير من بلاد العرب من آثاره كتاب التوحيد وكشف الشبهات وكتاب الكبائر (من أعلام السلف إعداد أحمد بن عبد الله النملة بدون طبعة ج١ ص ٧٥)

(٢) المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد دار الفكر العربي ج١ ص ٢١١

(٣) انظر الفرق بين الفرق عبد القاهر البغدادي دار المعرفة بيروت لبنان ص ٢٦ ودراسات في الفلسفة الإسلامية عبد اللطيف محمد العيد مكتبة النهضة المصرية ص ٨

وعرف معظم شأنه في الدين وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلف كالأئمة الأربعة والبخاري ومسلم والثوري وسائر أصحاب السنن دون من رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضي (١)

والناظر إلى تعريف أهل السنة من الناحية الزمنية يبرز أمامه تعريف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث أخبر عليه السلام عن افتراق أمته إلى عدة قرون فقال عليه السلام : (إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران : فلا أدري أقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد قرنه مرتين أو ثلاثة (ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن) (٢)

وبعد هذا العرض يمكن القول بأن : أهل السنة والجماعة هم ألئك الذين تبعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - زمناً أو عقيدة ومن تبعهم دون تحريف أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل منزهين الله - سبحانه وتعالى - عن كل لفظ لا يليق بجلاله معتمدين على كتاب الله وسنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وصدق الله القائل : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ (٣)

(١) في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة محمود أحمد خفاجي ج ١ ص ٢١

(٢) رواه مسلم في الصحيح كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢١٤

(٣) سورة إبراهيم آية ٢٧

المبحث الأول : التوكل في الكتاب الكريم : -

القرآن في اللغة : مصدر بمعنى القراءة ، وغلب في العرف العام على المجموع المعين من كلام الله - سبحانه وتعالى - المقروء بألسنة العباد .
 واصطلاحاً : هو الكلام المنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الله بواسطة جبريل المكتوب في المصاحف ، المنقول إلينا نقلاً متواتراً (١) المتعبد بتلاوته . وسمي بالكتاب ؛ لأنه يجمع أنواعاً من القصص ، والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصه ، ويسمى المكتوب كتاباً مجازاً قال تعالى : ﴿ في كتاب مكنون ﴾ (٢) ويسمى قرآنًا ؛ لأن القراءة عنه والتلاوة منه (٣) ختم الله به الكتب السماوية جميعاً ، وجمع ثمراتها كلها فيه ضمنه جل وعلا أعظم دين ، وهو الكتاب الخالد ، ودستور الخالق لإصلاح الخلق وهدايتهم ، (٤) صالح لكل زمان ومكان ، محفوظ من التحريف والضياع ، قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٥) ولا تمتد إليه يد العبد والتعديل بفضل العناية الإلهية قال تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٦) وهو المصدر الأول في الاعتقاد والتشريع ، والهداية للحق المبين قال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (٧)

(١) انظر إرشاد الفحول إلى علم الأصول تأليف محمد بن علي الشوكاني مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ص ٣٠

(٢) سورة الواقعة آية ٧٨

(٣) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل دار المعرفة بيروت ج ١ ص ٢٧٧

(٤) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن / محمد عبد العظيم الزرقاني دار إحياء التراث العربي ج ١ ص ٣

(٥) سورة الحجر آية ٩

(٦) سورة فصلت آية ٤٢

(٧) سورة الإسراء آية ٩

ومن أدرك علم أحكام الله في هذا الكتاب العزيز نصاً واستللاً ووقفه الله للقول والعمل فيه فاز بالفضيلة في الدين والدنيا وانتفت عنه الريب ونورت الحكمة قلبه واستوجب في الدين موضع الإمامة (١) والصدارة وعلى هذا فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده ، وأقرب إلى نجاته ، من تدبر القرآن ، وإطالة التأمل فيه ، وجمع الفكر على معانيه ؛ لأنها تطلع العبد على معالم الخير والشر ، وعلى طريقيهما وأسبابهما ، وغايتهما وثمراتهما ، وحال أهلها ، وتجعل في يده مفاتيح كنوز السعادة في الدنيا والآخرة ، ومفاتيح العلوم النافعة ، وتثبيت قواعد الإيمان في قلبه (٢) ، وقد عاقب الله - عز وجل - الذين أضمرُوا عداوة للقرآن ، فإذا قلوبهم قد أصابها الوقر ، فلا تسمع منادي الإيمان ، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى والضلال ، فهي لا تبصر حقائق القرآن ، وألسنتهم بها خرس عن الحق المبين ، فهم لا ينطقون صم بكم عُمي فهم لا يرجعون (٣)

ومن ضمن الأمور الاعتقادية التي عني بها القرآن الكريم التوكل على الله سبحانه بإعتباره أمراً من أمور العقيدة الهامة ؛ ولهذا فقد ورد التوكل في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وبصور مختلفة ، وقد نال هذا الموضوع اهتمام بعض العلماء فتناولوا ذلك بالشرح والبيان، وسأتولى بيان ذلك

(١) انظر الرسالة للإمام / محمد بن إدريس الشافعي - المكتبة العلمية بيروت لبنان ص ٢٠

(٢) انظر الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ومناهجهم تأليف الدكتور / محمد طلعت أبو صير المطبعة العربية الحديثة القاهرة ١٤٠٦هـ ص ٤٢١

(٣) انظر الموافقات في أصول الشريعة أبو اسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبي - تحقيق الشيخ / عبد الله دراز المطبعة الرحمانية بمصر ج ٣ ص ٣٨٠

فيما يلي إن شاء الله ، فمن العلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع أبو حامد محمد الغزالي (١) الذي ضمن كتابه إحياء علوم الدين كتاباً سماه "كتاب التوحيد والتوكل" (٢) بدأه بقوله : (إن التوكل منزلة من منازل الدين ومقام من مقام الموقنين) (٣) وإن الله سبحانه مسبب الأسباب وعليه الاعتماد ومقدر أرزاق العباد (فلما تحققوا أنه للرزق ضامن وبه كفيل توكلوا عليه) (٤) ثم ذكر بعض الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر التوكل بدأها بقوله تعالى : ﴿ ٠٠٠ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ الآية (٥) ثم قوله تعالى : ﴿ ٠٠٠ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ الآية (٦) وقوله تعالى : ﴿ ٠٠٠ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ الآية (٧) وقوله تعالى : ﴿ ٠٠٠ إن الله يحب المتوكلين ﴾ الآية (٨) وقوله تعالى : ﴿ ٠٠٠ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ الآية (٩) ثم بين أن كل ما سوى الله - تعالى - عبد مسخر ، حاجة مثل حاجات سائر المخلوقات فكيف يتوكل عليه ، بل إن كل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على عدم الركون إلى الأسباب والتعلق بها وحدها وإنما التوكل على الواحد القهار موجد الأسباب (١٠) .

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي المعروف بالغزالي زين الدين حجة الاسلام أبو حامد ، حكيم ، متكلم فقيه صوفي أصولي ، مشارك في أنواع من العلوم ، ولد بالطابران ، ثم ارتحل إلى أبي نصر الاسماعيلي بجرجان ثم إلى أمام الحرمين أبي المعالي الجويني بنيسابور وتوفي بالطابران عن تصانيفه إحياء علوم الدين الحصن الحصين في التجريد والتوحيد وتهافت الفلاسفة وغيرها عاش من سنة ٤٥٠ إلى ٥٥٠ هـ . انظر معجم المؤلفين ٢٦٦/١١

(٢) انظر احياء علوم الدين ج٤ ص ٢٥٩ .

(٣) انظر المرجع السابق ج٤ ص ٢٥٩ .

(٤) انظر المرجع السابق ج٤ ص ٢٥٩ .

(٥) سورة المائدة جزء من آية ٢٣ .

(٦) سورة ابراهيم جزء من آية ١٢ .

(٧) سورة الطلاق جزء من آية ٣ .

(٨) سورة آل عمران جزء من آية ١٥٩ .

(٩) سورة الفرقان جزء من آية ٥٨ .

(١٠) احياء علوم الدين ج٤ ص ٢٦٠/٢٩٠ (بتصرف)

وقد ذكر كذلك الإمام ابن قيم الجوزية بعض الآيات التي ورد فيها لفظ (التوكل) أو أحد مشتقاته (١) فذكر قوله تعالى: ﴿...﴾ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴿...﴾ الآية (٢) وقوله تعالى: ﴿...﴾ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿...﴾ الآية (٣) وقوله جل شأنه: ﴿...﴾ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴿...﴾ الآية (٤) وقوله عن أوليائه: ﴿...﴾ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبأنا وإليك المصير ﴿...﴾ الآية (٥) وقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿...﴾ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴿...﴾ (٦) وقوله له صلى الله عليه وسلم: ﴿...﴾ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴿...﴾ الآية (٧) وقوله له صلى الله عليه وسلم أيضاً: ﴿...﴾ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده ﴿...﴾ الآية (٨) وقوله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿...﴾ فإذا عزممت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴿...﴾ الآية (٩) وقال سبحانه عن أنبيائه ورسله - عليهم السلام - : ﴿...﴾ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴿...﴾ الآية (١٠) وقال جل من قائل عن أصحاب نبيه عليه السلام: ﴿...﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿...﴾ (١١) وقال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿...﴾ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴿...﴾ (١٢)

-
- (١) انظر مدارج السالكين ج ٢ ص ١١٧ (٢) سورة المائدة آية ٢٣ (٣) سورة التوبة آية ٥١
 (٤) سورة الطلاق آية ٣ (٥) سورة الممتحنة آية ٤ (٦) سورة النمل آية ٧٩
 (٧) سورة النساء آية ٨١ (٨) سورة الفرقان آية ٥٨ (٩) سورة آل عمران آية ١٥٩
 (١٠) سورة إبراهيم آية ١٢ (١١) سورة آل عمران آية ١٧٣ (١٢) سورة الأنفال آية ٢

وإذا كان الإمام الغزالي وابن قيم الجوزية قد اقتصرنا على ذكر بعض الآيات التي ورد فيها لفظ (التوكل) للتمثيل والاستدلال لاعلى سبيل الحصر والاستقصاء ، فإنني سأبين بحول الله وقوته جميع الآيات التي ورد فيها لفظ (التوكل) وبأي اشتقاق كان معتمداً على طريقتين في ذلك :-

الطريقة الأولى: إحصاؤها وترتيبها حسب ترتيب سور القرآن الكريم دون النظر إلى تصريف الكلمة - وهو إحصاء موضعي مكاني وليس إحصاءً عددياً - ؛ لأن الكلمة قد يرد ذكرها في بعض الآيات أكثر من مرة (١) وبيان ذلك كالتالي :-

وردت في سورة آل عمران أربع مرات في الآيات الكريمة (١٢٢، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٣)، ووردت في سورة النساء أربع مرات كذلك في الآيات (٨١ ، ١٠٩ ، ١٣٢ ، ١٧١) ، ووردت في سورة المائدة مرتين في الآيتين (١١ ، ٢٣) ، ووردت في سورة الأنعام أربع مرات في الآيات (٦٦ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٠٧) ، ووردت في سورة الأعراف مرة واحدة في الآية (٨٩) ، ووردت في سورة الأنفال ثلاث مرات في الآيات (٢ ، ٤٩ ، ٦١) ، ووردت في سورة التوبة مرتين في الآيتين (٥١ ، ١٢٩) ، وفي سورة يونس وردت أربع مرات في الآيات (٧١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٨)

(١) ومثالاً على ذلك الآية رقم ٤٨ من سورة الأحزاب ذكر فيها لفظ (توكل) و(وكلاً) فهذا يكون قد ورد هذا اللفظ مرتين في آية واحدة

ووردت في سورة هود أربع مرات في الآيات (١٢ ، ٥٦ ، ٨٨ ، ١٢٣) وقد وردت في سورة يوسف مرتين في الآيتين (٦٦ ، ٦٧) ، كما وردت في سورة الرعد مرة واحدة في الآية (٣٠) ، ووردت في سورة ابراهيم مرتين في الآيتين (١٢ ، ١١) ، ووردت في سورة النحل مرتين في الآيتين (٤٢ ، ٩٩) ، ووردت في سورة الإسراء خمس مرات في الآيات (٨٦ ، ٦٨ ، ٦٥ ، ٥٤ ، ٢) ، ووردت في سورة الفرقان مرتين في الآيتين (٥٨ ، ٤٣) ، ووردت في سورة الشعراء مرة واحدة في الآية (٢١٧) ، وأيضاً وردت في سورة النمل مرة واحدة في الآية (٧٩) ووردت كذلك في سورة العنكبوت مرة واحدة في الآية (٥٩) ، ووردت أيضاً مرة واحدة في سورة السجدة في الآية (١١) ووردت مرتين في سورة الأحزاب في الآيتين (٤٨ ، ٣) ، وفي سورة الزمر وردت ثلاث مرات في الآيات (٦٢ ، ٤١ ، ٣٨) ، ووردت في سورة الشورى ثلاث مرات في الآيات (٣٦ ، ١٠ ، ٦) ، ووردت مرة واحدة في سورة المجادلة في الآية (١٠) ، وكذلك وردت مرة واحدة في سورة الممتحنة الآية (٤) ، ووردت كذلك مرة واحدة في سورة التغابن في الآية (١٣) ، ووردت مرة واحدة في سورة الطلاق الآية (٣) ، ووردت مرة واحدة في سورة الملك الآية (٢٩) ، ووردت في سورة المزمل مرة واحدة في الآية (٩)

ويلاحظ من خلال هذا الإحصاء أن هذه الكلمة أو أحد مشتقاتها قد ذكرت في السور المكية أكثر من ذكرها في السور المدنية وكذلك لم تذكر بسورة واحدة في أكثر من خمس آيات (١) .

(١) حصلت على هذه الإحصائية من القرآن الكريم ثم بمساعدة برنامج القرآن الكريم بالحاسب الآلي والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم تأليف / محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث القاهرة الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ .

الطريقة الثانية : إحصاؤها وتصنيفها وترتيبها حسب الاشتقاق اللغوي (١)

هذا وقد وجدت أن للكلمة عدة اشتقاقات منها ؛ وكلنا ، ووكل ، وتوكلت ، وتوكلنا ، ونتوكل ، ويتوكل ، ويتوكلون ، وتوكل ، وتوكلوا ، ووكيل ، ووكيلاً ، والمتوكلون ، والمتوكلين .

أما بالنسبة للفظ (وَكَّلْنَا) فقد جاء ذكره في سورة الأنعام آية (٨٩) قال تعالى : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ فقد ورد لفظ (وكلنا) في هذه الآية الكرية بمعنى " ألزمتنا وأرصدنا " (٢)

ولفظ (وَكَّلَ) ورد في سورة السجدة آية (١١) بمعنى كُلف (٣) قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ ولفظ (تَوَكَّلْتُ) قد جاء ذكره في سبع آيات من القرآن الكريم، في سورة التوبة آية (١٢٩) جاء بمعنى (اعتمدت) (٤) قال تعالى : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وبنفس المعنى جاء في سورة يونس آية (٧١) ، وفي سورة هود آية (٥٦ ، ٨٨) ، وجاء كذلك في سورة يوسف آية (٦٧) ، وفي سورة الرعد آية (٣٠) ، وفي سورة الشورى آية (١٠) .

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم تأليف / محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث القاهرة باب الواو

ص ٩٢٩

(٢) تفسير الجلالين للإمامين جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي دار العلم للملايين ص ٢٠١

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٢٥٠

(٤) صفوة التفاسير / محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم بيروت ج ٥ ص ٥٥

الطريقة الثانية : إحصاؤها وتصنيفها وترتيبها حسب الاشتقاق اللغوي (١)
 هذا وقد وجدت أن للكلمة عدة اشتقاقات منها ؛ وكلنا ، ووكل ، وتوكلت
 ، وتوكلنا ، ونتوكل ، ويتوكل ، ويتوكلون ، وتوكل ، وتوكلوا ، ووكيل ،
 ووكيلاً ، والمتوكلون ، والمتوكلين .

أما بالنسبة للفظ (وَكَّلْنَا) فقد جاء ذكره في سورة الأنعام آية (٨٩) قال
 تعالى : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾
 فقد ورد لفظ (وكلنا) في هذه الآية الكرية بمعنى " ألزمتنا وأرصدنا " (٢)

ولفظ (وَكَّلَ) ورد في سورة السجدة آية (١١) بمعنى كُلف (٣) قال
 تعالى : ﴿ قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾
 ولفظ (تَوَكَّلْتُ) قد جاء ذكره في سبع آيات من القرآن الكريم، في سورة
 التوبة آية (١٢٩) جاء بمعنى (اعتمدت) (٤) قال تعالى : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
 حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾
 وبنفس المعنى جاء في سورة يونس آية (٧١) ، وفي سورة هود آية
 (٥٦ ، ٨٨) ، وجاء كذلك في سورة يوسف آية (٦٧) ، وفي سورة
 الرعد آية (٣٠) ، وفي سورة الشورى آية (١٠) .

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم تأليف / محمد فواد عبد الباقي دار الحديث القاهرة باب الواو
 ص ٩٢٩

(٢) تفسير الجلالين للإمامين جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي دار العلم للملايين ص ٢٠١

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٢٥٠

(٤) صفوة التفسير / محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم بيروت ج ٥ ص ٥٥

وأما لفظ (تَوَكَّلْنَا) قد ورد في سورة الأعراف : آية (٨٩) بمعنى اعتمد (١)
 أيضاً قال تعالى : ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا
 وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾
 وورد أيضاً بنفس المعنى في ثلاث سور فقد ورد في سورة يونس آية :
 (٨٥) ، وسورة الممتحنة : آية (٤) ، وسورة الملك آية (٢٩) .

ولفظ (نَتَوَكَّلْ) ورد في سورة ابراهيم آية (١٢) بمعنى اعتمد (٢) أيضاً
 قال تعالى ﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾

ولفظ (يَتَوَكَّلِ) ورد في اثني عشر موضعاً من القرآن الكريم بمعنى
 وثق (٣) وفوض واعتمد (٤) فقد ورد في سورة آل عمران آية (١٢٢)
 بهذا المعنى قال تعالى ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى
 الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وورد كذلك في الآية (١٦٠) من نفس السورة
 وفي سورة المائدة آية (١١) وسورة التوبة آية (٥١) وسورة الأنفال آية
 (٤٩) وفي سورة يوسف آية (٦٧) وفي سورة ابراهيم آية (١١ ، ١٢)
 وفي سورة الزمر آية (٣٨) وفي سورة المجادلة آية (١٠) وفي
 سورة التغابن آية (١٣) وفي سورة الطلاق جاء بمعنى فوض في الآية (٣)

(١) صفوة التفسير / محمد علي الصابوني ج ٤ ص ٣٠

(٢) المرجع السابق ج ٦ ص ٥٩

(٣) انظر تفسير الجلالين ص ٢٤٦

(٤) تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام / عبد الله بن أحمد بن محمد النسفي دار القلم

ولفظ (يَتَوَكَّلُونَ) ورد بمعنى يعتمدون ويتقنون (١) فقد ورد في سورة الأنفال آية (٢) بهذا المعنى قال تعالى ﴿ وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

وبنفس المعنى ورد في سورة العنكبوت آية (٥٩) وفي سورة الشورى آية (٣٦) وفي سورة النحل آية (٤٢) وفي آية (٩٩) من نفس السورة .

ولفظ (تَوَكَّلْ) ورد بمعنى اعتمد ووثق وفوض (٢) فقد جاء بهذا المعنى في سورة آل عمران آية (١٥٩) قال تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

وكذلك ورد بنفس المعنى في سورة هود آية (١٢٣) وفي سورة الفرقان آية (٥٨) وفي سورة النمل آية (٧٩) وفي سورة الأحزاب في الآيتين (٤٨ ، ٣)

وورد بمعنى فوض في سورة الأنفال آية (٦١) وفي سورة الشعراء آية (٢١٧) وورد بمعنى الكفاية في سورة النساء آية (٨١)

وأما لفظ (تَوَكَّلُوا) فقد ورد بمعنى اعتمدوا (٣) في سورة المائدة آية (٢٣) قال تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وورد بنفس المعنى في سورة يونس آية (٨٤) .

(١) تفسير الجلالين تفسير الآية (٢) من سورة الأنفال

(٢) المرجع السابق تفسير الآية (١٥٩) من سورة آل عمران

(٣) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ج ٣ ص ١٥

وأما لفظ (وَكَيْلٌ) فقد ورد بمعنى حفيظ أو المفوض إليه الأمر (١) أو الكافي (٢) فقد ورد بهذا المعنى في سورة آل عمران آية (١٧٣) قال تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

وورد بنفس المعنى في سورة الأنعام في الآيات (٦٦ ، ١٠٢ ، ١٠٧) وفي سورة يونس آية (١٠٨) وفي سورة هود آية (١٢) وفي سورة الزمر في الآيتين (٤١ ، ٦٢) وفي سورة الشورى آية (٦) وورد بمعنى شهيد ورقيب (٣) في سورة يوسف آية (٦٦) وفي سورة القصص آية (٢٨) .

وورد لفظ (وَكَيْلًا) بمعنى حافظاً (٤) فقد جاء بهذا المعنى في سورة النساء آية (١٣٢) قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا ﴾

وكذلك ورد بنفس المعنى في الآية (١٠٩) والآية (١٧١) من نفس السورة وورد كذلك في سورة الإسراء في الآيات (٢ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٨٦) وفي سورة الفرقان آية (٤٣) وفي سورة الأحزاب في الآيتين (٣، ٤٨) وورد بمعنى كافياً وناصرًا ومعيناً (٥) في سورة النساء آية (٨١) وورد بمعنى يحفظكم (٦) في سورة الإسراء آية (٦٨) .

(١) تفسير الجلالين تفسير الآية ١٧٣ من سورة آل عمران (٢) الرسالة التكميلية لشيخ الإسلام ص ١٢٦

(٤) المرجع السابق ج ٦ ص ١٣٠

(٣) صفوة التفسير ج ٦ ص ٢٥

(٦) المرجع السابق ج ٧ ص ٦٧

(٥) المرجع السابق ج ٦ ص ١١٣

وورد في سورة المزمل آية (٩) بمعنى اعتمد وفوض (١)

وقد ورد لفظ (الْمُتَوَكِّلُونَ) بمعنى اعتمد في سورة يوسف آية (٦٧)
قال تعالى ﴿ إِن الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾
وورد أيضاً بنفس المعنى في سورة ابراهيم آية (١٢) وفي سورة الزمر
آية (٣٨)

ولفظ (الْمُتَوَكِّلِينَ) ورد في سورة آل عمران بمعنى اعتمد (٢) في الآية
(١٥٩) قال تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

وبعد بيان ما أوردته من مشتقات (وكل) وبيان معنى كل مشتق من
مشتقاته ، نجد أن جميع معاني التوكل في القرآن الكريم ، موافقة لمعانيه
في اللغة ، كاعتمد ، وفوض ، واستسلم ، وحفظ ، وشهد ، ونصر ، وكفى
، وكفل ، وإذا استقصينا المقصود من كل لفظ في كل آية وجدنا أنه يوافق
المعنى الاصطلاحي من صدق اعتماد القلب ، ومن الثقة بالله والاعتماد
عليه والطمأنينه ، إلى آخر المعاني الاصطلاحية للتوكل ونجد كذلك أن
جميع الاشتقاقات تدور حول معنى واحد وهو الاعتماد والتفويض ، ولانجد
في القرآن الكريم معنى للتوكل يدعو إلى ترك الأسباب بالكلية أو الاعراض
المطلق عنها •

(٢) المرجع السابق ج ٦ ص ٦١

(١) صفوة التفاسير ج ١٩ ص ٥٨

المبحث الثاني : التوكل في السنة الشريفة .

السنة لغة : هي الطريقة أو القدوة كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها) (١)

والسنة اصطلاحاً : هي كل ما صدر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - غير القرآن من قول أو فعل أو نظرية مما يصلح لأن يكون دليلاً لحكم شرعي (٢) أو ما روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قول أو فعل أو تقرير أو وصف (٣) وبجانب القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل العزيز الحكيم ، والمصدر الأول في التشريع الإسلامي جاءت السنة النبوية الشريفة ، مصدراً ثانياً للتشريع ، فهي تكشف غامض القرآن ، وتفسر مبهمه ، وتقيد مطلقه ، وتخصص عامه ، وتفصل أغراضه ، وتؤسس أحكاماً جديدة سكت عنها القرآن الكريم (٤)

(١) رواية مسلم في الصحيح كتاب العلم حديث رقم ١٣٥٧

(٢) كتاب تدوين السنة إبراهيم فوزي رياض الريس للكتب والنشر ط ١٩٩٤ ص ٢٩

وانظر هذا التعريف في كتاب علوم الحديث د / صبحي الصالح وكتاب المدخل لدراسة الفقه الإسلامي د / عبد الرحمن الصابري

وكتاب السنة قبل التدوين للخطيب دار الفكر الطبعة الخامسة ص ١٦

(٣) انظر مذكرة أصول الفقه للشيخ محمد الأمين الشنقيطي دار القلم بيروت ص ٩٥

(٤) من بيان السنة لما أجمل في القرآن عدد الركعات وفرائض الصلوات وكيفية أوقاتها ومن بيان تقيد مطلق القرآن بتقيد الرقبة

الواردة في كفارة اليمين بالرقبة المؤمنة ، ومن بيانها لعام القرآن أي تخصيصه ببيان أن السارق والسارقة الوارد في قوله تعالى

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ الاتعام آية ٣٨ بأنه من سرق نصاباً قدره عشرة

درهم فأكثر وتأسيس حكماً جديداً كتحريم الجمع في الزواج بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها .

فالسنة النبوية المطهرة جاءت موضحة لما أجمل في الكتاب العزيز من أحكام ، مفصلة لما غمض فيه ، مبرزة الصور والكيفيات بالإيضاح والبيان ، وقد يكون ذلك الإيضاح بالقول أو الفعل أو التقرير ونحو ذلك .

ولذلك جاء أمر الله صريحاً بوجوب الرجوع إلى كتابه العزيز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم واعتبرهما المصدرين الأساسيين لكل تشريعات الإسلام وتعاليمه ، ووجوب الالتزام بهما ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (١) وقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ (٢) فطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - واتباع سنته واجب على كل من يعتقد دين الإسلام .

ولما كان التوكل من الأمور الهامة في الإسلام فقد حظي بنصيب وافر من العناية والاهتمام في السنة الشريفة ، وقد ورد التوكل في السنة النبوية بعدة ألفاظ منها : توكل ، المتوكل ، المتوكلون ، نتكل ، توكلتم ، توكلت ، يتوكلون ، يتكلموا ، وكل ، وكيل .

وألفاظ التوكل في السنة كل منها يدل على معنى يرمي إليه في المقام الموجود فيه .

وقد ذكر التوكل في عدة أحاديث منها الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف . ومثل سائر جوانب العقيدة الإسلامية نال التوكل في السنة النبوية المطهرة اهتمام بعض العلماء فأوردوا بعض الأحاديث المتعلقة به .

فقد ذكر الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين " : (١) مجموعة من الأحاديث منها الصحيح ، ومنها الحسن ، ومنها ما هو ضعيف ، بدأه بقول : وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن سعد (أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتي كثرتهم وهياتهم ، فقيل لي : أرضيت ؟ قلت : نعم ، قيل ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يا رسول الله ؟ ، قال : (الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ٠٠٠) (٢) إلخ الحديث وقال صلى الله عليه وسلم : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً) (٣) ثم ذكر بعض الأحاديث منها ما هو بإسناد حسن ومنها ما هو بإسناد ضعيف وذكر بعض الآثار والروايات في هذا الخصوص .

وكذلك ذكر الإمام ابن القيم عدة أحاديث أخذها من الصحيحين ومن

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ج ٤ ص ٢٦٠ .

(٢) متفق عليه من حديث أبو هريرة - رضي الله عنه (صحيح البخاري باب يدخل الجنة سبعون ألف بغير

حساب حديث رقم ٦٥٤٢ صحيح مسلم باب بدء الوحي حديث رقم ١١٣)

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ٥٢ والترمذي والحاكم عن عمر رضي الله عنه فيض القدير حديث

الترمذي ومن السنن أيضاً (١) وكذلك جمع الحافظ ابن أبي الدنيا (٢) كتاباً كاملاً عن التوكل بدأه بحديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ..) ثم ذكر بعض الأحاديث منها ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : (اللهم بك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون) (٣) إلا أن منهجه في إيراد الأحاديث كان شبيهاً بمنهج الغزالي فهو يورد بعض الأحاديث الضعيفة (٤) وفيما يلي بعض الأحاديث التي يدل كل منها على معنى من معاني التوكل لغة واصطلاحاً ، والتي ذكر فيها " التوكل " بأحد مشتقاته :

(١) انظر مدارج السالكين : ٢ / ١١ وما بعدها

(٢) هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن شعبان بن قيس المعروف بابن أبي الدنيا الحافظ المصنف من موالي بني أمية ولد سنة ثمان وستين هجرية كان يودب غير واحد من أبناء الخلفاء ألف كثيراً من المصنفات (البداية والنهاية ٦ / ٧٦ سير أعلام النبلاء ١٣ / ١٣٩٧)

(٣) كتاب التوكل على الله ص ١٨ والحديث رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والعماء حديث رقم ٦٧ باختلاف يسير في اللفاظ

(٤) انظر كتاب التوكل على الله لابن أبي الدنيا ص ١٩ مكتبة القرآن تحقيق مجدي السيد ابراهيم

روى الإمام أحمد (١) والبخاري (٢) عن سهل بن سعد (٣) قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من توكل لي ما بين رجله وما بين لحييه توكلت له بالجنة) .

قال الحافظ بن حجر (*) : قوله " من توكل لي " أي تكفل وأصل التوكل الاعتماد (٤) . وهذا معنى من المعاني اللغوية للتوكل .

وروى البخاري عن عطاء بن يسار (٥) قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قلت : أخبرني عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في التوراة . قال : أجل والله أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٥ / ٣٢٣

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الحدود باب فضل من ترك الفواحش : ١٢ / ١١٣ . انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري كتاب الحدود بدر الدين العيني : ١٢ / ٢٨٧ الحدود . الجامع الصحيح حديث رقم ٦٨٠٧

(٣) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمر بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الساعدي . شهد قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في المتلاعنين ، وأنه فرق بينهما كان اسمه (حزنا) فسماه رسول الله (سهلاً) عاش سهل وطلب عمره حتى أترك الحجاج بن يوسف وتوفي سنة ٨٨ وقيل أنه أخر من بقي من الصحابة رضي الله عنهم بالمدينة . انظر أسد الغابة : ٢ / ٤٧٢

(*) هو الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر السعدي ولد سنة ٧٧٣ وتوفي سنة ٨٥٢ هـ

(٤) انظر فتح الباري ج ١٢ ص ١١٥

(٥) هو أبو محمد المدني مولى أم المؤمنين ميمونة ، الفقيه الواعظ ، روي عن زيد بن ثابت وأبي أيوب وعائشة وآخرون . وكان ثقة جليلاً من أوعية العلم يقال مات سنة ثلاثة ومائة وقيل توفي سنة بضع وتسعين انظر تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي أبو عبد الله شمس الدين : ١ / ٩٠ ، ٩١ ، دار احياء التراث العربي .

﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ (١) وحرزاً للأمينين ، أنت عبدي ورسولي سميتك " المتوكل " ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ... الخ الحديث (٢) .
أي المتوكل على الله لقناعتته باليسير والصبر على ما كان يكره (٣) ولاعتماده على الله وحده .

وروى الامام البخاري عن " ابن عباس رضي الله عنهما " (٤) قال :
كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا
قدموا مكة سألوا الناس (٥) فأنزل الله تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد
التقوى ﴾ (٦) أي معتمدون على الله وواثقون به في تأمين أرزاقنا .

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤٥

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب البيوع ، باب كراهية السخب من الأسواق : ٤ / ٤٠٢ وكتاب التفسير / تفسير سورة الفتح ، ونظر أيضاً عمدة القاري شرح صحيح البخاري : ١١ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ باب كراهية السخب في الأسواق .

(٣) فتح الباري ج ٨ ص ٤٥٠

(٤) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، أبو عباس الهاشمي ، الإمام البحر عالم العصر ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا النبي - صلى الله عليه وسلم - الله له أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل ، توفي بالطائف في سنة ثمان وستين وقد ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقيل غير ذلك . انظر أسد الغابة لابن الأثير : ١٨٦/٣ - ١٩٠ ، والاصابة لابن حجر : ٢ / ٣٣٤، ٣٣٠ وطبقات الحفاظ ، ص ١٠ .

(٥) رواية البخاري في صحيحه كتاب الحج حديث رقم ١٥٢٣

(٦) سورة البقرة ، آية (١٩٧)

عن علي - رضي الله عنه - (١) قال : كنا جلوساً مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعه عود ينكت به في الأرض فنكس (*) ، وقال : (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة) فقام : رجل من القوم : ألا نتكل " يا رسول الله ؟ قال : (لا ، اعملوا فكل ميسر) ، ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ (٢) .

وقول الرجل ألا نتكل ؛ أي ألا نعتمد على أقدارنا المكتوبة .
وفي لفظ آخر عن علي رضي الله عنه : " أفلا نمكث على كتابنا " أي أفلا نعتمد على المقدر لنا في الأزل وندع العمل " (٣) وعن " أنس بن مالك " (٤) رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إذا خرج من بيته فقال بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله) قال : (يقال حينئذ هديت وكفيت ، ووقيت ، فتتحى له الشياطين ، فيقول له شيطان آخر ، كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي) (٥)

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٦٦٠٥ ومسلم كتاب القدر حديث رقم ٦ واللفظ للبخاري

(٥) بتشديد الكاف أي أطرق

(٢) سورة الليل ، آية (٥)

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب القدر حديث رقم ٦ وعون المعبود شرح سنن أبي داود ، " باب القدر " : ١٢ /

٤٥٨ ، وانظر ابن ماجه : ١ / مقدمه .

(٤) هو أنس بن مالك بن النضر أبو حمزة الأنصاري المدني ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله صحبه طويـلة وحديث كثير ، مات في سنة ثلاث وتسعين (له ترجمة في أسد الغابة والأصابة انظر طبقات الحفاظ للسيوطي ، ص ١١)

(٥) سنن أبي داود كتاب الأئـب حديث رقم ٥٠٩٥ (اللفظ له) ، وأخرجه الترمذي في أبواب الدعوات ، حديث

: ٣٤٢٢ بلب ما يقول إذا خرج من بيته .

وقد ورد في هذا الحديث معنى من معاني التوكل ، وهو الكفاية ، أي كافينا الله ونعم الكافي "

عن أبي مالك الأشعري (١) قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إذا ولج الرجل - في - بيته فليقل : اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج ، بسم الله ولجنا ، وبسم الله خرجنا ، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليسلم على أهله) (٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعاذ رديفه على الرحل قال : (يا " معاذ بن جبل ") (٣) : قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : (يا معاذ) قال : لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثاً) ، قال : (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار) ، قال : يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا . قال : (إذا يتكلموا) ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً " (٤) فورد لفظ التوكل في هذا النص أيضاً بمعنى اعتمد .

(١) قدم في السفينة مع الأشعريين على النبي صلى الله عليه وسلم ، له صحبة اختلف في اسمه ف قيل كعب بن مالك ، وقيل كعب بن عاصم ، وقيل عبيد ، وقيل عمر ، وقيل الحارث ، يعد من الشاميين . انظر أ سد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري : ٦ / ٢٧٢ ، ط (الشعب) .

(٢) سنن أبي داود كتاب الأكل : حديث رقم ٥٠٩٦

(٣) أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي شهد العقبة وهو ابن ثمان عشرة سنة أو دونها ، وشهد بدرأ والمشاهد ، وكان من نجباء الصحابة وفقهائهم ، تحدث عنه أنس بن مالك ، وأبو مسلم الخولاني وطائفة ، استشهد معاذ في الطاعون بالأردن في سنة ١٨ هـ وله ٣٥ سنة تقريباً انظر طبقات الحفاظ ، ص ٦

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ١ / ١٩٩ - ٢٠٠ وأخرجه البخاري أيضاً في كتاب العلم حديث ١٢٨ .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (إن الله وكل في الرحم ملكاً فيقول : " يا رب نطفة ، يا رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يخلقها ، قال : يا رب ذكر أم أنثى ؟ ، يا رب أشقي أم سعيد ؟) (١) ووكل بالرحم هنا : معناه كفل بالرحم ملكاً . وهذا معنى من معاني التوكل في اللغة .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ، عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ... (٢) وبينما صبي يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة... ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون : زينب سرقت وهي تقول " حسبي الله ونعم الوكيل ...) (٣) وورد لفظ الوكيل في الحديث بمعنى " شهيد " .

وروي عن ابن عباس قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (٤) فلفظ وكيل فيما روى عن ابن عباس ورد بمعنى حفيظ .

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم حديث رقم ٣٣٣٣

(٢) رجل عابد يتعبد في صومعه .

(٣) صحيح البخاري كتاب الأنبياء حديث رقم ٣٤٦٦ وصحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب حديث رقم ٨ واللفظ له .

(٤) صحيح البخاري : حديث رقم ٤٥٦٣ في تفسير آل عمران باب قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ آية ١٧٣ آل عمران

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (إن الله وكل في الرحم ملكاً فيقول : " يا رب نطفة ، يا رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يخلقها ، قال : يا رب ذكر أم أنثى ؟ ، يا رب أشقي أم سعيد ؟) (١) ووكل بالرحم هنا : معناه كفل بالرحم ملكاً. وهذا معنى من معاني التوكل في اللغة .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ، عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ... (٢) وبينما صبي يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة... ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون : زينب سرقت وهي تقول " حسبي الله ونعم الوكيل ...) (٣) وورد لفظ الوكيل في الحديث بمعنى " شهيد " . وروي عن ابن عباس قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (٤) فلفظ وكيل فيما روى عن ابن عباس ورد بمعنى حفيظ .

(١) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم حديث رقم ٣٢٣٣

(٢) رجل عابد يتعبد في صومعه .

(٣) صحيح البخاري كتاب الأنبياء حديث رقم ٣٤٦٦ وصحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب حديث رقم ٨ واللفظ له .

(٤) صحيح البخاري : حديث رقم ٤٥٦٣ في تفسير آل عمران باب قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ آية ١٧٣ آل عمران .

فيظهر من ذلك أن الاشتقاق الواحد لكلمة (وكل) يأتي بأكثر من معنى .
ونلاحظ أن المعاني التي ورد بها لفظ " وكل " ومشتقاته في
الأحاديث النبوية الشريفة ، بعضها مقابل لمعنى من معانيه في اللغة ،
وبعضها يوافق أحد المعاني الاصطلاحية وكل هذه المعاني تدور حول
معنى واحد وهو الاعتماد والاستسلام لله . و ما سبق ليس حصراً لكل ما
ورد في السنة من أحاديث تتناول التوكل وإنما لبيان المراد من لفظ التوكل
وأكتفي بذلك لأنني أعتقد أنه أوفى بالغرض ولأن تتبع المسألة في السنة
النبوية الشريفة يحتاج إلى وقت وجهد كبيرين لست مالكاً لهما وليس في
مقدوري فعل ذلك في هذا الموضع لما أسلفت والله المستعان .

الفصل الثالث

علاقة التوكل بالقضاء والقدر والأخذ بالأسباب
ويتضمن بحثين :

الأول : علاقة التوكل بالقضاء والقـ_____در .

الثاني : علاقة التوكل بالأخذ بالأسـ_____باب .

القضاء في اللغة :

لقد ورد القضاء في اللغة بعدة معان منها : الفصل في الحكم ، وبلوغ المراد ونواله وإحكامه ، والأداء والإنهاء ، والدلالة على الأمر ، وبمعنى الفراغ من الشيء ونفاذه ، وبمعنى مات ومضى ، ويأتي بمعنى الصنع والخلق .

وفي معنى الفصل في الحكم قيل : قضيت بين الخصمين وعليهما (١) أي حكمت .

ويأتي القضاء بمعنى الحكم والجمع الأكضية . والقضية مثله والجمع القضايا . وقضى يقضي - بالكسر - (قضاءً) أي حكم (٢) ومنه قوله تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ (٣)

وجاء القضاء بمعنى بلوغ المراد ونواله ، كما يقال : قضيت الحاجة قال تعالى ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ (٤)

وورد بمعنى الأداء والإنهاء كما تقول : قضى دينه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴾ (٥)

وفي الدلالة على الأمر كما يقال : اقتضى الأمر الوجوب أي دل عليه (٦)

(١) المصباح المنير فسي غريب الشرح الكبير تأليف العالم العلامة أحمد بن محمد علي المقرئ الفيومي

٢ / ١٦٦ . وانظر مقاييس اللغة : مادة (قضى)

(٢) مختار الصحاح للرازي مادة : (قضى) (٣) الإسراء : آية : ٢٣ (٤) الحجر آية : ٦٥

(٥) الإسراء : آية ٤ (٦) لسان العرب لابن منظور (باب الياء فصل القاف)

أما معنى الفراغ من الشيء : فكما قيل : قضيت واجبي ، وضربه فقضى عليه أي فرغ منه (١) ويقال : قضى فلان أي مات ومضى . وقوله : ﴿ ثم اقضوا إليّ ﴾ (٢) يعنى امضوا إليّ واقضوا إليّ ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا تمهلون ومنه قضى الميت - أي - مضى (٣) ويكون بمعنى الصنع والتقدير فيقال : قضاه أي صنعه وقدره ومنه قوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ٥٠٠ ﴾ الآية (٤) ومنه القضاء المقرون بالقدر وهما أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو (القدر) والآخر بمنزلة البناء وهو (القضاء) فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء (٥)

فالقضاء إذن له عدة وجوه في اللغة وهي ماسبقت الإشارة إليه ، ومنه القضاء المقرون بالقدر ، والمراد بالقدر التقدير وبالقضاء الخلق . القضاء في الاصطلاح : هو شمول وقدم علم الله تعالى بما ينبغي أن يكون عليه الوجود وبما سيكون ، أو هو الأمر الكوني النافذ ، والقدر الحتمي الذي لا مرد له (٦) . ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿ ٥٠٠ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ الآية (٧) أي إذا قدر أمراً وأراد ، فإنه لا بد أن ينفذ بمجرد قوله جل وعلا " كن " (٨)

(١) مقاييس اللغة مادة قضى (٦) مشيئة الله ومشيتة العباد تأليف عبد الكريم الخطيب بدون طبعه ص ٨٨

(٢) سورة يونس آية : ٧١ (٧) سورة البقرة آية ١١٧

(٣) انظر فتح القدير ج ٢ ص ٤٦٢ ومختصر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٢٨

(٤) سورة فصلت جزء من آية : ١٢ (٨) القضاء والقدر في الإسلام د: فاروق الدسوقي بدون طبعة : ٣٤٩/١

(٥) انظر تاج العروس ١٠ / ٣٩٦

من معاني القضاء في القرآن :

ورد لفظ القضاء بأكثر من معنى في القرآن ، و منه ما هو موافق لمعناه اللغوي :

- ١ - ورد بمعنى الحكم والقضاء بين المتخاصمين والمتنازعين (١)، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (٢)
- ٢ - ورد بمعنى الأمر التشريعي التكليفي مثل قوله تعالى ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ (٣) أي أمر بذلك (٤)
- ٣ - وجاء بمعنى الإخبار والإعلام مثل قوله تبارك تعالى : ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ (٥) أي أعلمنا وأوحينا وحياً جازماً ، ويكون أيضاً بمعنى الفصل والحكم (٦)
- ٤ - وأتى بمعنى أنهى وأتم وأنجز . مثل قوله تبارك وتعالى ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ (٧)

(١) مختصر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٠٩

(٢) سورة النساء آية ٦٥

(٣) سورة الإسراء آية ٢٣

(٤) المفردات في غريب القرآن ص ٤٠٦

(٥) سورة الحجر آية ٦٦

(٦) المفردات في غريب القرآن ص ٤٠٦

(٧) سورة الأنفال آية ٤٢

من معاني القضاء في القرآن :

ورد لفظ القضاء بأكثر من معنى في القرآن ، و منه ما هو موافق لمعناه اللغوي :

- ١ - ورد بمعنى الحكم والقضاء بين المتخاصمين والمتنازعين (١)، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (٢)
- ٢ - ورد بمعنى الأمر التشريعي التكليفي مثل قوله تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ (٣) أي أمر بذلك (٤)
- ٣ - وجاء بمعنى الإخبار والإعلام مثل قوله تبارك تعالى : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ (٥) أي أعلمنا وأوحينا وحياً جازماً ، ويكون أيضاً بمعنى الفصل والحكم (٦)
- ٤ - وأتى بمعنى أنهى وأتم وأنجز . مثل قوله تبارك وتعالى ﴿ ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ (٧)

(١) مختصر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٠٩

(٢) سورة النساء آية ٦٥

(٣) سورة الإسراء آية ٢٣

(٤) المفردات في غريب القرآن ص ٤٠٦

(٥) سورة الحجر آية ٦٦

(٦) المفردات في غريب القرآن ص ٤٠٦

(٧) سورة الأنفال آية ٤٢

٥ - وورد بمعنى حدد كما في قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ (١) أي قدر وحدد زمناً ، فالأول قيل أنه أجل الحياة والثاني أجل البعث (٢) فهو قضاء حتمي ، وما يفيد الحتم في هذا المفهوم للقضاء فقوله تعالى : ﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ (٣) أي قدر مقدوراً ، وخلق مراداً له سبحانه وتعالى ، وفعلاً نافذاً لا مرد له (٤)

٦ - ويأتي بمعنى العهد (٥) كقوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ (٦) فالأمر والخلق ، والحكم والفصل ، والإرادة والعهد ، والتقدير والتحديد كلها تدل على حسم الأمر وإنجازه قولاً وفعلاً .

(١) سورة الأنعام آية ٢

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٤٠٦

(٣) سورة مريم آية ٢١

(٤) القضاء والقدر في الإسلام ١ : ٣٤٨ ، ٣٤٩

(٥) فتح القدير ج ٤ ص ٧٧٥

(٦) سورة القصص آية ٤٤

القدر في اللغة :

مبلغ كل شيء يقال : قدره كذا ، أي مبلغه وكذلك القدر ، وقدرت الشيء أقدره ، وأقدره من التقدير ، وقدرته أقدره ، والقدر : قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهايتها التي أرادها لها (١)

والقَدْر و (القَدْر) ما يقدره الله من القضاء (٢) ويقال : مالى عليه مقدرة - بكسر الدال وفتحها - أي (قُدرة) . ومنه قولهم (المقدرة تُذهبُ الحفيظة) .
ورجل ذو مقدرة بالضم أي ذو يسار .

(وقَدَر) الشيء أي قَدَرَه من التقدير وبابه ضرب ونصر وفي الحديث (إذا غم عليكم الهلال فاقدروا له) (٣) أي أتموا ثلاثين .

وقدر الرزق يقدره قسمه ، وقدر القوم أمرهم يقدرونه قدراً - دبروه - قيل : بمعنى على الموسع قدره ، أي طاقته ، وقدرت الشيء هياؤه ، وقدر كل شيء ومقداره مبلغه ، وقوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ (٤) أي ما عظموا الله حق تعظيمه (٥)

والمقدار اسم القدر ، إذا بلغ العبد المقدار مات (٦)
وقَدَر على عياله مثل قنر ومنه قوله تعالى ﴿ ومن قَدَرَ عليه رزقه ﴾ (٧)
ويقال (استقدر) الله خيراً و (تقدر) له الشيء أي تهياً و (الاقتدار) على الشيء القدرة عليه (٨) و (قَدَرَت) عليه الثوب فانقدر أي جاء على المقدار .

(١) مقاييس اللغة مادة (قدر) ولسان العرب باب الراء فصل القاف (٥) لسان العرب باب الراء فصل القاف

(٦) لسان العرب باب الراء فصل القاف

(٢) مختار الصحاح باب القاف

(٧) سورة الطلاق آية ٦

(٣) فتح الباري ج٤ ص ١٤٣

(٨) مختار الصحاح باب القاف

(٤) سورة الزمر آية ٦٦

القدر في الإصطلاح :

ماسبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد وأنه عز وجل قدر مقادير الخلق ، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل ، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى ، وعلى صفات مخصوصة فهي تقع حسب ما قدر لها (١) وقال ابن حجر في تعريفه : " المراد أن الله - تعالى - علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد ماسبق في علمه أنه يوجد ، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته " (٢)

معنى القدر في القرآن الكريم :

هو تقدير كل شيء تقديراً مسبقاً على خلقه وحدوثه ، أي تحديده ، ماهية ، وخاصة ، وصفة ، كمّاً وكيفاً ، زماناً ومكاناً كذلك .

فدليل تقدير الخلق قوله تعالى : ﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ (٣)

ودليل تقدير الكم والكيف للمخلوق قوله : ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ (٤)

ودليل تقدير الماهية والخاصية قوله : ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (٥)

ودليل تقدير المخلوقات زماناً وأجلاً قوله تعالى : ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (٦)

(١) نواع الأنوار البهية للسفاري طبعه قطر ج ١ ص ٣٤٨ وانظر شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام

أحمد بن تيمية شرح د : صالح الفوزان الطبعة الخامسة الرياض ص ١٦٢ وشرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن

أبي العز الحنفي تحقيق جماعة من العلماء طبعة المكتب الإسلامي ص ١٣٦

(٢) فتح الباري ١ / ١١٨ (٣) سورة الفرقان آية : ٢ (٤) سورة الرعد آية ٨

(٥) سورة القمر آية : ٤٩ (٦) سورة الأعراف آية : ٣٤

والقضاء والقدر أصل من أصول الإيمان التي يجب على المسلم الإقرار والتصديق بها حتى يصح إيمانه ، وقد أجمع سلف الأمة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومره ، والاعتقاد الجازم أنه لا يكون شيء إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى وقضائه وقدره ولا يجرى في ملكه شيء إلا بمشيئته خلق من شاء للسعادة والفلاح واستعمله بها فضلاً ، وخلق من أراد للشقاء واستعمله به عدلاً (١) فالقدر سر من أسرار الله استأثر به ، وحجبه عن سواه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ، أو من الجنة فقام رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟ قال لا ، اعملوا فكل ميسرثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ (٢)

وهذا الحديث يبين أن قضاء الله وقدره سابق على كل شيء وشامل لكل شيء ، وما يصيب المرء لم يكن ليخطأه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . قال تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ (٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً فقال : (يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ،

(١) عقيدة الحافظ تقي الدين بن عبد الواحد المقدسي - مطابع الفرزدق الرياض ط ١٤١١ ص ٧٧

(٢) رواه البخاري عن علي رضي الله عنه في الصحيح كتاب القدر حديث رقم ٦٦٠٥ والآية هي الآية رقم

٥ من سورة الليل

(٣) سورة الحديد آية ٢٢

والقضاء والقدر أصل من أصول الإيمان التي يجب على المسلم الإقرار والتصديق بها حتى يصح إيمانه ، وقد أجمع سلف الأمة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومره ، والاعتقاد الجازم أنه لا يكون شيء إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى وقضائه وقدره ولا يجري في ملكه شيء إلا بمشيئته خلق من شاء للسعادة والفلاح واستعمله بها فضلاً ، وخلق من أراد للشقاء واستعمله به عدلاً (١) فالقدر سر من أسرار الله استأثر به ، وحجبه عن سواه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ، أو من الجنة فقام رجل من القوم : أأنتكل يا رسول الله ؟ قال لا ، اعملوا فكل ميسرثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ (٢)

وهذا الحديث يبين أن قضاء الله وقدره سابق على كل شيء وشامل لكل شيء ، وما يصيب المرء لم يكن ليخطأه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . قال تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ (٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوماً فقال : (يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ،

(١) عقيدة الحافظ نقي الدين بن عبد الواحد المقدسي - مطابع الفرزق الرياض ط ١٤١١ ص ٧٧

(٢) رواه البخاري عن علي رضي الله عنه في الصحيح كتاب القدر حديث رقم ٦٦٠٥ والآية هي الآية رقم

٥ من سورة الليل

(٣) سورة الحديد آية ٢٢

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف (١) وإيمان المؤمن بالقضاء والقدر لا يقعه عن العمل والسعي وراء طلب الرزق .

قال تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ (٣) فهذه الآيات أمر من الله بالسعي والعمل طلباً للرزق فمن سعى واستجاب لأمر الله أطمأن قلبه ورضى بحكم الله تعالى لأنه حق وعدل وهذا على النقيض ممن أساءوا فهم هذه العقيدة على حقيقتها كما أراد الله فأنزلقوا في مآهات خطيرة وخرجوا بأقوالهم عن ملة الإسلام وأصبحوا يحتجون بالقضاء والقدر على كل ما يرتكبونه من المعاصي والآثام ، وهذا الفهم الخاطيء لتلك العقيدة العظيمة جعلها تتحول بالنسبة لهم من نعمة عظيمة إلى نقمة كبيرة .

(١) حديث حسن صحيح رواه الترمذي في السنن أبواب صفة القيامة حديث رقم ٢٥١٨ وانظر العقيدة

الطحاوية ص ٢٦٦ وكتاب السنة لابن أبي عاصم الشيباني حديث رقم ٣١٦

(٢) سورة الملك آية ١٥

(٣) سورة الجمعة آية ١٠

وقد حدث التطور البارز في قضية القضاء والقدر وأخذت أبعاداً جديدة في زمن المتأخرين من الصحابة فكان خلاف القدرية في القدر والاستطاعة من معبد الجهني (١) وغيلان الدمشقي (٢) والجعد بن درهم (٣)، وتبرأ منهم الصحابة (٤) المعاصرون لهم وأوصوا أخلافهم بأن لا يسلموا على القدرية ، ولا يصلوا على جنائزهم ولا يعودوا مرضاهم لشناعة جرمهم ولمخالفتهم لقول الله سبحانه ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع جمعاً من الصحابة يتباحثون في القدر فخرج مغاضباً قد أحمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : (مهلاً يا قوم ! بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً ؛ بل يصدق بعضه بعضاً فما عرفتم فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه) (٥) وقوله عليه السلام لمن اختصموا في القدر من الصحابة بعد أن غضب غضباً شديداً (بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض ؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم) (٥) وفيما يلي بيان هذه القضية :

-
- (١) معبد بن خالد الجهني القدري ويقال إنه ابن عبد الله بن عكم ويقال اسم جده عويمر أول من أظهر القدر بالبصرة قن سنة ثمانين هجرية (تقريب التهذيب للحافظ بن حجر طبعة دار العاصمة الترجمة رقم ٦٨٢٥)
- (٢) هو أبو مروان غيلان بن مسلم أخذ القول في القدر عن معبد بن خالد الجهني وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز جاء به واستتابه ، ثم قتله هشام بن عبد الملك بن مروان (انظر الملل والنحل ص ٤٧)
- (٣) انظر ترجمة ص ١٩٢
- (٤) منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى وعقبة بن عامر الجهني (انظر الفرق بين الفرق للبغداد ص ١٩)
- (٥) صحيح أخرجه البخاري في شرح السنة طبعة المكتب الإسلامي برقم (١٢١)
- (٥) صحيح رواه ابن ماجه في السنن - المقدمة - باب في القدر حديث رقم ٨٥

حكم الإيمان بالقضاء والقدر :-

الإيمان بالقضاء والقدر واجب على كل مسلم ، لأنه ركن من أركان الإيمان الستة ، وأصل من أصول أهل السنة والجماعة فوجب على كل مسلم مكلف عاقل بالغ الإيمان بالله ، وبملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره .

ويتضمن الإيمان بالقدر الإقرار والتصديق أن الله سبحانه وتعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل وجودها ، ثم كتبها في اللوح المحفوظ ، ثم أوجدها بقدرته ومشينته في مواعيدها المقدره . فكل محدث من خير أو شر صادر عن علمه وتقديره ومشينته وإرادته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (١) ودليل ذلك حديث جبرائيل عليه السلام وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، فقال (٠٠٠ أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ٠٠٠) (٢) فهذه الأصول التي اتفقت عليها الانبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل عليهم السلام . ومن لم يتبع الرسل عليهم السلام ولم يقف عند حدود ما أبانوا وأوضحوا فقد ضل سواء السبيل وانحرف عن الصراط المستقيم نسأل الله لهم الهداية والتفقه في الدين

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية تأليف د / صالح فوزان الفوزان طه الرياض

المملكة العربية السعودية ١٤١١ ص ١٢

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . البخاري في الصحيح كتاب الإيمان حديث رقم ٥٠

ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان حديث رقم ٨ والنلفظ له .

مراتب القضاء والقدر :

يتضمن الإيمان بالقضاء والقدر أربع مراتب (١) حددها علماء الأمة واستنبطوها من الأدلة الشرعية وهي كما يلي :-

المرتبة الأولى : الإيمان بعلم الله الأزلي بكل شيء قبل وجوده ، ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها ، وعلمه الشامل للكلية والجزئيات وإحاطة علمه بكل شيء أزلاً وأبداً ومن ذلك علمه بأعمال الخلق من الطاعات والمعاصي وعلمه بأحوالهم من الأرزاق والآجال وغيرها .

ودليل هذه المرتبة قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ (٣)

(١) انظر في ذلك شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قتيبة الجوزية دار التراث القاهرة ص ٣٦ وشرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز حققها جماعة من العلماء خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي ط ٩ ص ٢٧٢ وشرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية تأليف الدكتور - صالح فوزان الفوزان ط ٥ الرياض ١٤١١ ص ١٦٤ والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد د / صالح فوزان الفوزان الرياض ١٤١٢ ج ٢ ص ٢٧١

(٢) سورة الحج آية ٧٠

(٣) سورة الحديد آية ٢٢

المرتبة الثانية : مرتبة الكتابة وهي أن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق كلها فما يحدث من شيء في هذا الكون إلا وقد علمه الله علماً مفصلاً ومجماً وكتبه قبل حدوثه وقبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. ودليله حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه

عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) (١)

(١) صحيح مسلم ورواه أحمد في مسنده والترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال حديث صحيح (فيض القدير حديث رقم ٦١٠٥)

المرتبة الثالثة : الإيمان بمشيئة الله سبحانه الشاملة والمحيطة بكل حادث وقدرته التامة والمطلقة عليه : فلا يخرج شيء عن مشيئته ولا يحدث حادث من غير إرادته ، وأنه ما في السماوات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا وهو تحت مشيئة الله خاضع لها لا يخرج عنها بأي حال من الأحوال . ودليل هذه المرتبة قوله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (١) وقوله سبحانه: ﴿... إن الله يفعل ما يريد ﴾ الآية (٢)

المرتبة الرابعة : الإيمان بإيجاد الله لكل المخلوقات وأنه الخالق وحده ، وما سواه مخلوق ، فلا يوجد حادث إلا والله له محدث ولا يوجد مخلوق إلا والله له خالق فكل الممكنات خرجت للوجود بإيجاده لها سبحانه

ودليل هذه المرتبة قوله تعالى : ﴿... الله خالق كل شيء... ﴾ الآية (٣) وقوله تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (٤)

هذه هي مراتب القضاء والقدر وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة وسلف هذه الأمة الذين فهموا هذه المسألة فهماً صحيحاً موافقاً لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، فلم يضلوا أو تتحرف بهم السبل عن الصراط المستقيم .

(١) سورة التكوين آية ٢٩

(٢) سورة الحج جزء من الآية ١٤ وتامها ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ﴾

(٣) سورة الرعد جزء من الآية ١٦ وتامها ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذنكم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾

(٤) سورة الصافات آية ٩٦

أنواع القضاء والقدر :-

وكما أن للقضاء والقدر مراتب فله أيضاً أنواع ، فهو يتكون من نوعين رئيسيين ثم يتفرع أحدهما إلى عدة فروع وبيان ذلك فيما يلي :

النوع الأول : تقدير عام شامل لكل كائن وهو المكتوب في اللوح المحفوظ ، فقد كتب الله فيه مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة ، كما جاء في الحديث الشريف عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب ، قال رب وماذا أكتب ؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) (١) وهذا التقدير يعم ويشمل جميع المخلوقات والكائنات من بدء الخلق أزلاً وبقي أبداً .

النوع الثاني : تقدير مفصل للتقدير العام وهو أنواع :

النوع الأول : التقدير العمري ، وهو ما يكتب للجنين ، وهو في بطن أمه من كتابة أجله ، ورزقه ، وعمله ، وشقاوته أو سعادته ، ودليله حديث الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - : (إن أحداكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً يؤمر بأربع كلمات ؛ ويقال له اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه كتابه يعمل بعمل أهل النار ويعمل حتى ما

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في السنن كتاب السنة حديث رقم ٤٧٠٠ وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة

ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة (١)

النوع الثاني : التقدير الحولي وهو ما يقدر من حوادث العام ووقائعه ويكون ذلك في ليلة القدر المباركة ، ودليله ما قاله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ (٢)

النوع الثالث : التقدير اليومي (٣) وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياة وموت ، وعز وذلل ، وفرح وحزن ، وغير ذلك من الحوادث اليومية كما في قوله تعالى: ﴿ يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ﴾ (٤)

وبهذا تنتهي أنواع التقدير وهي شاملة لكل الحوادث والمراحل وفي كل الأحوال والأوقات ، فلا يخرج الكائن من مرحلة إلا ويدخل في الأخرى ، وهكذا تستمر الحال .

(١) متفق عليه (أخرجه البخاري في الصحيح كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة حديث رقم (٣٢٠٨) ومسلم

في الصحيح كتاب القدر حديث رقم (١٣٤٧) واللفظ للبخاري).

(٢) سورة الدخان آية ٤

(٣) انظر الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد / صائح الفوزان ج ٢ ص ٢٧٢

(٤) سورة الرحمن آية ٢٩

من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر :

الثمرة الأولى :

إن من أعظم ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر صحة إيمان الإنسان بتكامل أركانه ؛ لأن الإيمان بذلك من أركان الإيمان الستة .

الثمرة الثانية :

الفوز بالرضا والقبول من الله سبحانه ؛ لأنه امتثل لأمره واجتنب نهيه .

الثمرة الثالثة :

اتباع طريق الحق والصواب المنجي من المهالك والمزالق كما كان عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته - رضي الله عنهم - وسلف هذه الأمة .

الثمرة الرابعة :

طمأنينة القلب وارتياحه ، وعدم القلق في هذه الدنيا عندما يتعرض الإنسان لمشاق الحياة وصعوباتها ؛ لأن عدته قوية وسلاحه حاسم .

الثمرة الخامسة :

الثبات عند مواجهة الأزمات ، ورسوخ اليقين ؛ لأنه يعلم أن هذه الحياة دار ابتلاء واختبار وتقلب مستمر .

الثمرة السادسة :

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر تسليية النفس عندما تتعرض لخسارة جسيمة أو فقد عزيز ؛ لأن الحوادث كلها بقضاء الله وقدره ، وعدله وحكمته .

مذاهب بعض الفرق في القضاء والقدر :

أ - الجبرية الخالصة :

الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ، والجبرية الخالصة هم أتباع الجعد بن درهم (١) والجهم بن صفوان الراسبي (٢) الذي ثار على الدولة الأموية فقتله والي (٣) الأمويين بخرسان ، وقد نفى الجهم بن صفوان القدرة الإنسانية والاستطاعة كلياً ، ففي رأيه أنه ليس للإنسان أي قدرة أو إرادة أو إختيار ؛ بل هو مجبر على أفعاله ، وليس له حرية الفعل أو الترك ، والله يخلق فيه الأفعال كما يخلقها في الحيوان والجماد ونسبها إلى الإنسان على سبيل المجاز كما تنسب إلى الجمادات والنباتات ، فتقول : تغذى النبات وتحرك الحجر ، والثواب والعقاب جبر والتكاليف الشرعية كلها جبر (٤) فالجهم بن صفوان ومن اعتنق مذهبه ينفون أن يكون للعبد فعلاً أو أن تكون له قدرة على الفعل أصلاً ، فهو مجبر على كل شيء فليس له الخيار ألبتة في فعل أو ترك (٥) فهؤلاء يقولون بإلغاء

(١) هو الجعد بن درهم من الموالي مبتدع له أخبار في الزنقة سكن الجزيرة الفراتية وأخذ عنه مروان بن محمد قتل في العراق يوم النحر قتله أمير العراق خالد القسري سنة ١٢٤هـ لزندقته وإحاده وهو أول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل الله عن صفاته (انظر الأعلام للزركلي ج ١٠ ص ٢٢٤ والملل والنحل ص ٨٦)
 (٢) هو الجهم بن صفوان السمرقندي الراسبي جبري خالص ظهرت بدعته في ترمذ فقتله أسلم بن أوزر وأوخر ملك بني أمية وإليه تنسب فرق الجهمية (انظر مقالات الإسلاميين للأشعري ج ١ ص ٢٢٤ والانتصار والرد على ابن الروندي المنحد لأبي الحسن المعتزلي ص ٨٠ وابتدایة والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٢٧)

(٣) هو أسلم بن أوزر المازني والي خراسان في عهد الأمويين

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ص ٨٦

(٥) انظر تاريخ تفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور محمد علي أبو ريان دار النهضة العربية بيروت ص ١٤٦

الحرية الإنسانية بشكل كامل وأنه لا اختيار للعبد في أفعاله ، ولا قدرة له في ذلك ، وقد استدلوا على مذهبهم بالآيات التي تسند الفعل إلى الله - سبحانه وتعالى - مثل قوله تعالى: ﴿... فعال لما يريد﴾ الآية (١) وقوله تعالى ﴿... يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ الآية (٢)

ب - القدرية الخالصة : (٣)

ذهبت القدرية إلى أن العباد خالقون لأفعالهم ، وكل حيوان محدث لأعماله ، ليس لله في شيء من أعمال الحيوانات صنع ، وذكروا أن الله عز وجل غير قادر على مقدور غيره - تعالى الله عما يقولون - وإن كان هو الذي أقدر القادرين على مقدراتهم (٤) وأن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم ، وأنهم المحدثون لها (٥) وهم بذلك يميلون إلى القول بالحرية المطلقة للإنسان تحقيقاً لمعنى العدل الإلهي ، لأنه - حسب زعمهم - لو لم يكن العبد مختاراً لأفعاله ، ومحدثاً لها لما كان هناك معنى للشواب والعقاب والتكاليف الشرعية ، وإن من قال أن الله سبحانه خالق أفعال العباد ومحدثها فقد عظم خطؤه وأحالوا حدوث فعل من فاعلين (٦)

(١) سورة هود جزء من آية ١٠٧

(٢) سورة فاطر جزء من آية ٨

(٣) عرف القائلون بحرية الإرادة والاختيار باسم (القدرية) من قبيل الاشتقاق من الضد ، فهم سموا قدرية لأنهم أنكروا القدر الإلهي بمعنى أنهم أنبتوا للعبد قدرة توجد الفعل باتفادها واستقلالها دون الله تعالى والمعتزلة صاروا يسمون بالقدرية لأنهم أسندوا أفعال العباد إلى قدرتهم وأنكروا القدر فيها (انظر الملل والنحل ٤٣ ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ص ٢٦٤)

(٤) أصول الدين للإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي ص ١٣٥

(٥) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار أحمد الهذلي مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ص ٣٢٣

(٦) المقني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار أحمد الهذلي دار الثقافة والإرشاد مطبعة الكتب ط ١٣٨٠هـ ج ٨ ص ٣

ومما دفعهم لسلوك هذا الاتجاه رؤيتهم للكون وأنه مليء بالشرور والآثام وأنواع المعاصي والمفاسد ، ولا يجوز - من وجهة نظرهم - أن تكون هذه الأشياء مرادة لله تعالى ، ولا مخلوقة له ؛ لأنه لو كان خالقها لكان متصفاً بها ، والله لا يتصف بالظلم والشر ؛ لأنه منزّه عن ذلك واستدلوا على ذلك بالأدلة التي تسند الفعل للعبد كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (٢) وهم بهذا أرادوا أن يثبتوا العدل الألهي والحكمة المقصودة من الثواب والعقاب ، والأمر والنهي ولكنهم في سبيل ذلك هدموا أهم قواعد الدين فأنكروا بذلك القضاء والتقدير الأزلي ، وأنكروا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وعلى مذهبهم هذا يلزمهم أن يقع في ملك الله سبحانه ما لا يريده ولا يرضاه (٣) وهذا بلا شك اعتقاد فاسد وباطل وكل ما يبنى عليه باطل مثله وحاولوا الفرار مما وقعت به الجبرية فوقعوا بمثل ما وقعوا به إن لم يكن أشد منه لأنهم اعتمدوا على جانب واحد من الأدلة الشرعية فأصبحوا على طرفي نقيض .

جـ - الأشاعرة (٤)

وقف الجبرية والقدرية على طرفي نقيض ؛ لأن كل طرف منهما تطرف

(١) سورة التحريم آية ٧

(٢) سورة فصلت آية ٤٠

(٣) الإمام ابن تيمية وموقفه من التأويل محمد السيد الجليل ص ٤١٩ "بتصرف"

(٤) أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ؛ المنتسب إلى أبي موسى الأشعري ولهم آراء كلامية

ومن شخصيتهم : أبو بكر الباقلي وعبد القاهر البغدادي وأبو المعالي الجويني والغزالي والشهرستاني انظر

(في علم الكلام تأليف الدكتور أحمد محمود صبحي دار النهضة العربية ج٢)

في مقولاته تطرفاً خطيراً ، واعتمد على جانب واحد من الأدلة الشرعية والتي توافق ما يدور في أذهانهم من تصورات ، وتركوا الأدلة التي تعارض آراءهم وتصوراتهم ، وتكشف ضلالهم ، وإزاء موقف هؤلاء أراد الأشاعرة أن يكونوا وسطاً بينهما ، فذهبوا إلى القول بالكسب ؛ ويعنون بالكسب ؛ أن أفعال العباد ، فعل الله ، وليست للعبد ، ولكنها تسند إلى العبد لكسبه إياها ، فهي مكتسبة للعبد وليست فعلاً له ، وقالوا إن قدرة العبد لا تأثير لها في فعله ، ولا في صفة من صفاته ، وأن الله سبحانه أجرى العادة بخلق مقدور العباد ، مقارناً لقدرتهم ؛ فيكون الفعل مخلوقاً ومفعولاً لله وكسباً للعبد ، وفرقوا بين الكسب الذي قالوا به وبين الخلق والفعل بقولهم : (إن الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة القديمة) (١) ثم قالوا إن إرادة الله واحدة قديمة أزلية ، أراد من العباد ما علم وأمر القلم حتى كتب في اللوح المحفوظ ، فذلك قدره وقضاؤه وحكمه (٢) ولا يكون في الأرض شيئاً من خير ولا شر إلا ما شاء الله ، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله ، ولا نستغني عن الله ولا نقدر على الخروج عن علم الله عز وجل وأنه لا خالق إلا الله (٣)

(١) الإمام ابن نيمية وموقفه من التأويل محمد السيد الجنيد ص ٤٢٠ وانظر شرح الأصول الخمسة للفاضلي

عبد الجبار ص ٢٢٣

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ص ٩٦

(٣) الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المطبعة المنيرية بالقاهرة ص ٩

فبهذا يرى الأشاعرة أن العبد لا يقدر إلا على ما يقوم بذاته ، ولا يقدر على شيء منفصل عنه ، كما يرون أن الأفعال ، فعل الله تعالى وليست أفعالاً للعباد ، بل هي كسب لهم ، وقدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاته ، والله عز وجل أجرى العادة بخلق مقدورها مقارناً لها ، فيكون الفعل خلقاً من الله إبداعاً وإحداثاً ، وكسباً من العبد (١) لقد حاول الأشاعرة تجنب ما وقع به الجبرية والقدرية من أخطاء في مسألة القدر وحاولوا التوسط بين الفريقين ، إلا أنهم لم يوفقوا في ذلك فهم وإن قالوا أن أفعال العباد خلق لله إلا أنهم ألحوا أن هناك جبراً خفياً لأنهم لم يقرروا أن العبد قادر على فعله ومستطيع له بل قالوا : إنه كسب له وهذا لا معنى له (٢) ولا طائل تحته .

(١) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية ص ١١٢

(٢) شفاء العليل ص ١١٠

٤ = الصوفية :

يرى الصوفية أن الله تعالى خالق لأفعال العباد كلها ، كما أنه خالق لأعيانهم ، وأن كل ما يفعلونه من خير وشر فبقضاء الله وقدره وإرادته ومشينته ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿... قل الله خالق كل شيء ...﴾ الآية (١) وقوله تعالى : ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (٢) ويرون أنهم لا يتفلسون نفساً ولا يطرفون طرفه عين ولا يتحركون حركة إلا بقوة يحدثها الله تعالى فيهم واستطاعه يخلقها لهم ، و أن لهم أفعالاً واكتساباً على الحقيقة هم بها مثابون وعليها معاقبون ، ولذلك جاء الأمر والنهي وعليه ورد الوعد والوعيد (٣) ويقولون أنهم مختارون لاكتسابهم مريدون له ، وليسوا بمحمولين عليه ولا مجبرين فيه ، ولا مستكرهين له ، قال سهل بن عبد الله التستري (إن الله تعالى لم يقوَ الأبرار بالجبر ، إنما قواهم باليقين) وقال بعض الصوفية (من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ، ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر) (٤)

ويتبين لنا من هذا أن من اعتقد ذلك من الصوفية قولاً وعملاً واعتقاداً فهو على مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة لأنهم أثبتوا قدرة الله سبحانه وتعالى ومشينته وأنه خالق كل شيء ومليكه وخالق أفعال العباد

(١) سورة الرعد آية ١٦

(٢) سورة القمر آية ٤٩

(٣) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاّباضي ص ٤٨ وما بعدها

(٤) انظر التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاّباضي ص ٥٢

كما هو خالق لأعيانهم وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وغير مكرهين ولا مجبورين عليها وأنهم مثابون على الخير ومعاقبون على الشر بفضل الله ورحمته وعدله ولكن مع ذلك فيهم من فيه نوع بدع مع إعراض عن بعض الأمر والنهي والوعد والوعيد حتى يجعل بعض مبتدعهم أن الغاية هي مشاهدة توحيد الربوبية والفناء في ذلك ويصيرون معتزلين لجماعة المسلمين وسنتهم (١) وقد كثر هؤلاء فيمن يدعي الحقيقة من المتصوفة (٢)

هذا باختصار موقف بعض الفرق من القدر ، فمنهم من زل وضل ومنهم من لديه بعض الاعترافات نتيجة لعدم تقيدهم بما نص عليه الشرع المطهر وخصوصاً في هذه المسألة •

(٢) انظر الرسالة التتمرية مجمل اعتقاد السلف لشيخ الإسلام ابن تيمية طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية ص ١٤٤

(٣) الرسالة التتمرية ابن تيمية ص ١٣٠

من أسباب ضلال بعض الفرق في مسألة القضاء والقدر :

أهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق :
مجوسية ، ومشركية ، وإبليسية .

الفرقة الأولى : المجوسية - الذين كذبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه ، فغلطهم أنكروا العلم والكتاب ، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم (١) ويسموا عموماً بالقدرية لنفيهم القدر الإلهي . (٢)

الفرقة الثانية : المشركية - الذين أقروا بالقضاء والقدر وأنكروا الأمر والنهي ، فمن أحتج على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء (٣) ، ويسموا عموماً بالجبرية لنفيهم قدرة العبد على الفعل والترك وحرية في اختيار الأفعال . (٤)

الفرقة الثالثة : الإبليسية - الذين أقروا بالأمرين ، ولكن جعلوا هذا متناقضاً من الرب سبحانه وتعالى وطعنوا في حكمته وعدله كما يذكر ذلك عن إبليس مقدمهم (٥)

(١) الرسالة التيمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٣

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ص ٤٣

(٣) الرسالة التيمرية ابن تيمية ص ١٣

(٤) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١١٤

(٥) الرسالة التيمرية ابن تيمية ص ١٣

وبعد أن بينت الفرق التي ضلّت في القدر سائبين فيما يلي أسباب ضلالها وبالله التوفيق : -

السبب الأول : عدول هذه الفرق عن الصراط المستقيم ، الذي أمرنا الله باتباعه (١) ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَن ﴾ (٣)

السبب الثاني : الأخذ بطرف الاستدلال ومحاولة ضرب القرآن بعضه ببعض فالجبرية استدلوا فقط بالأدلة التي تثبت الفعل لله سبحانه وتعالى كقوله جل وعلا: ﴿ فَعَالٍ لَمَّا يَرِيد ﴾ (٤) وقوله سبحانه : ﴿ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٥) والقدرية استدلوا بالأدلة التي تثبت الفعل للعبد وحده كقوله - سبحانه - : ﴿ اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٧)

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٠

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٣

(٣) سورة يوسف آية ١٠٨

(٤) سورة هود آية ١٠٧

(٥) سورة فاطر آية ٨

(٦) سورة فصلت آية ٤٠

(٧) سورة التحريم آية ٧

فالجبرية والقدرية ومن مائلهم مع كل طائفة خطأ وصواب ، وبعضهم أقرب إلى الخطأ ، وأدلة كل منهم وحججه إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى لا على إبطال ما أصابوا فيه ، فكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل على إثبات قدرة الرب تعالى ومشينته وأنه لا خالق غيره وأنه على كل شيء قدير ، لا يستثني من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات ، وهذا حق ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادراً مريداً فاعلاً بمشينته وقدرته وأنه هو الفاعل حقيقة وأفعاله قائمه به ، وكل دليل صحيح يقيمه القدرية فإنما يدل على أن أفعال العباد فعل لهم قائم بهم واقع بقدرتهم ومشينتهم وإرادتهم وأنهم مختارون غير مضطرين ولا مجبورين ، وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه وتعالى قادراً على أفعالهم وهو الذي جعلهم فاعلين (١) فلو جمع كل فريق منهما أدلته إلى أدلة الفريق الآخر لأصابوا الحق وبعثوا عن طريق الضلال ، ولما لم يفعلوا ذلك فقد لزمهم ذلك الزاماً ، فإما أن يأخذوا الأدلة كاملة وإما أن يتركوها كاملة ؛ لأن ما يلزمهم بما أخذوه يلزمهم بما تركوه .

السبب الثالث : كان من ضمن الأسباب التي دعتهم إلى الإنحراف في مسألة القدر تنزيه الله عن فعل القبيح .

(١) انظر شفاء العليل لابن قيم الجوزية ص ١١٢

السبب الرابع : عدم التفرقة بين أنواع الإرادة الإلهية ، فإرادة الله تنقسم إلى نوعين هما :

أ - إرادة قدرية كونية خلقية : وهي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ (١) وهذه الإرادة هي المذكور في قول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

ب - إرادة دينية أمرية شرعية وهي المتضمنة للمحبة والرضى قال تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (٢) وهي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح ، هذا يفعل ما لا يريد الله ولا يحبه ، أي لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به . (٣) مع أنه شاءه وأوجده سبحانه وتعالى ، فلو فهم ذلك لما حدث أي ضلال في القدر .

(١) سورة الانعام آية ١٢٥

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥

(٣) شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز الحنفي ص ١١٤ .

السبب الخامس : تأثر هذه الفرق بمذاهب الكفرة والملحدين من خلال اطلاعهم على كتبهم (١) أو مخالطتهم .

السبب السادس : أن بعض من دخل الإسلام من الأمم الأخرى ضل محتفظاً بمذهبه وحاول بثه بين المسلمين إما جهلاً وإما حاجة في نفسه (٢)

السبب السابع : اتخاذ القضاء والقدر حجة وذريعة لارتكاب المعاصي والآثام وتحقيق بعض الرغبات المنحرفة والمخالفة لشريعة الإسلام (٣).

السبب الثامن : سوء الفهم والخوض بغير دليل ولا برهان في مسألة القضاء والقدر ، فهناك من احتج بسابق القدر وقال : إنه قد مضى الأمر ، والشقي شقي ، والسعيد سعيد ، وأن ذلك مكتوب علينا ، وما لنا في الأفعال قدرة ، ولم يعلم هؤلاء أن الله علم الأمور وكتبها على ما هي عليه (٤) في الأزل ، ولا يؤدي هذا التقدير إلى الجبر بأي حال من الأحوال ؛ لأن الله - سبحانه - يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

هذه أهم الأسباب التي جعلت من ضل في مسألة القضاء والقدر ينحرف عن الطريق القويم والصرراط المستقيم نسأل الله الهداية والثبات إنه ولي ذلك .

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ابن أبي العز الحنفي ص ٥٢٦

(٢) انظر الفرق بين الفرق لبغداد ص ١٨ (الحاشية)

(٣) انظر فتاوى ابن تيمية ج ٨ ص ٢٦٨

(٤) انظر فتاوى ابن تيمية ج ٨ ص ٢٦٢ و ٢٦٥

علاقة التوكل بالقضاء والقدر :

١ - العلاقة الأساسية بين القضاء والقدر والتوكل أنهما من أساسيات الدين وقد أمر الله - جل وعلا - ورسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - بهما .

٢ - القضاء والقدر سابق للتوكل ، فإذا صح إيمان العبد بقضاء الله وقدره وعدله وحكمته ، صح توكله على الله سبحانه ، وإذا لم يتم الإيمان بالقضاء والقدر السابق ، فإنه لا معنى للتوكل ولا يصح .

٣ - القدر أشمل وأعم من التوكل ، فالتوكل جزء من القضاء والقدر فمن قدر الله سبحانه وتعالى بعلمه الأزلي وعدله وحكمته أنه من المتوكلين فسيكون كذلك وإن لم يقدر الله له ذلك فلا يمكن أن يكون من المتوكلين .

٤ - القضاء والقدر والتوكل من المسائل الدينية التي لبس الشيطان على كثير من الناس فيهما ، وسلك بهم طريق الضلال ، حتى زلت أقدامهم وحرموا ما أحل الله وارتكبوا المعاصي ، وتركوا ما أحل الله وأباح .

٥ - القضاء والقدر والتوكل بينهما علاقة في كونهما جالبان للراحة والطمأنينة والسعادة وسلوك الصراط المستقيم للمؤمن وهما كذلك شقاء وهم وغم وضلال لمن لا يؤمن بهما .

٦ - التوكل داخل في الإرادة الدينية الأمرية الشرعية ؛ لأن العمل به مما يحبه الله ويرضاه ومما أمر الله به ،

والقضاء والقدر داخل في الإرادة القدريّة الكونيّة الخلقية ؛ لأن الله جل وعلا قد قدر جميع الموجودات والمخلوقات بإرادته ومشيّئته الشاملة فكلاهما داخل في إرادة الله ومشيّئته وأمره .

٧ - التوكل على الله سبحانه وتعالى والأخذ بالأسباب المعينة من أسباب دفع القدر لأن الله سبحانه أمر أن تُدفع السيئة وهي من قدره بالحسنة وهي من قدره وكذلك الجوع من قدره أمر برفعه بالأكل وهو سبب من الأسباب التي أمر بها عند التوكل (١) ، فالتوكل واتخاذ الأسباب يدفعان القضاء والقدر (٢) .

هذا ما استطعت التوصل إليه من علاقة بين التوكل والقضاء والقدر وعلاقة كل منهما بالآخر ، فمتى عرف العبد هذه العلاقة على الوجه الصحيح فاز برضا الله ومحبه وهدايته وإن خاض في ذلك على غير هدى زلت قدمه وأصبح من الهالكين نسأل الله الهداية والثبات .

(١) انظر مدارج السالكين ابن قيم الجوزية ج ١ ص ٢٢١

(٢) انظر مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٨ ص ٥٤٠

المبحث الثاني : علاقة التوكل بالأخذ بالأسباب:-

الأسباب جمع سبب : ومنه سمي الحبل سبباً ، والطريق سبباً لإمكان التوصل بها إلى المقصود (١)

والسبب في اللغة ، عبارة عما يتوصل به إلى مقصود ما ، ولهذا نرى الفيروز ابادي يقول : (٢)

" السبب ما يتوصل به إلى غيره " والسبب الحبل ويقول أيضاً : أسباب السماء مراتبها أو نواحيها وأبوابها ويقول ابن منظور :

السبب كل شيء يتوصل به إلى غيره (٣) ، وقال السبب : الحبل وقال في معنى الأسباب في قوله تعالى : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ (٤) الوصل والمواد .

وخلاصة هذا : أن السبب يطلق على كل ما يتوصل به إلى مقصود ما (٥)

(١) الأحكام في أصول الأحكام الأمدى ١ / ١٢٧

(٢) القاموس المحيط باب الباء فصل السين

(٣) لسان العرب : باب الباء فصل السين

(٤) سورة البقرة آية ١٦٦

(٥) شرح المنار لابن مالك ٤٠٣/١ ٨٩٨/٢

أما تعريف السبب في الاصطلاح فهو :

عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه (١) ومن أمثلته:
 جعل زوال الشمس إماراً معرفة لوجوب الصلاة في قول الله: ﴿ وأقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ (٢) كما جعل طلوع هلال رمضان إماراً معرفة لوجوب صومه في وقوله تعالى: ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ (٣) وإذا زاد اجتهاد الإنسان في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه فالله سبحانه وتعالى قد يسر كل من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة فهو مهياً له ، ميسر له ، فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها ، كان أشد إجتهداً في فعلها من القيام بها منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه (٤)

وقد حث سبحانه على الأخذ بالأسباب فقال : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (٥)

فلا يطمع العبد في ثمرة عمل دون أن يقدم الأسباب التي توصله إلى تلك الثمرة .

(١) التعريفات للجرجاني طبعة مكتبة لبنان ١٩٩٠م باب السين

(٢) سورة الإسراء آية ٧٨

(٣) سورة البقرة : آية ١٨٤

(٤) شفاء العليل لابن القيم ص ٥٦ - ٥٨

(٥) سورة الليل من آية ٥-١٠

الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم :-

لا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذكر الأسباب ذكراً صريحاً أو الإشارة إليها ، فقد جاء ذكر لفظ (الأسباب) صريحاً في أربعة مواضع من القرآن الكريم ؛
قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (١)

كما جاء هذا اللفظ صريحاً في قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ (٢) و جاء في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابِ ﴾ (٣) كما جاء لفظ (أسباب) في قوله تعالى : ﴿ أَسْبَابُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (٤)

وكذلك ورد لفظ (بسبب) في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (٥)

وجاء لفظ (سبباً) خمس مرات في سورة الكهف

(١) سورة البقرة آية ١٦٦

(٢) سورة ص آية ١٠

(٣) سورة غافر الآية ٣٦

(٤) سورة غافر آية ٣٧

(٥) سورة الحج آية ١٥

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكْنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (١)
 وفي قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْ سَبَبًا ﴾ (٢) وجاء كذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتَّبِعْ
 سَبَبًا ﴾ (٣) وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتَّبِعْ سَبَبًا ﴾ (٤)
 هذا ما ورد صريحاً في القرآن الكريم من ذكر الأسباب وأما ما ورد ذكره
 من الأسباب بصيغ مختلفة فكثير و اكتفى بإيراد بعض الأمثلة . والله
 المستعان :

فقد قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ
 بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا
 مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴾ (٥)
 فهذه الآية الكريمة جاء فيها ذكر أكثر من سبب ، فالإعداد سبب من
 الأسباب والقوة سبب من الأسباب كذلك ، والخيال سبب من الأسباب أيضاً ،
 والإنفاق سبب من الأسباب وإرهاب العدو سبب من الأسباب وجاء ذكر
 الأسباب كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾ (٦) فالتقوى
 سبب من أسباب العلم وجاء ذكر الأسباب في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ
 لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٧) فالقرآن سبب من أسباب هداية المتقين . هذا
 والله أعلم .

(٤،٣،٢،١) سورة الكهف الآيات ٩٢،٨٩،٨٥،٨٤

(٥) سورة الأنفال الآية ٦٠

(٦) سورة البقرة جزء من الآية ٢٨٢

(٧) سورة البقرة آية ٢

الأخذ بالأسباب في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

إن بعثة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وتشريف الله له بحمل رسالة الإسلام هي من أعظم وأهم الأسباب في هداية الثقلين إلى الهدى والصواب وقد اتخذ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من الأسباب ما يعينه على إبلاغ دين الله ودفع الأذى والضرر عنه صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين فكل من يقدح في اتخاذ الأسباب مخالف لما جاء به أبو القاسم صلى الله عليه وسلم .

ويتضح ذلك بجلاء في هجرته صلى الله عليه وسلم فقد اتخذ من الأسباب ما يعينه على نجاح هذه الهجرة الكريمة على الرغم من كونها تمت بناء على أمر الله جل وعلا وهو حافظ رسوله من كل مكروه وأذى ، وقد أحكم الرسول صلى الله عليه وسلم خطة هجرته وأعد لكل أمر عدته ، وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة ، أن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح ثم يترك - بعد ذلك - على الله ؛ لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله . فإذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه ، وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً ثم يجيء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة جرت على هذا الغرار ، وقد جاءت ترتيبات الهجرة كما يلي :

١ = أذن صلى الله عليه وسلم لسائر المسلمين بالهجرة قبله حتى يسلموا من أذى قريش .

٢ = اختياره الرفيق المناسب وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

٣ = التموية على الأعداد وتكليفه صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب

لينام في فراشه .

٤ = إعداد الراحة وتجهيزها قبل الرحلة الميمونة بأربعة أشهر (١)

٥ = اصطحاب عبد الله بن أريقط ليدله صلى الله عليه وسلم ووأبا بكر رضي الله عنه على الطريق وكان ماهراً خرتياً (٢).

٦ = التموية على كفار قريش وذلك عندما بات في غار ثور ثلاث ليال.

٧ = إعداد الطعام اللازم لهذه الرحلة (٣)

٨ = تكليف عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه لينقل له صلى الله عليه وسلم أخبار مكة وهو في الغار صلى الله عليه وسلم .

٩ = اختيار من يمهده صلى الله عليه وسلم وصاحبه بالطعام في الغار واختياره لهذه المهمة عامر بن فهيرة .

١٠ = سلوكه صلى الله عليه وسلم طريق غير متوقع لكفار قريش (٣)

وكذلك فقد تجلى وبوضوح اتخاذ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الأسباب المعينة على النصر في معركة الأحزاب عندما أمر بحفر الخندق فكان هذا من أهم الأسباب بعد نصر الله التي حققت النصر للمسلمين (٤) .
وكما تبين لنا فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتخذ لكل أمر عدته ومن الأسباب ما يعينه على نجاح مهمته وهو إمام المتوكلين .

(١) انظر فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج٥ ص٨٨

(٢) الخريت : قال الأصمعي سمي خريئاً لأنه يهدي بمثل خرت الإبرة أي تقبها (فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٩٢ / ١٥)

(٣) انظر فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج٥ ص٩٠

(٣) تظر هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه في القرآن والسنة أحمد عبد الغني الجمل النوفاء للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ص ١٧٩ وانظر سيرة ابن هشام ج٢ ص ٤٨

(٤) ترمجع السابق ص ١٧٥

الأخذ بالأسباب في الرزق:-

الأخذ بالأسباب لا يتناقى مع التوكل على الله جل وعلا بل هو واجب بنص القرآن والحديث وحسب كل واحد من الأنبياء أنهم كانوا يعملون إما في التجارة وإما في الرعي وإما في الصناعة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضرورة الأخذ بالأسباب في طلب الرزق إذ يجب على المرء أن يطلبه ويطلب سببه ، وإن كان الرزق بيد الله تعالى لكن يلزم منا طلب أسبابه التي توصل إليه (١) فالمرء إذا أراد الحصول على الطعام يجب عليه أن يعمل ليحصل على المال الذي يمكنه من شراء الطعام .

وإذا أراد الرزق من الأرض عليه أن يحراثها ويزرعها ويضع فيها البذور ويسقيها ويقاس على ذلك طلب الرزق في كل شيء وقد أمر الله تعالى مريم باتخاذ الأسباب في طلب الرزق فقال تعالى: ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ (٢) وهو القادر على أن يسقط الرطب عليها بدون أن تتخذ الأسباب ولكنها سنة الله في طلب الرزق .

(١) مجموع الفتاوى الكبرى لابن تيمية تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر دار الريان للتراث

القاهرة طبعة الأولى ٥٢٤/٨ - ٥٢٥

(٢) سورة مريم آية ٢٥

الأخذ بالأسباب في الدعاء :

أمرنا الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع في القرآن الكريم بدعائه ووعدنا بالإجابة فقد قال الله تعالى في التنزيل الحكيم : ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ (٢) وجاء في السنة عن النبي عليه السلام أنه قال : (القلوب بعضها من بعض فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فسلوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاءه عن ظهر قلب غافل) (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني) (٤) فالعباد مفتقرون إلى الله عز وجل ولذا أجاز لهم الدعاء وطلبه منهم ، فالدعاء إذن وسيلة من الوسائل التي توصل إلى غاية من الغايات المادية أو المعنوية . وإن لم تحصل له هذه الغاية مادياً فإنها تحصل معنوياً ، كحصول السكينة والهدوء والرضا بما قدرة الله عز وجل

(١) سورة غافر آية ٦٠

(٢) سورة الاعراف آية ١٨٠

(٣) مجموع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي ١٤٨/١٠

(٤) حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي في جامعة باب حسن الظن بالله انظر الأحاديث القدسية طبعة دار

الهجرة حديث رقم ٤٨ وانظر كشف الخفاء حديث رقم ٦١٣ وروى البخاري ومسلم نحوه (انظر الولو

والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٧١٣)

الأخذ بالأسباب في العبادات : - (٥)

أولاً : في الصلاة :

الصلاة عماد الدين وروحها النية والإخلاص فهي تشتمل على أذكار ومناجاة فهي سبب من الأسباب التي توصل العبد إلى غاية مطلوبة ألا وهي رضا الله عز وجل (١) ومن هنا كانت الصلاة سبب من الأسباب التي توصل صاحبها إلي مراده كما ذكر ذلك أئمة الفقه والحديث من السلف الصالح والأخذ بها كسبب لا يعارض التوكل الحقيقي على الله تعالى لأنها عبادة وقد قرن التوكل بالعبادة ؛ ولأن تارك الصلاة عمداً كافر (٢) لقوله صلى الله عليه وسلم: (أن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) (٣) والكفر سبب للخلود في النار .

(٥) انظر التعريف ص ٢٨٣ وما بعدها من هذا البحث

(١) منهاج القاصدين لابن قدامة ص ٢٨ - ٢٩

(٢) انظر فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء المجلد الثاني (العقيدة) جمع وترتيب الشيخ أحمد عبد

الرزاق الدويش طبعة دار أولي النهى الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ص ٢٦

(٣) أحمد في مسنده ٣/٣٧٠ وابن مندة في الإيمان رقم ٢١٩ والدارمي في السنن ١/٢٨٠ وأبو داود والترمذي

وابن ماجة وقال الترمذي حسن صحيح (كشف الخفاء حديث رقم ٩٣٤) ورواه مسلم في الصحيح كتاب الإيمان

حديث رقم ١٣٤ واللفظ لمسلم .

ثانياً الأخذ بالأسباب في الزكاة :

الزكاة ركن من أركان الإسلام ودليل وجوبها (١) — قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٢) و فضلها كالصلاة ، وهي وسيلة من الوسائل التي ينال بها العابد مطلوبه وهو رضا الله عز وجل وقد روي (أن أعرابياً أتى النبي — عليه السلام — فقال : دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة • قال : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان • قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا • فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا) (٣) فهذا دليل على أن دفع الزكاة لمستحقيها يجلب للعبد الراحة والسكون ؛ لأنه أدى حق الله تعالى في ماله فالله سبحانه وتعالى يرضى عنه ويهديه إلى سواء السبيل ويدخله الجنة لأنه اتخذ الأسباب المعينة له على ذلك وكذا فالزكاة من أسباب عصمة الدم لأن من يمتنع عن أداءها يقاتل حتى يقر بها ويؤدها كما فعل ذلك خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند ما قاتل مائعي الزكاة •

(١) انظر العمدة في الأحكام في معالم الحلال والحرام للمفتي مصطفى عطا دار الكتب العلمية بيروت

لبنان ص ٢٣٢

(٢) سورة البقرة آية ٤٣

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب الزكاة حديث رقم ١٣٩٩ و ١٤٠٠

ثالثاً : الصوم :

الصوم من الأسباب التي يحصل بها الرضا والقرب من الله عز وجل ، لأن في الصوم خصيصة ليست في غيره من العبادات ، وهي إضافته إلى الله عز وجل ، حيث يقول جل وعلا في حديث قدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه - أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قال الله عز وجل : (كل عمل ابن آدم له ، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ٠٠٠ ، و الذي نفس محمد بيده لخلفوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك وللصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه) (١)

وإنما فضل الله الصوم لأنه سر وعمل باطن لا يراه الخلق ولا يدخله رياء وكذلك الصيام هو سبب دخول الجنة من باب الريان لقوله صلى الله عليه وسلم : (إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل معهم أحد غيرهم ٠٠٠) (٢) وأيضاً فالصيام سبب من أسباب البعد عن النار وذلك لما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم إنه قال : (مامن عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً) (٣) إذن فالصوم من أهم الأسباب التي تجلب السعادة والفوز في الدنيا والآخرة .

(١) صحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١٦٣

(٢) صحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١٦٦

(٣) صحيح مسلم كتاب الصيام حديث رقم ١٦٧

رابعاً : الأخذ بالأسباب في الحج :

أمر الله بالحج من استطاع فقال: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَتَزُودُوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (٢) وقد فسر عليه الصلاة والسلام : (السييل بالزاد والراحلة) (٣) وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه وقد تلى قوله تعالى : ﴿وَتَزُودُوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ كان الناس يتكل بعضهم على بعض في الزاد فأمرُوا أَنْ يَتَزُودُوا وكان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ، فإذا جاءوا مكة سألوا الناس (٤) وقد لبس على قوم يدعون التوكل ، فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهو غاية الخطأ . فقد قال رجل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه (أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل من غير زاد فقال له : أحمد بن حنبل : فأخرج في غير القافلة ؟ قال لا إلا معهم قال : فعلى جراب الناس توكلت) (٥) فهذا توكل في شيء ، واعتمد في شيء آخر ، وهذا يدل على أن الإنسان لا غنى له عن الأخذ بالأسباب التي تكفل له تمام حجه على الوجه المطلوب ، ويوصله إلى تحصيل مراده لذلك شاءت حكمته جل وعلا أن يعلق الأسباب على مسبباتها ، والحج سبب من أسباب اكتمال أركان الإسلام فمن لم يقر

(١) سورة آل عمران جزء من الآية ٩٧ (٢) سورة البقرة جزء من الآية ١٩٧

(٣) فقه السنة السيد سابق ص ٥٣٢ (٤) انظر صحيح البخاري ج ١ ص ٤٧١ وفتح الباري ج ٣ ص ٤٤٩

والمناهج في شعب الإيمان لأبي عبد الله الحلي ج ٢ ص ٤٢٦ (٥) تلبس ابليس ص ٢٠٤

به فلا يصح إسلامه وكذا سائر أركان الإسلام لأنها من الفرائض التي علمت من الدين بالضرورة فلو أنكر أحد وجوب الحج أو أحد أركان الإسلام الأخرى ارتد عن الإسلام (١) والحج من أهم الأسباب التي تؤدي إلى نقاء الإنسان من الذنوب ويرجع نقياً كيوم ولدته أمه لقوله صلى الله عليه وسلم (من حج ولم يرفث ولم يفسق يرجع كيوم ولدته أمه) (٢) .

الأخذ بالأسباب في الجهاد :

الجهاد من أعظم القرب إليه تعالى لأنه من أفضل الأسباب التي أمر الله بها خلقه ، ويعد من الأمور الإيمانية التي يجب أن يؤخذ فيها بالأسباب، وقد رغب عليه السلام فيه فقال (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها) (٣)

والإعداد للجهاد يكون بإحضار الوسائل التي تساعد على دفع المكروه فقال جل وعلا ﴿ ٠٠٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (٤)

(١) انظر فقه السنة ج ١ ص ٥٢٧

(٢) صحيح البخاري كتاب الحج حديث رقم ١٥٢١

(٣) حديث صحيح رواه أحمد والبخاري والترمذي (فيض القدير حديث رقم ٤٣٩٥)

(٤) سورة الأنفال آية ٦٠

فواجب على المسلمين أن يعدوا من السلاح ما يفي باحتياجاتهم لإعلاء كلمة الله ونشر العدل والخير والرحمة في الأرض (١) ومن ثم فإنهم يفوضون أمر نصرهم إلى الله عز وجل لأنه تعالى حسب من توكل عليه ، فمن تولاه واستتصر به وتوكل عليه تولاه وحفظه ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر وجلب إليه كل ما يحتاج من المنافع (٢) قال جل ذكره ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٣)

نخلص مما سبق : أن العبد في حاجة إلى القرب من الله تعالى باتخاذ الأسباب التي تعينه على ذلك لأن القرب منه لا يتحقق إلا باتخاذ الأسباب التي شرعها لعباده ولأن القرب من الله تعالى ينير له الطريق ويوضح له معالم الحق وغاية كل مؤمن وهدفه هو الإيمان بالله وعبادته وإخلاص العمل له والتوكل عليه لأن في ذلك راحة للنفس وقرة للعين وسروراً للقلب ونعيم للروح .

التوكل وعلاقته بالأخذ بالأسباب في الصحة :

إن مباشرة الأسباب الدافعة للضرر لا تتنافى مع التوكل ؛ لأنه ليس من شروط التوكل تركها . وقد أثبت الشرع على المتوكلين الساعين لأن تأثير

(١) منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري ص ٣٠٣

(٢) تبصر العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ محمد سلمان ص ٥٠٣

(٣) سورة آل عمران : آية ٦٠

التوكل يظهر في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده فيكون سعيه إما لجلب نفع مفقود أو حفظ موجود أو لدفع ضرر قد نزل أو إزالته كالتداوي من الأمراض فيتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه ويعلم أن القدر له كالطبيب إن قدم إليه ما ترتاح إليه النفس فرح وإن قدم له ما يعارض رغبته فرح ، وأن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى لم يصح توكله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد تداوى وأمر بالتداوي فقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله عن رسول الله عليه السلام أنه قال (لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله عز وجل) (١) وقد تداوى خلق كثير من المسلمين ، وامتنع عنه أقوام تواكلاً ، وما الأدوية إلا أسباب مسخرة بإذن الله تعالى ، وهذا يقودنا إلى بيان الأسباب المزيلة للضرر وعلاقتها بالتوكل :

الأسباب المزيلة للضرر ثلاثة :

- ١ - مقطوع به : كالماء المزيل لضرر العطش فهذا النوع ليس تركه من التوكل في شيء
- ٢ - مذكور فيه : كالفصد (٢) والحجامة (٣) وهذا النوع لا ينقض التوكل .
- ٣ - أن يكون موهوماً : كالكي فإنه يخرج عن التوكل ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بأنهم لا يكتـوون

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/١٩٠-١٩١ وصحيح مسلم كتاب السلام حديث رقم ١٢٠٨

(٢) الفصد : قطع العرق (مختار الصحاح مادة فصد)

(٣) الحجامة : التدوير والمعالجة بالحجم (قاموس المنجد مادة حجم)

فقد روى عن عمران بن حصين قال : قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ٠٠٠ هم الذين لا يكتون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ٠٠٠) (١) والكي المنهي عنه ما كانوا يفعلونه في الجاهلية فهم يكتون في زمن العاقبة لنلا يمرضوا ، وقد كوى النبي - صلى الله عليه وسلم - سعد بن زرارة - رضي الله عنه - وقت المرض (٢) فعن أنس رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كوى أسعد بن زرارة ٠٠٠) (٣) وروى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أنزل الله داء إلا أنزال له شفاء) (٤)

وفي السنن عن أبي خزيمة قال : سئل رسول الله : رأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقى ننتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : (هي من قدر الله) (٥)

فهذا وغيره من الأحاديث (٦) أثبت أن هناك أسباباً مشروعة أمرنا بالأخذ بها ، وأسباباً غير مشروعة نهانا الله عنها ، فقد أمرنا بالتداوي الذي فيه جلب نفع ، ودفع ضرر عن النفس التي هي مناط التكليف فإن عجزها

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٣٧١

(٢) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص ٣٣٣

(٣) سنن الترمذي أبواب الطب حديث رقم ٢٠٥١ وهو حسن صحيح

(٤) صحيح البخاري كتاب الطب حديث رقم ٥٦٧٨

(٥) سنن ابن ماجه - كتاب الطب : حديث رقم ٣٤٣٧

(٦) انظر سنن الترمذي أبواب الطب باب ماجاء في كراهية التداوي بالكي حديث رقم ٢٠٥٠

بسبب المرض يعطلها عن القيام بالتكاليف الشرعية التي تحتاج إلى مجهود ولا يتأتى هذا المجهود إلا بدفع الضرر عنها بالأسباب المشروعة كالتداوي في الحدود المشروعة وهو لا ينافي التوكل ولا يقدح فيه لأن فيه نفعاً للأمة عند إنجازهِ لدفع الضرر عنها أو لتقويتها على تحمل مسؤولية الدعوة فإنها تحتاج إلى المسلم القوي الذي يستطيع الذب عن هذا الدين لتحقيق هدف الرسالة فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) (١) وليس معنى هذا الحديث أن الله يحب المؤمن الصحيح دون المريض ولكن المقصود أن المؤمن القوي الذي يأخذ بجميع الوسائل المشروعة التي تكفل له دوام صحته وقوته بإذن الله ليستطيع النهوض بأمور دينه ودنياه فلا يفوض أمره إلا لله بعد أخذه بالأسباب المشروعة يكون أحب إلى الله من المؤمن الضعيف المتكاسل العاجز الذي يكل أموره إلى الغير فيكون متواكلاً في حياته عالة على غيره من الناس وخلاصة ما تقدم أن المؤمن مأمور بالأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى والإيمان بأن الأسباب لا تعطي النتائج إلا بإذن الله ، لأن الله هو الذي خلق الأسباب وهو الذي خلق النتائج ، ويحرم على المسلم ترك الأخذ بالأسباب ، ولو ترك إنسان السعي في طلب الرزق كان أثماً مع أن الأرزاق بيد الله تعالى ، والرسول صلى الله عليه وسلم لما سئل : أرايت رقى نسترقى بها ونقى ننقي بها وأدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله

(١) صحيح مسلم كتاب القدر حديث رقم ١٣٥١

شيئاً ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : (هي من قدر الله) (١)

فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع ، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب ، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة ، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ومن يترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم (٢) فالذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يترك الأسباب (٣)

وحين أراد المسلمون تغيير الواقع بالجهاد أخذوا بأسباب الجهاد (كلها ثم توكلوا على الله ولم يقولوا إن الله قدر نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين واكتفوا بذلك عن الاستعداد والجهاد والصبر وخوض المعارك بل فعلوا كل هذه الأمور فنصرهم الله وأعز بهم الإسلام ؛ لأن إسقاط الأسباب ليس من التوحيد ، بل القيام بها ، وإعتبارها وإنزالها منازلها التي أنزلها الله فيها هو محض التوحيد والعبودية) (٤)

فبهذا تتضح العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب والتي جمعها بينها حديث الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - الذي رواه أنس بن مالك -

(١) سنن ابن ماجه كتاب الطب حديث رقم ٣٤٣٧

(٢) القدر لابن تيمية ص ٥٢٨

(٣) الرسالة التفسيرية ص ٤٣٠

(٤) مدارج السالكين ابن القيم ج ٣ ص ٤٩٥

رضي الله عنه - فقال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل - يعني ناقته - ؟ قال -
صلى الله عليه وسلم - : (اعقلها وتوكل) (١)

فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ولا يتعارض معه فكلاهما من أمر الله
وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

(١) كتاب التوكل لابن أبي الدنيا ص ٢٧ وكشف الخفاء حديث رقم ٤١٨

الباب الثالث

التوكل ومظاهرة عند الصوفية وموقف العلماء منه

ويتضمن ثلاثة فصول :-

الفصل الأول :- التوكل عند الصوفية .

الفصل الثاني :- مظاهر التوكل عند الصوفية .

الفصل الثالث :- موقف العلماء من التوكل عند الصوفية .

الفصل الأول

التوكل عند الصوفية

ويتضمن ثلاثة مباحث :

الأول : البداية التاريخية لقضية التوكل حسب المفهوم الصوفي .

الثاني : التوكل وأنواعه عند الصوفية .

الثالث : أعمال المتوكلين وأحوالهم عند الصوفية .

المبحث الأول :

البداية التاريخية لقضية التوكل حسب المفهوم الصوفي :

المتتبع لقضية التوكل وعدم الفهم الصحيح له يجد أنها بدأت في عهد النبوة الزاهر ، حيث حج اليمينيون أو بعض منهم بدون زاد وأخذوا يسألون الناس في الطريق ، وزعموا أن هذا هو التوكل ، فنزل القرآن مبيناً لهم الطريق الصحيح في قوله تعالى : ﴿ ٥٠٠ ﴾ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴿ ٥٠٠ ﴾ الآية (١) فكان هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى رداً لدعواهم أن هذا من التوكل وبين لهم أن الطريق الصحيح هو الأخذ بالأسباب والتزود بما يكفون به وجوههم عن الناس (٢)

وفي عهد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - أيضاً نجد ذلك الرجل الذي التبس عليه التوكل والتواكل يسأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - هل يعقل ناقلته أو يتركها بدون عقال ، ويتوكل على الله فيحرسها له ؟ ، فكان جواب الرسول صلى الله عليه وسلم حاسماً ومصححاً لهذا الفهم الخاطيء فقال له صلى الله عليه وسلم : (اعقلها وتوكل) (٣) وبين له صلى الله عليه وسلم أن التوكل لا يتعارض والأخذ بالأسباب ، بشرط عدم

(١) سورة البقرة آية ١٩٧

(٢) انظر فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج٣ ص ٤٤٩ ومجلة الحرس الوطني السنة الرابعة عشر العدد ١٣٣ (التوكل على الله) للدكتور حمد عبد الرحمن الجنبيل .

(٣) كتاب التوكل للحافظ ابن أبي الدنيا ص ٢٧ وكشف الخفاء حديث رقم ٤١٨

الظن بالأسباب والاعتماد عليها ، ونسيان التوكل على الله فهما موضوعان متلازمان دائماً ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه غارساً للعقيدة الصحيحة حارساً لها من الانحراف والزيغ يبادر إلى تصحيح كل خطأ يحصل من المسلمين أو سوء فهم ، وكان المسلمون بدورهم يتقيدون بالتوجيه النبوي الشريف ، ويسارعون إلى الاستجابة لأن الإيمان في قلوبهم لا يزال غضاً طرياً ولأنهم أهل لتنفيذ قول الله سبحانه لهم ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (١) ولأنهم لم تكن لهم مصادر أخرى يأخذون منها كما حدث بعد أن اتسعت الثقافة وترجمت ثقافات الأمم الأخرى وأصبحت تزاحم الفكر الإسلامي وثقافته ، وبقيت صورة من الانحراف كذلك إلى عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكنه تصدى لها بكل حزم وقوة ، فقد لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ناساً لم يتخذوا للسفر عدته ، فقال من أنتم ؟ قالوا نحن المتوكلون ، فقال بل أنتم المتكولون ، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ، ويتوكل على الله (٢) وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى الشاب فأعجبه يسأل هل له حرفة ؟ فإن لم يكن له حرفة سقط من عينه ، وقد وقف أمير المؤمنين ضد هذه الدعوى بقوة حتى وصل به الأمر إلى طرد أهل الصفة وقمعهم بدرته قائلاً لهم : قوموا اطلبوا الرزق فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وأمرهم بالعمل والانتاج وعدم القعود والكسل والتواكل ، وكان رضي الله عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ويقول رضي الله عنه لمن يغرس أرضه :

(٢) انظر كتاب التوكل لابن أبي الدنيا ص ٢٦

(١) سورة نحر جزء من الآية ٧

أصبت ، استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم (١) وإزاء تشدد الفاروق رضي الله عنه وتتبعه لخطى النبي - صلى الله عليه وسلم - خفت هذه الظاهرة أو كادت أن تختفي حتى جاء القرن الثاني الهجري وظهرت الصوفية فوجد بعضهم في إحياء هذا الفهم المنحرف للتوكل ضالتهم وحولوا التوكل إلى تواكل ضمن أسس وقواعد وضعوها حتى أفتى بعض الصوفية بحرمة الكسب والعمل إلا عند الضرورة ؛ لأن الكسب في عرفهم ينفي التوكل على الله أو ينقص منه ، وقد أمرهم الله بالتوكل ، ورزقهم في السماء وما يوعدون ، (٢) فالعمل والكسب عند بعض الصوفية حرام ويرون أن من أهم صفات الصوفي ترك الأسباب والتجرد

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٧١ و التصوف في الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه د/ عبد اللطيف محمد العبد ص ٢٠

(٢) الاكتساب في الرزق المستطاب محمد بن الحسن الشيباني تحقيق سهيل زكار طبعة دمشق ١٩٨٠م ص ٣٧ وانظر عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان بدر الدين محمود بن أحمد العيني (مخطوط في مكتبة سليم آغا تركيا برقم ٨٣٤) ج ٣ ص ٣٨

عنها بالكلية حتى لا يكون له عند الله حاجة - تعالى الله عما يقولون - (١) ونظراً للعواقب الوخيمة التي تترتب على هذه الدعوى تصدى لها مجموعة من العلماء ومنهم من علماء الصوفية ذاتها . فها هو محمد بن الحسن الشيباني (٢) يقف ضد هذه الدعوى فيؤلف كتاباً سماه (الاكتساب في الرزق المستطاب) وهو أول كتاب - عرفته - يرد عليهم بالنصوص الواضحة من الكتاب والسنة ومن خلال التطبيق العملي من سيرة الأنبياء أنفسهم في العمل والكسب وقد سار بعض العلماء (٣) على هذا المنهج في الرد عليهم وتفنيد أقوالهم وأثبتوا بالدليل والبرهان أن الاكتساب لا ينافي التوكل ، وممن استفاد في هذا الشأن وتوسع فيه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقد تحدث عن الصوفية وما سببته من فقر للمجتمع الإسلامي وظنهم أن الزهد ملازم للفقر فرد عليهم وبين خطأهم وأوضح لهم الصواب (٤) ومع ذلك لا تزال هذه الدعوى تملأ جنبات العالم الإسلامي (٥) وتجد من يتبناها ويدافع عنها ؛ لأنها تحقق لمن يقول بها الراحة وعدم التعب والسعي في طلب الرزق .

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن فرقد الشيباني بالولاء ولد سنة ١٣٢هـ بواسط ونشأ بالكوفة مع والده صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان وتولى القضاء في عهد الرشيد وله مصنفات كثيرة بلغت تسعمائة وتسعين كتاباً في الدين (انظر الاكتساب في الرزق المستطاب ص ١٠ وما بعدها)

(٣) منهم الخلال في كتابة (الحث على التجارة والصناعة والعمل) والحاتر المحاسبي في كتابه (المكاسب)

(٤) انظر الفتاوى لشيخ الإسلام ج ١١

(٥) مجلة الحرس الوطني التوكل على الله د / حمد عبد الرحمن الجندل

المبحث الثاني : - التوكل وأنواعه عند الصوفية .

أ - حقيقة التوكل عند الصوفية :

لقد كثر تداول كلمة التوكل على ألسنة كثير من الصوفية وقبل البدء في أعمالهم خاصة فلا بد من وقفة أمام هذه الكلمة .
فالتوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكل إليه وكيلاً ويسمى المفوض إليه متكللاً عليه ومتوكلاً عليه ، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده (١)
والتوكل على الله يعني الثقة به والاعتماد عليه والإيقان بأن قضاءه ماضٍ واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب واستعمال كل ما تقتضيه سنة الله المعتادة قال تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٢)

والعزم في هذه الآية قدم على التوكل والعزم هو الأمر المروي المنقح وليس ركوب الرأي دون روية عزمياً ، فالأمر بالتوكل جاء بعد إعلان المشاورة والتروي والتنقيح وهذا ما يكون في طاقة الإنسان وفي حدود قدرته أما ما وراء ذلك من تنفيذ الأمر وتحقيق النصر فإن ذلك خاص بالعلي القدير الذي نتوكل عليه في إنجازهِ وتحقيقه (٣)

(١) الأحياء ج٤ ص ٢٧٦ وانظر ص ١٣٥ من هذا البحث

(٢) آل عمران آية ١٥٩

(٣) الحب بين العبد والرب أحمد نصيب المحاميد دمشق دار الفكر الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ ص ٧٥

والمشي مع الأسباب والسير على سنة الله المعتادة لا ينافي التوكل غير أن المطلوب من العاقل أن لا يعتمد على الأسباب بل يأتي بها ويعتمد على مسببها ولو كان فعل شيء من هذه الأسباب ينافي التوكل لكان أمر الله

لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بالمشاورة في قوله : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ (١) منافياً للتوكل وقد دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقول بعض الجهال وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافياً للتوكل بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ولكن لا يعول بقلبه عليها بل يعول على عصمة الحق ؛ لأن الله يحب المتوكلين ومن أجل ذلك أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعرابي الذي سأله حين أراد دخول المسجد ومعه ناقته . أتركها وأتوكل ؟ أم أعقلها وأتوكل ؟ أجابه عليه السلام بقوله : (اعقلها وتوكل) (٢)

وموسى وأخوه هارون عليهما السلام قد شعرا بالخوف عندما أمرهما سبحانه أن يذهبا إلى فرعون وينصحاها فقالا : ﴿ ربنا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (٣) إن الشعور بصحة الله هو المؤنس في هذه الوحشة ، وهو المشجع في هذه الرهبة وذلك معنى التوكل في مثل هذه المواقف ،

وسئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن رجل جلس في بيته أو في مسجده

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) كشف الخفاء حديث رقم ٤١٨ والتوكل على الله لابن أبي الدنيا ص ٢٧

(٣) سورة طه آية ٤٥ - ٤٦

وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي ! فقال أحمد هذا رجل جهل العلم !
أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (جعل رزقي تحت ظل
رمحي) . وحديثه الآخر في ذكر (الطير تغدوا خماصاً) فذكر أنها تغدوا في
الرزق (١)

فالسعي لطلب الرزق بما يقدر عليه العبد وتفويضه بما لا يقدر عليه إلى
الله تعالى هو التوكل الحقيقي الم محمود قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الآية (٢)

وقد قرأ النبي - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية على أبي ذر - رضي الله
عنه - وقال له : (لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم) (٣)
يعني لو حققوا التقوى والتوكل لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم وقد
أخطأ قوم ظنوا أن ترك العمل والخروج إلى البراري والصحاري والجبال
بغير زاد ولا دابة داخل في التوكل (٤) فقالوا : نخرج على التوكل تحقيقاً
لقوله تعالى : ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ (٥)

(١) تلبس إبليس من ٣٦١ والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٣٠/١ وابن المبارك في الزهد ١٩٦ - ١٩٧

وحديث الطير تغدوا سبق تخريجه من ١٤٣

(٢) سورة الطلاق جزء من الأيتين (٢ ، ٣)

(٣) حديث صحيح رواه الحاكم في المستدرک كتاب التفسير باب تفسير سورة الطلاق طبعة دار المعرفة بيروت

ج ٢ ص ٤٩٢

(٤) دراسات عن التصوف من ٣٢٣

(٥) سورة هود آية ٦

وقد كان الأولى بهم أن يحققوا قوله تعالى: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ (٢)

ويعتبر الصوفية التوكل أحد مقاماتهم التي يمرون بها في معراجهم الصوفي (٣) وقد اختلفت عباراتهم في بيان حد التوكل وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما أن لهم اختلافاً في عدد المقامات وترتيبها (٤) ؛ لذا كان لا بد من بيان المقام والحال عندهم قبل أن أتناول الحدود التي وضعوها للتوكل .

(١) سورة الملك آية ١٥

(٢) مجلة الأصالة السنية الثامنة صفر ربيع الأول ١٣٩٩هـ توفيق بن عنمر والآية هي الآية ١٠ من سورة الجمعة

(٣) الأحياء جزء ٤ ص ٢٥٩

(٤) انظر التصوف ماسينيون ومصطفى عبد الرازق ص ٧٠

المقام والحال عند الصوفية :

اختلف الصوفية في تحديد مفهوم المقام والحال والفرق بينهما وسأبين بعض أقوالهم في ذلك :

فالمقام - بفتح الميم - هو في الأصل موضع القيام - وبضمها - موضع الإقامة وقد يكون كل منهما بمعنى الإقامة وبمعنى القيام والمقام - بالفتح والضم - ما يتحقق به المزيد من الصفات المكتسبة بالرياضة والعبادة كمقام الخوف من الله الذي يحصل بترك الكبائر فالصغائر فالمكروهات فالشبه فالتوسع في الحلال إلى أن ينتهي إلى ترك كل ما يشغل عن الله .

والحال معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب كالطرب والحزن والشوق والهيبة ، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب بمواهب لأنها إنما تتال بالكسب مع الموهبة ، والعبد بالأحوال يترقى إلى المقامات ولا يلوح له حال من مقام أعلى من مقامه إلا وقد قرب ترقية إليه . وليس للمريد أن ينشوف إلى مقام فوق مقامه ما لم يستوف أحكام ذلك المقام وأحواله . (١) ومنهم من يقول : الأحوال من نتائج المقامات ، والمقامات نتائج الأعمال ، فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقاماً وكل من كان أعلى مقاماً كان أعظم حالاً . (٢)

ويقول صاحب اللمع : " إن معنى المقام مقام العبد فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانتقطاع إلى الله عز وجل ، أما معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب وليس الحال من طريق المجاهدات والرياضات كالمقامات " (٣)

(١) التصوف ص ٧١

(٢) التصوف ص ٧٢ - ٧٣

(٣) تنوع للسراج الطوسي ص ٦٥

أما ابن القيم فيقول : والصحيح أن هذه الواردات والمنازل لها أسماء باعتبار أحوالها فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند ظهورها وبدؤها كما يلمع البارق ويلوح على بعد فإذا نازلته وباشرها فهي أحوال فإذا تمكنت منه وثبتت له عن غير انتقال فهي مقامات وهي لوامع ولوائح في أولها وأحوال في أوسطها ومقامات في نهايتها فالذي كان بارقاً هو بعينه الحال والذي كان حالاً هو بعينه المقام وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب وظهوره له وثباته فيه (١)

إذن ...

الحال : هو ما يرد على القلب فجأة ودون تعمد ثم يزول بسرعة وهو أوائل المقام (٢)

المقام : هو استمرار الحال واستقراره ودوامه بحيث يصبح صفة دائمة لصاحبه (٣)

قال ابن عربي : - فإن قيل ما معنى المقامات ؟ يقال : معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام من العبادات والمجاهدات والرياضات والانتقاع إلى الله عز وجل (٤)

وقال الله تعالى : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ (٥) وقال

(١) مدارج السالكين لابن القيم ص ١٥٢

(٢) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٨٠

(٣) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٨٠

(٤) اللمع ص ٦٥

(٥) سورة ابراهيم آية ١٤

تعالى : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ (١)

وقال - ابن عربي - وأما معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب : من صفاء الأذكار (٢) وليس الحال من طريق المجاهدات والرياضات والعبادات كالمقامات •

وبعد هذه عجالة سريعة عن الحال والمقام أردت توضيح الفرق بينهما قبل الحديث عن حد التوكل عند الصوفية •

(١) سورة الصافات آية ١٦٤

(٢) اللمع ص ٦٦

ب = الحدود التي وضعها المتصوفة للتوكل :

لقد كثر الخائضون في بيان حد التوكل فكل واحد أخبر عن حده

كما جرت عادة أهل التصوف وأذكر منها : مايلي :-

يقول سري السقطي : (التوكل الانخلاع من الحول والقوة) (١) ويقول ابن

مسروق : (التوكل الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام) (٢) ويقول

التستري : التوكل الاسترسال بين يدي الله (٣)

قال أبو عبد الله القرشي : التوكل ترك الإيواء إلا إلى الله (٤)

ونقل الغزالي في الإحياء عن أبي عبد الله القرشي أنه سئل عن التوكل

فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال ، فقال : السائل زدني ، فقال : ترك

كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك (٥)

وقال الجنيد : حقيقة التوكل أن يكون لله تعالى كما لم يكن فيكون الله له

كما لم يزل (٦)

قال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فإنه وجه بلا قفا (٧)

يريد توكل العناية لا توكل الكفاية ، وهو ألا يطالبه بالأعواض

وقال بعضهم : التوكل سر بين العبد وبين الله ومعناه كما قال آخرون :

(حقيقة التوكل ترك التوكل ، وهو أن يكون الله لهم حيث كان لهم إذ لم

يكونوا موجودين) (٨) قيل لإبراهيم الخواص إلى ماذا أدى بك التصوف ؟

فقال إلى التوكل فقال : ويحك بعد أن تسعى في عمران بطنك ! (٩)

(١) التعرف ص ١١٨ (٢) الرسالة القشيرية ص ١٦٦ (٣) التعرف ص ١١٩ (٤) اللمع ص ٧٩

(٥) الإحياء ج ٤ ص ٢٨١ الرسالة القشيرية ص ١٦٥ (٦) التعرف ص ١١٩ (٧) اللمع ص ٧٩

(٨) التعرف ص ١٢٠ (٩) التعرف ص ١٢٠

ومعناه إن توكلك عليه لأجل نفسك احترازاً من مكروه يصيبها .
ويذكر الغزالي عن المتوكل أنه :

إن كان مشتغلاً بالله وملازماً لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك التكسب ولا يكلفونه ذلك ، بل انشغاله بالله تعالى يقدر حبه في قلوب الناس حتى يحملوا إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس .
ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها (١)

ثم يقول " إذن عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا تحتسب (٢)

إذن هذا النوع من التوكل هو توكل على الناس واعتماد على كرمهم وانتظار لحصول الرقة والمحبة في قلوبهم بما يحتثم على بذل المال للمتواكل وهو غاية ما ينشده الصوفية من هذه الأقوال والدعاوي لأنهم يريدون الخلود إلى الراحة ويدعون غيرهم يعمل ويتعب ثم يتصدق عليهم

(١) الإحياء ج ٤ ص ٢٩٠

(٢) الإحياء ج ٤ ص ٢٩١

وأرى فيما قاله الغزالي وهو أن على المتوكل أن لا يفارق الناس ولا يهرب بل يبقى بينهم ما يناقض التوكل عند الصوفية ؛ لأنه إذا جلس في مكان منعزل قد يموت جوعاً ولكن وجوده بين الناس أنقذه من ذلك ، لأن هذا المتوكل توكل على الناس لا على الله وثقة بما عند الفقراء لا بما عند الغني الحميد (١)

وهذا مناقض لرأي الغزالي في إعطائه المرتبة الأولى للذي يخرج إلى البراري على التوكل ، وقد انقلب مفهوم التوكل عند الصوفية حتى صار مقام المكتسب أدنى من مقام هذا المتواكل وصار عندهم التسول بمعنى التوكل والتكسب والاهتمام بالرزق شرك في التوحيد !

(فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء أقبح فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن) (٢) فإنه يستقبح للعلماء التكسب وطلب الرزق أما القعود في البيوت وانتظار من يدق الأبواب ممن يتقرب إلى الله بدفع الصدقات فإنه أرفع مقام في التوكل وقد حاول الصوفية أن يطبقوا في حياتهم هذه المبادئ والآراء فوصلوا من ذلك إلى محو كل إرادة شخصية واستقبحوا الاعتماد على النفس واعتبروه تقصيراً في جنب الله وجعلوا أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل (٣)

(١) انظر دراسات عن التصوف ص ٣٢٥

(٢) الاحياء ٢٧٥/٤

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ١٦٣ وما بعدها

وأحسن دليل على هذه العقيدة وما تجسدت فيه من تصرف ما رواه
 الهجويري من أن درويشاً وقع في دجلة فرآه رجل وأدرك أنه لا يعرف
 السباحة فقال له (أتريد أن أرسل إليك من ينقذك ؟ فقال : لا . فقال له
 الرجل : أفتريد أن تغرق ؟ فقال لا . فقال له فأني شيء تريد ؟ فقال : أي
 شيء أريد ؟ أريد ما يريد الله لي) (١) وبعضهم يرى (أن التوكل محله
 القلب وأنه لا ينافي السعي والحركة لأن ما تعسر من الكسب فبتقدير من
 الله وما أنفق فبتقدير منه) (٢) وهؤلاء يتمثلون قول الرسول صلى الله
 عليه وسلم (اعقلها وتوكل) (٣) وذهب بعضهم : (إلى أن الأرزاق قد
 كتبت في اللوح المحفوظ وخلق قبل خلق الأجسام بألفي عام) (٤)
 وهكذا فهم بعض الصوفية واعتقدوا أن العلي القدير كفيلاً بأن يكفيهم
 حاجتهم دون اتخاذ الأسباب التي أمر بها وشرعها لعباده فلم يمارسوا تجارة
 ولا تعاطوا دواء في مرضهم وأيقنوا أن حظهم الذي كتب لهم سيصيبهم
 حتماً كما يصيب الطير ، وقد خاطب شقيق البلخي (٥) أحد مريديه قائلاً :
 (ليس لك بد من أن تجعل عملك كله لله لا لغيره وأنت لا تجعل عملك
 لغيره إلا طمعاً فيه أو حياءً أو خوفاً منه فإذا خفت أو طمعت في غيره وهو
 مالك الأشياء ورازقها قد اتخذت إلها غيره) (٦)

(١) كشف المحجوب ص ١٨٠ - ٣٧٩ والصوفية في الإسلام ص ٤٥

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٦٤

(٣) سبق تخريجه ص ٢٢٤

(٤) قوت القلوب ج ٢ ص ٧

(٥) هو أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي توفي سنة ١٩٤ هـ من مشايخ خراسان (الرسالة القشيرية ص ٣٩٧)

(٦) حلية الأولياء ج ٨ ص ٦٤

ولا يسعنا إلا أن نستنتج أن الصوفي قد صار إنساناً ضعيفاً هائماً على وجهه في البلاد بدون زاد حتى لا يفسد التزود اتكاله على الله فكان يحج إلى مكة ما شياً على القدمين فارغ الجراب .

لا يبالي بأن يهلك تعباً وجوعاً ومن المرجح على حد قول نيلكسون (أن يكون بعض هؤلاء المتوكلين قد قضى نحبه على هذا النحو) (١) وهو ما دعا سفيان الثوري إلى القول بأن (من رفض السؤال فمات جوعاً ألقى الله به في النار) (٢)

إلا أن بعض الصوفية قد عدلوا بمرور الزمن من معنى التوكل - حسب المفهوم الصوفي - نظراً لظروف حياتهم القاسية ولما يمكن أن ينجر عنه من آفات فصاروا يرون أنه لا يتنافى مع الكسب وأمسى بعضهم يرى ضرورة التداوي من الأمراض بعد أن كانوا يرفضون التطبيب لكن مذهب التوكل قد أدى في عصور الاحتطاط وعند انتشار الفرق الصوفية إلى استفحال ظاهرة الحتمية والاستسلام ومما أعان على انتشار هذه الآفة إكرام جمهور العامة لأهل الطرق وإسعافهم لهم بالولائم وولع الناس باستضافتهم (٣) كما وصف بعض المتأخرين تهالكهم على الطعام حتى أمسوا مشهورين بالنهم في الأكل بعد أن كانوا معروفين بالتقلل منه (٤)

(١) في التصوف الإسلامي ص ٥٥ (٢) في التصوف الإسلامي ص ٥٥

(٣) أحسن التقاسيم للمقسي ص ٤١٧ وانظر الموفي بمعرفة التصوف والصوفي تأليف كمال الدين أبي الفضل حقه الدكتور محمد عيسى صالحه الكويت ص ٦ وما بعدها

(٤) الحضارة الإسلامية تأليف آدم، مترجمة عربية د : محمد عبد الهادي أبو ريذة طبعة القاهرة ١٩٤٨ هـ

ج ٢ ص ٣٣ - ٣٤ وانظر الموفي بمعرفة التصوف والصوفي ص ٩

وغدا الصوفي على الأغلب رجلاً أكولاً كثير الفضول (١)

وبعض الصوفية جعلوا من عقيدة التوكل طريقة في العيش اتبعهم فيها غيرهم وأصبغوا عليها لوناً دينياً واعتبروها من طقوس العبادة حتى ظن العوام أنها من صميم الديانة وانعكس هذا الاعتقاد في لغة الخطاب فلهم عبارات هي من وحي الجبر الدال على اعتبار الرزق هبة من السماء .

وقد أنكر الإمام أحمد وغيره على من ترك الكسب وعلى من دخل المفازة بغير زاد وخشى عليه التعرض للسؤال وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيأتون مكة ويسألون الناس فأنزل الله هذه الآية ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ (٢) وظاهر كلام أحمد أن الكسب أفضل بكل حال فإنه سئل عمن يقعد ولا يكتسب ويقول توكلت على الله ، فقال ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب (٣) وروى الخلال بإسناده عن الفضيل بن عياض أنه قيل له : لو أن رجلاً قعد في بيته زعم أنه يثق بالله فيأتيه رزقه قال : إذا وثق بالله حتى يعلم منه أنه قد وثق به لم يمنعه شيء أراده لكن لم يفعل ذلك الأنبياء ولا غيرهم وقد كان الأنبياء يؤجرون أنفسهم ولم يقولوا نقعد حتى يرزقنا الله عز وجل (٤) قال تعالى ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (٥) فلا بد من طلب المعيشة لأن ذلك من سنن الله الكونية .

(١) الموفي بمعرفة التصوف والصوفي ص ٧ (٢) سورة البقرة ١٩٧ (٣) جامع العلوم والحكم ص ١٣

(٥) سورة الجمعة آية ١٠

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٤١٣

ج - أنواع التوكل عند الصوفية: -

قسم الصوفية التوكل إلى عدة أقسام تتفاوت في الدرجة والمكانة والشروط وبيان ذلك فيمايلي:

١ - التوكل الذي هو من المنجيات يقول الغزالي في إحيائه عن هذا النوع من التوكل قال أبو موسى الديلي (١) : قلت لأبي يزيد (٢): ما التوكل ؟ فقال : ما تقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ، ما تحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد : نعم ، هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتعممون ، وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل (٣)

فهذه صورة من مقام التوكل عندهم ، والذي يعدونه من المنجيات ولا أرى حاجة لمناقشته بالتفصيل ؛ لأنه قول ضال ومعول وهدم للأمر والنهي والثواب والعقاب الذي جاءت به شرائع الإسلام فمن زعم أن (أهل النار وأهل الجنة سيان !) (٤) فقد ساوى بين المسلمين والكفار واستهان بالنعيم الذي أعده الله لعبادة المؤمنين وبالجحيم الذي أعد لل كفر والمشركين .

٢ - توكل المنفرد ويسمى مقام الخواص (٥) ونظرائه وهو أعلى مقام في التوكل وهو أن يروض الرجل نفسه ويجاهدها على الصبر عن الطعام

(١) له أثر على ترجمته

(٢) يظهر أنه أبو يزيد البسطامي

(٣) الإحياء ٤ / ٢٢٧

(٤) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٩٠

(٥) أبو اسحاق إبراهيم بن أحمد بن اسماعيل الخواص توفي سنة ٢٩١ من أقران الجنيد وله في التوكل حظ كبير كن مبطوناً وقد مات بالري (الرسالة التفسيرية ص ٤١١)

أسبوعاً وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلاضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله ويقوى على التقوى بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة ويدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله عليه (١)

وقد كان إبراهيم الخواص مجرداً في التوكل يدقق فيه وكانت لا تفارقه (إبرة وخيوط وركوة ومقراض فقيل له : يا أبا اسحاق لماذا تحمل هذا وأنت تمتع من كل شيء ؟ فقال مثل هذا لا ينقض التوكل لأن لله علينا فرائض والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد فربما يتمزق ثوبه فإن لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته فتفسد صلاته وإذا لم يكن معه ركوة تفسد طهارته فإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه في صلاته) (٢) وهذا التوكل لا يتم إلا بأمرين :

- ١ - قدرته على الجوع أسبوعاً من غير استشراف وضيق نفس .
- ٢ - أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأت به رزقه علماً بأن رزقه الموت والجوع وهو إن كان نقصاً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنه سبق إليه خير الرزقين له : وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضياً بذلك وأنه كذا قضى وقدر له (٣) وكما أن طلب المال فرض على المؤمنين كذلك ترك الحلال فرض على العارفين (٤) .

وحسبي أن أقول لو كان هذا هو المنهج الشرعي المطلوب في الإسلام لما قامت لهذا الدين قائمة ولو أن أهل الأرض كلهم اعتنقوا هذا الدين ومشوا

(١) الاحياء ٤/ ص ٢٨٣ (٢) الرسالة القشيرية ص ١٦٧ (٣) الاحياء ٤/ ص ٢٨٩

(٤) المواهب السرمندية ص ٢٤٠ - الأنوار القلبية ص ٢١٣

على هذا الفهم المنحرف للتوكل لما توا جميعاً جوعاً وعطشاً عقب إسلامهم بأيام قليلة (١) فالدوران في البوادي بغير زاد ليس من الإسلام وهو بذلك موزور لا مأجور وإن مات فهو كالمنتحر (٢) وبعض الصوفية يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض في البوادي من غير زاد ليصحح التوكل وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنتقل عن الصحابة وسلف هذه الأمة - وقد كانوا أعلم بالتوكل منه - ما فهموا أن التوكل هو المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد (٣)

٣ - توكل المعيل (من له عيال)

يجب أن يلزم نفسه الصبر على الجوع مدة وعلى الإعتداد بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة في الآخرة وذلك بمساعدة العيال له ، وله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضاً وعياله عنده ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعد على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه لم يجزله التوكل أما من دخل البوادي وترك العيال توكلأً في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلأً في حقهم فهذا حرام لأنه قد يؤدي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذاً بهم (٤) ولذلك روى أن أبا تراب النخشي (٥) نظر إلى صوفي مديده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف إلزم السوق (٦) أي لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام .

(١) النقشبندية عرض وتحليل عبد الرحمن دمشقية ص ٤٠ "تبصرف" (٢) الكنف عن الحقيقة الصوفية ص ٣٩١

(٤) الأحياء ج ٤ ص ٢٨٩

(٣) الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين ص ٢٢١

(٥) عسكر بن حصين أو ابن محمد بن حصين النخشي شيخ عصره في الزهد أخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل وقف خمسة وخمسون وقفة بعرفات ومات بالبادية سنة ٢٤٥ هـ (الأعلام ٢٦، ٢٥/٥)

(٦) الرسالة القشيرية ص ٢٠٨

وقال أبو علي الروذباري (٥): إذا قال لك الصوفي بعد خمسة أيام أنا جائع فآلزمه السوق ومروه بالعمل وبالكسب (١)
والفرق بين توكل المنفرد وتوكل المعيل هو أن صاحب المقام الثاني لا يصح توكله إلا بمساعدة عياله بخلاف المقام الأول أما من حيث ترك الكسب فلا فرق بين المقامين فإن الاثنين معرضان عن الكسب . (٢)

٤ - توكل المكتسب

وهو أن يخرج العبد ويكتسب مع الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها (٣) فإن كان المكتسب مكتسباً لعياله أو ليفرق على المساكين فهو ببذنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع أي منقطع عن الرغبة في طلب الكسب .

والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل أن الصديق رضي الله عنه لما بوع بالخلافة نزل إلى السوق وقد وضع أثواباً تحت حضنه والذراع في يده وصار ينادي لبيعهما فاعترضه عمر وأبو عبيده رضي الله عنهما وقالاه : كيف تفعل ذلك وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فنهياه عن الاشتغال بالتجارة لأنه تولى أمر المسلمين وفرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم (٤) وهذا يدل على أن أبا بكر رضي الله عنه كان متوكلاً لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى

(٥) أحمد بن محمد بن مقسم انتقل إلى مصر وتوفي بها سنة ٣٢٢ وقيل سنة ٣٢٣ هـ. صاحب الجند والنوري

وابن الجلاء وأسند الحديث (انظر الحلية ١/ ٣٥٦ والطبقات ١/ ١٠٦)

(١) الرسالة التفسيرية ص ١٦٩

(٢) دراسات في التصوف ص ٣٣١ (٣) الأحياء ج ٤ ص ٢٨٥

(٤) تاريخ الطبري ٥٤/٣ طبقات ابن سعد ٣ / ١٨٤ وتبليغ ابيس ص ٣٦٠

قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدير الأسباب وهذا هو أدنى مقام في التوكل على حد زعم أهل التصوف .

والغزالي يجعل مقام الميت جوعاً أعلى بدرجتين من مقام أبي بكر رضي الله عنه في التوكل !! في حين لو وضع إيمان أهل الأرض في كفة وإيمان أبي بكر - رضي الله عنه - في أخرى لرجحت كفة أبي بكر رضي الله عنه والغزالي يقدح في توكل أبي بكر رضي الله عنه لأنه قام بالكسب والعمل لأهله واطعام عياله وكفايتهم ، ولو كان التكسب من أدنى مقامات التوكل لما طلبه الأنبياء ولما فعله نبينا صلى الله عليه وسلم (١) فقد قال صلى الله عليه وسلم (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده) (٢)

والأنبياء كانوا يرعون الغنم كما قال عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم (ما بعث الله نبياً إلا وقد رعى الغنم ، فقال أصحابه وأنت ؟ فقال نعم كنت أرى على قراريط لأهل مكة) (٣)

فهل نعرض عن هدى الأنبياء ونأخذ بقول الداراني (٥) : (من طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا) (٤)

٥ - التوكل العام : على الشفاعة (٥)

وهو التوكل في المضمون من الرزق المعلوم ، فالله قد أقسم بنفسه أن

(١) دراسات عن التصوف ص ٣٣٢ (٢) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب البيوع حديث رقم ٢٠٧٣

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الإجارة حديث رقم ٢٢٦٢ (٤) الاحياء ٢٤/٢

(٥) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العبيسي أو العنسي أو الداراني وداريا قرية من قرى دمشق توفي

سنة ٢٠٥ وقات السلمي سنة ٢١٥ (صفوة الصفوة ١٨٩/٤ والحنية ٩/ ٢٥٤ والطبقات ١/ ٧٩)

(٥) مراجع القلوب ص ١٤

الرزق في السماء كما أن كلامه حق وقد جمع بينهما في القسم بالذات لتسكن بذلك نفوس الخليقة عن النظر إلى الأدوات ليرتفع الشك ويحصل اليقين (١) فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ فُورَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْتَقُونَ﴾ (٢)

والتوكل العام له بعض الشروط ذكرها الصوفية ، قال: أبو تراب النخشي حين سئل عن التوكل فقال: التوكل طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر وإن منع صبر راضياً موافقاً للقدر (٣)

وقال أبو بكر الزقاق (٤) عن التوكل : رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد وسئل رويم (٥) عن التوكل فقال : الثقة بالوعد (٦) وترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك (٧) .
فيؤلاء أشاروا إلى التوكل العام كلاً حسب حاله ومقامه .

(١) قوت القلوب ص ٨

(٢) سورة الذاريات : آية ٢٣

(٣) التمع ص ٧٨

(٤) هو أحمد بن النصر الزقاق الكبير كان من أقران الجنيد ومن أكابر مصر (الرسالة القشيرية ص ٤١٧)

(٥) هو أبو الحسن رويم بن أحمد وفي طبقات الشعرائي أبو محمد رويم بن أحمد وفي صفوة الصفوة رويم بن أحمد ويقال ابن محمد أبو الحسن بغدادي الأصل فقيهاً على مذهب داود الأصفهاني توفي سنة ٣٠٣ في بغداد

ودفن بالشونيزية (الطبقات ١ / ٨٨ صفوة الصفوة ٢ / ٢٨٥ الحلية ١٠ / ٢٩٧)

(٦) التمع ص ٧٨

(٧) الرسالة القشيرية ص ١٦٥

٦ - توكل أهل الخصوص : على الطاعة (١)

وهو شغل الخصوص بأعمال الآخرة وبالخدمة للمولى الذي وكل إليهم فإن يقوموا به لم يقم به غيره لهم ولم ينب غيره من الدنيا منابه (٢) لقوله تعالى : ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣) وقوله سبحانه : ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ﴾ (٤)

وهو كما قال أبو العباس بن عطاء (٥) : من توكل على الله لغير الله لم يتوكل على الله في توكله حتى يتوكل على الله بالله لله ويكون متوكلاً على الله في توكله لا لسبب آخر، أو كما قال أبو يعقوب النهرجوري (٦)، وقد سئل عن التوكل ، فقال : موت النفس عند ذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة ،

وقد قال أيضاً أبو بكر الواسطي : أصل التوكل الفاقة والافتقار ، وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسرّه إلى توكله لحظة في عمره وهذا توكل المتوكلين وهم أهل الخصوص (٧).

(١) سراج القلوب ص ١٤

(٢) قوت القلوب ص ٨

(٣) سورة النجم : آية ٣٩

(٤) سورة الشورى : جزء من آية ٢٠

(٥) أحمد بن محمد بن سهل بن عطا الأدي كان من طرّاف مشايخ الصوفية له لسان في القرآن مختص به صاحب الجنيّد وإبراهيم المارستاني وكان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه مات سنة ٣١١ وقيل ٣٠٩ وقال ابن الجوزي توفي سنة ٣٠٩ هـ (الطبقات ١ / ٩٥ وصفوة الصفوة ٢ / ٢٨٧ الحلية ١٠ / ٣٠٢)

(٦) أبو يعقوب اسحاق بن محمد بن أيوب النهرجوري صاحب الجنيّد وعمر بن عثمان المكي وأبى يعقوب السوسي وأقدم باحرم مجاوراً سنين كثيرة توفي سنة ٣٣٠ هـ (الطبقات ١ / ١١١ الحلية ١٠ / ٣٥٦)

(٧) التمع ص ٧٩

٧ - توكل خصوص الخصوص : على العناية (١)

وهو ما قاله الشبلي (٢) حين سئل عن التوكل فقال : أن تكون لله كما لم تكن ويكون الله تعالى لك كما لم يزل .

وكما قال بعضهم : حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من خلقه على الكمال لأن الكمال بالكمال لا يكون إلا لله جل جلاله وسئل أبو عبد الله بن الجلاء (٣) عن التوكل فقال : الايواء إلى الله وحده في جميع الأحوال وسئل الجنيد عن التوكل فقال : اعتماد القلب على الله تعالى .

وقد حكى عن أبي سليمان الداراني أنه قال لأحمد بن أبي الحواري (٤) : يا أحمد ، إن طرق الآخرة كثيرة وشيخك عارف بكثير منها إلا هذا التوكل المبارك فإني ما سمعت منه رائحة وليس لي منه مشام الريح .

وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبراً ويدفنها فيه وينسى الدنيا وأهلها ؛ لأن حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله (٥) فهذه إشارات إلى حقيقة توكل أخص الخصوص .

(١) سراج القلوب ص ١٤

(٢) اختلف في اسمه فقيل دلف بن جعفر وقيل دلف بن جحدر وقيل اسمه جعفر بن يونس أصله خراساني من أهل سروسة من قرية يقال لها شبلي ومولده بسر من رأي صاحب الجنيد وتفقه على مذهب الإمام مالك عاش سبعاً وثمانين سنة ومات سنة ٣٣٤ ودفن ببغداد (صفوة الصفوة ٢ / ٢٩٤ الطبقات ١ / ١٠٣ الحنية ١٠ / ٣١٦)

(٣) أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء من أهل بغداد لكنه انتقل فسكن الشام توفي : سن ٣٠٦ (صفوة الصفوة ٢٨ / ٢ الطبقات ٨٧ / ١)

(٤) أحمد بن الحواري يكنى أبا الحسن واسمه ميمون سكن دمشق وكان له ابن يقال له عبد الله من الزاهدين توفي سنة ٢٠٣ (الصفوة ٤ / ٢٠١ الطبقات ٨٢ / ١)

(٥) اللمع ص ٧٩

المبحث الثالث : أحوال المتوكلين وأعمالهم عند الصوفية :

إن أحوال المتوكلين تتفاوت في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه ، ولا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه (١) كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ (٢) والتوكل حالة في القلب وهي الثقة بالوكيل الحق وقطع الالتفات إلى غيره (٣) وهذه الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :-

الدرجة الأولى : الثقة في الوكيل بعد اعتقاد كماله في الهداية والقدرة .
الدرجة الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها فهو قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له (٤) ولكنه في توكله فان عن توكله فإنه ليس يحصله بفكر وكسب وإن كان لا يخلو توكله عن نوع إدراكه (٥) والفرق بين الأول والثاني هو :-

أن الثاني متوكل وقد فني في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ؛ بل إلى المتوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه .
أما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانياً عن توكله لأن له التفاتاً إلى توكله وشعوراً به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل : ما أدناه ؟ قال : ترك

(١) الاحياء ج٤ ص ٢٧٧ (٢) سورة البقرة آية : ٢٦٠

(٣) حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب ص ١٤٣ (٤) الاحياء ج٤ ص ٢٧٨ (٥) حياة القلوب ص ١٤٣

الأمانى قيل وأوسطه ؟ قال : ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية
وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه (١)
الدرجة الثالثة : أن يكون بين يدى الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل لا
كالصبي فإن الصبي يزعم بأمه ويتعلق بذيلها ؛ بل هذا كصبي علم أنه وإن
لم يزعم بأمه فإنها تطلبه وإن لم يتعلق بذيلها تبتدى بإرضاعه وإن لم
يطلب منها ذلك فيكون هذا الشخص في حق الله تعالى ساقط الاختيار ليس
بقلبه اضطراب بل يتلقى القدر والأحكام بالرضا والتسليم مع التفويض (٢)
وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ،
وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل فكم من نعمه ابتدأها قبل السؤال والدعاء
وبغير الاستحقاق ، والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وإنما
يقتضي ترك السؤال من غيره (٣)

بيان ما قاله الصوفية في أحوال التوكل :

سئل ذو النون المصري : ما التوكل ؟ فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب
، فقال السائل زدني فقال إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من
الربوبية (٤) وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة والمقصود بخلع
الأرباب هو خلع ما سوى الله - تعالى - مما يملك القلب ويسيطر على

(١) الأحياء ج٤ ص ٢٧٨

(٢) حياة القلوب ص ١٤٤

(٣) الأحياء ج٤ ص ٢٧٨

(٤) الرسالة التفسيرية ص ١٦٥

شخصية الإنسان ويجعل الإنسان مسخراً له كالدرهم والدنيا وغيرها
 وسئل حمدون القصار (١) عن التوكل ؟ فقال : إن كان لك عشرة آلاف
 درهم عليك دائق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك ، ولو كان
 عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله
 أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة وأن في
 المقدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة (٢) وسئل أبو عبد الله
 القرشي عن التوكل ؟ فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال ، فقال السائل
 زدني ؟ فقال : ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو
 المتولى لذلك ، فالأول عام للمقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث
 خاصة ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل
 عليه السلام ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا ، إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى
 سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر
 جبريل لذلك فيكون هو المتولى لذلك ، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه
 بالله تعالى فلم ير معه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أبعد
 منه وأعز (٣)

وقال أبو علي الدقاق (٤): التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم

(١) أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار توفي سنة ٢٧١ هـ بنيسابور انتشر عنه مذهب المالكية
 بنيسابور صاحب سلمان الباروسي وأبا تراب النخشي (الرسالة القشيرية ص ٤٢٦)

(٢) الأحياء ج٤ ص ٢٨١

(٣) الأحياء ج٤ ص ٢٨١

(٤) انظر ترجمته في الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٨٩

التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده وصاحب التسليم يكتفي بعمله وصاحب التفويض يرضى بحكمه فالتوكل بداية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ، فالتوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين ، التوكل صفة العوام . والتسليم صفة الخواص والتفويض صفة خاصة الخاصة ، التوكل صفة الأنبياء والتسليم صفة إبراهيم الخليل والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١)

ومعنى هذا التوكل : اعتماد الموكل على الوكيل وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه وإرادة وشائبة منازعة ، فإذا سلم إليه زال عنه ذلك ورضى بما يفعله وكيله وحال فوق هذا فإنه طالب مريد ممن فوض إليه ملتزم منه أن يتولى أموره فهو رضى واختيار وتسليم واعتماد (٢)

(١) مدارج السالكين ج ٢ ص ١٢٢

(٢) مدارج السالكين ج ٢ ص ١٥٣

وبعد فهذا بعض كلام الصوفية عن أحوال المتوكلين وسأعرض بعض هذه الأحوال :-

أولاً :- التعرض لأسباب الادخار:

لمن حصل له مال بآرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادخار عند الصوفية ثلاثة أحوال :-

أ - أن يأخذ قدر حاجته فيأكل إن كان جائعاً ويلبس إن كان عارياً ويشترى مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً ويفرق الباقي في الحال ، ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقاً وهي الدرجة العليا .

ب - أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكلين أصلاً ؛ وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة والنملة وابن آدم - على حد زعمهم - ج - أن يدخر لأربعين يوماً ؛ فهذا يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين (١) وكلما قلّت مدة الإدخار كانت الرتبة أعظم شأنًا وقدرًا (٢) ورداً على ذلك أقول وبالله التوفيق :

(١) الأحياء ج٤ ص ٢٧٦

(٢) الأربعين في أصول الدين أبي حامد الغزالي طبعة دار الأفاق الحنيدة بيروت ص ١٨٧

إذا كان العبد يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى ، فالرسول عليه الصلاة والسلام بعث إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ، بل إنه أمر من ليس له حرفه بالعمل والكسب فقال صلى الله عليه وسلم : (لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسألاً أحداً فيعطيه أو يمنعه) (١) ودعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا زهداً وورعاً لا ترك العمل بالكلية وإنما السعي والتوجيه إلى الله تعالى لأنه هو مقدر الأرزاق والصواب في ذلك أن الادخار قدر الحاجة لا ينافي الشريعة وما ذهب إليه الصوفية فلا يعتد به وما أوردوه من تقسيمات في هذا الشأن ليس لها سند ولا يعضدها دليل ويتأكد الادخار في حق المعيل أكثر من غيره ولا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وقد اضطربت أقوال الصوفية في ذلك حتى إن بعضهم قال بأفضلية عدم جمع المال ورأى أن من جمع المال أو قال به فقد خالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب البيع حديث رقم ٢٠٧٤

ومن كلام الحارث المحاسبي في هذا أنه قال : أيها المفتون متى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركة فقد أزريت بمحمد صلى الله عليه وسلم والمرسلين وزعمت أن محمداً لم ينصح الأمة إذ نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمعه خيراً لهم (١) والتحقيق في هذا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - ادخر لأهله قوت سنة (٢)

فهل يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقام المتوكلين بناء على المنهج الصوفي الفاسد في التوكل (٣) وكلام المحاسبي فخطأ و يذل على جهل بالعلم وقوله : إن الله - عز وجل - نهى عباده عن جمع المال وإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نهى أمته عن جمع المال فهذا محال إنما النهي عن سوء القصد بالجمع أو عن جمعه من غير حله (٤)

ثانياً : أحوال المتوكلين في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف (٥) •

يقف بعض الصوفية من الأخطار والأسباب المؤدية لها موقفاً سلبياً لاعتقادهم أن ذلك يخالف التوكل ، ولذلك يلقون أنفسهم بالمهالك ويتعرضون لمخاطر الوحوش الكاسرة ولا يصاحبون من يخافها أو يتخذ

(١) الأربعين في أصول الدين أبي حامد الغزالي دار الأفاق الجديدة بيروت ص ١٨٧ وهذا الكلام المنسوب للمحاسبي يخالف ما ذكره في كتابه (المكاسب) تحقيق عبد القادر أحمد ، مؤسسة الكتب الثقافية ص ٦١ إذ أنه يعيب على بعض الصوفية جلوسهم عن الكسب، وهذا بين اضطراب القوم وتضاد أقوالهم في كثير من المسائل •
(٢) تيسير ينيس ص ٢٤٠ - ٢٤١ وحدث (ادخر نعيته قوت سنة) رواه البخاري في الصحيح كتاب النفقات حديث رقم ٦٨٨٣

(٣) دراست عن التصوف ص ٣٣٠

(٤) تيسير ينيس ص ٢٤٤

(٥) الإحياء ج ٤ ص ٢٩٦

الوسائل والأسباب المعينة له لحماية نفسه من أضرارها (١) ولا يقتلون العقارب والحيات حتى لو سعت على أجسادهم ويمنعون من يريد أن يقتلها (٢) ومنهم من ينزل إلى المياه وسط التماسيح متعمداً لذلك الفعل دون أن يأخذ أدنى احتياط (٣) ويدعون أنهم لا يخافون من المؤذيات جميعاً ؛ لأنهم في مقام اليقين (٤) ٠

أقول إن هذه الأعمال والأفعال ليست من التوكل في شيء ؛ لأن صيانة النفس من الأذى واجب على كل إنسان قال - تعالى - : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ (٥) ثم إن الخوف أمر فطري وقد خاف الأنبياء والرسل عليهم السلام وهم قطعاً أفضل وأعز من الصوفية قال تعالى : عن خليله إبراهيم ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ (٦) وقال تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ (٧) وقال - تعالى - عن داود - عليه السلام - ﴿ إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف ﴾ (٨) وكذلك ليس من التوكل عدم دفع ما فيه ضرر في النفس

(١) انظر المع ص ٢٣٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٠

(٣) انظر كرامات الأولياء ج ٢ ص ٢٧٨

(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٧٩

(٥) سورة البقرة آية ١٩٥

(٦) سورة هود جزء من الآية ٧٠

(٧) سورة طه الآية ٦٧

(٨) سورة ص جزء من الآية ٢٢

كالنوم في الأرض المسبعة أو تحت الجدار المائل فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك من غير فائدة .

وتبعاً لذلك فتنقسم الأسباب الدافعة للضرر إلى : مقطوع بها ومظنونة وإلى موهوم فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية فإن الكي والرقية قد تقدم به على المحذور دفعاً لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة .

وأما ترك الأسباب الدافعة للضرر ففيها تفصيل حتى وإن كانت مقطوعة فإذا ناله الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وهو قادر على الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر خصوصاً إذا كان في ذلك تحقيق مصلحة دينية أو دنيوية مشروعة قال الله تعالى : ﴿ ٥٠٠ فاتخذه وكيلاً واصبر على ما يقولون ﴾ (١) وقال سبحانه وتعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ٥٠٠ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ ٥٠٠ نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (٣) هذا في أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه .

أما الأسباب الدافعة للأذى المحقق أو المتوقع فلا ينقص التوكل باتخاذها كإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل ثم يتوكل على الله لقوله -

(١) سورة المزمل جزء من الأيتين ١٠، ٩

(٢) سورة الأحقاف جزء من الآية ٣٥

(٣) سورة العنكبوت جزء من الأيتين ٥٨، ٥٩

صلى الله عليه وسلم - : (اعقلها وتوكل) (١) كما أن اتخاذ الحذر والحيلة لا يقدح بالتوكل لأمر الله به إذ قال تعالى : ﴿ ٥٠٠ خذوا حذرکم ٥٠٠ ﴾ (٢) وقد شرع الله صلاة الخوف بعدة صفات تتناسب مع الأحوال التي يكون فيها القتال (٣) قال تعالى في كيفية صلاة الخوف : ﴿ ٥٠٠ وليأخذوا أسلحتهم ٥٠٠ ﴾ (٤) حذراً من مباغتت الأعداء وقال - سبحانه - : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ٥٠٠ ﴾ (٥) لصد أي خطر قادم وقال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ فأسرعبادي ليلاً إنكم متبعون ﴾ (٦) لأن السير بالليل سبب للاختفاء عن أعين الأعداء وهذه الأسباب التي أمر الله بها أما أسباب مقطوع بها أو مظنون به وأما السبب الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه وإذا أخذ المتوكل سلاحه حذراً من العدو وأغلق بابه حذراً من اللص وعقل بغيره حذراً من أن ينطلق يكون متوكلاً بالعلم والحال فأما العلم فهو علمه بأنه لا يندفع شيء إلا بدفع الله - تعالى - إياه وأما الحال فهو أن يكون راضياً

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٤

(٢) سورة النساء جزء من الآية ٧١

(٣) انظر حاشية الروض المربع ج ٢ ص ٤١١

(٤) سورة النساء جزء من الآية ١٠٢

(٥) سورة الأنفال جزء من الآية ٦٠

(٦) سورة الدخان الآية ٢٣

والمتوكل لا يخلو بيته من ضرورات الحياة ومن أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلان لتوكلة (١)

ويرى الصوفية أن للمتوكل أربعة آداب في متاع بيته إذا خرج عنه:
الأول : أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسك من الجيران بالحفظ مع الغلق أو كجمعه أغلاقاً كثيرة فقد كان مالك بن دينار (٢) لا يغلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول : لولا الكلاب ما شددته أيضاً .
الثاني: ألا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه السارق فيكون هو سبب معصيتهم .

الثالث : أما ما يضطر إلى تركه في البيت فينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول : ما يأخذه السارق فهو في حل أو في سبيل الله تعالى وإن كان فقيراً فهو عليه صدقة .
الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول : لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين وإن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل فيترك طلبه فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فإن أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم

(١) الاحياء ج٤ ص ٢٩٧

(٢) مالك بن دينار يكنى أبا يحيى مولى لامرأة من بني سامة بن لوي وكان ثقة قليل الحديث وكان يكتب المصاحف أسند عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين وتوفي قبل الطاعون سنة ١٢١ (طبقات ابن

لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند المتوكلين (١) وليس من التوكل أن يتعقب المرء الجناة لينالوا على يد الوالي جزاء ما قدمت أيديهم بل التوكل هو أن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغتم لأن هذا السارق المسكين عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله أن جعله من المظلومين لا من الظالمين (٢)

وأن يجعل الرجل ما سرق منه ذخيرة له في الآخرة وإن أعيد إليه فالأولى أن لا يقبله. (٣)

ثانياً : حالة المتوكلين في إزالة الضرر الذي قد نزل به كالتداوي من المرض وأمثاله .

يقول الغزالي : اعلم أن الأسباب المزيللة للمرض تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب وهي الأسباب الظاهرة وإلى موهوم كالكي والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه ؛ بل تركه حرام عند خوف الموت وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها الكي ويليها الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضاً للتوكل بخلاف الموهوم ؛ بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهو على درجة بين الدرجتين

(١) الإحياء ج٤ ص ٢٨١ - ٢٨٢

(٢) دراسات عن التصوف ص ٣٣٤

(٣) الأخلاق عند الغزالي ص ١٨٨ - ١٨٩

ويدل على أن التداوي غير مناقض للتوكل (١) قول الرسول صلى الله عليه وسلم وأمره به فأما أمره صلى الله عليه وسلم فبقوله (تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء) (٢) وأما قوله فقد قال عليه السلام : (ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء) (٣)

وسئل صلى الله عليه وسلم عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال صلى الله عليه وسلم : (هي من قدر الله) (٤) ويجوز عند بعض الصوفية ترك التداوي لأسباب عديدة منها :

١ - أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه .

٢ - أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر

٣ - أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض إذا طال تكفيراً فيترك التداوي خوفاً من أن يسرع زوال المرض (٥).

(١) الإحياء ج٤ ص ٣٠١

(٢) كشف الخفاء حديث رقم ٩٦١

(٣) رواية البخاري في الصحيح كتاب الطب حديث رقم ٥٦٧٨

(٤) رواية ابن ماجه في سننه كتاب الطب حديث رقم ٣٤٣٧

(٥) انظر الإحياء ج٤ ص ٣٠٤

وللرد على ذلك أقول وبالله التوفيق :

إن قول الصوفية الأول فيه اثبات علم المكاشفة بإنتهاء الأجل وهذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وحده سبحانه قال - تعالى - في سورة لقمان ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١) وروى البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيب الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله) (٢)

والقول الثاني يبررون فيه ترك التداوي لنيل ثواب المرض بالصبر على البلاء وهذا محل نزاع وعلى أية حال فالعبد مأجور بصبره على ما لا يملك رده من البلاء أما صبره عما يملك رده من هلاك أو مرض فالصحيح عدم ذلك فقد يكون مسئولاً عن إهلاك نفسه في حين كان يملك السبب الذي يدفع

(١) سورة لقمان الآية ٣٤

(٢) صحيح البخاري كتاب التوحيد حديث رقم ٧٣٧٩

به هذه التهلكة (١) وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الدعاء فقال : (سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة) (٢) وقال صلى الله عليه وسلم : (ما من دعوة يدعو بها العبد أفضل من اللهم إني أسألك المعافاة في الدنيا والآخرة) (٣)

وأما القول الثالث فإن حالة قريب من الأمر الثاني فإن ترك التداوي يعرض صاحبه للموت وهذا قد لا يكون كفارة للذنوب بل يحتمل أن يكون زيادة فيها ومخالف لهدى الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - حيث أمر بالتداوي فقال صلى الله عليه وسلم : (تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الشفاء) (٤) وكذلك أمر عليه السلام بسؤال العافية كما مر في الحديثين السابقين .

(١) دراسات حول التصرف ص ٣٣٣

(٢) حديث صحيح رواه ابن ماجه في سننه كتاب الدعاء حديث رقم ٤٣٤٨

(٣) حديث صحيح رواه ابن ماجه في سننه كتاب الدعاء حديث رقم ٣٨٥١

(٤) كشف الخفاء حديث رقم ٩٦١

ثالثاً : أقوال الصوفية في إزالة الضرر الذي قد نزل بالمتوكل :

دخل ذو النون على مريض من أصحابه يعودده فقال له : ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه فقال المريض : ليس بصادق في حبه من لم يتلذذ بضربه (١) وكان بأبي يعقوب النهرجوري : وجع في بطنه سنين وكان يقول : أعرف دواءه بقيراط فضه يذهب بهذه العلة ولكن لم يداوه إلى أن خرج من الدنيا وكان علاجه الكي فكان لا يداويه من أجل النهي (٢)

وكان بسهل بن عبد الله البواسير الظاهرة فكان يحتاج أن يتوضأ لكل صلاة وكان يقول : أعرف له دواء بقيراط ولم يداوه إلى أن خرج من الدنيا وكان لا يداويها حتى لا تتكشف عورته ولا ينظر إلى عورته أحد (٣) ويقال إن بشراً الحافي مرض مرضه فدخل عليه الطبيب فأخذ بشر يصف للطبيب ما به فقبل له : يا أبا نصر ، أما تخشى أن تكون هذه شكاية فقال لا ، إنما أخبره بقدرة القادر على (٤)

فهذه أقوال لبعض الصوفية وأحوال المتوكلين التي كانت لهم ، وفي تحقيق هذا الأمر أقول وبالله التوفيق : إذا ثبت أن التداوي مباح بالإجماع مندوب إليه عند بعض العلماء فلا يلتفت إلى قول قوم قدروا أن التداوي خارج عن التوكل لأن الإجماع على أنه لا يخرج من التوكل وقد صح عن

(١) اللع من ٢٧١

(٢) اللع من ٢٧١

(٣) اللع من ٢٧٢

(٤) اللع من ٢٧٢

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تداوى وأمر بالتداوى ولم يخرج بذلك من التوكل ولا أخرج من أمره أن يتداوى من التوكل وفي صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم (رخص إذا اشتكى المحرم عينه أن يضمها بالصبر) (١) ، ففي هذا الحديث دليل على فساد ما يقوله ذوو الغباوة من أهل التصوف والعباد من أن التوكل لا يصح لأحد عالج عله به في جسده بدواء إذ ذاك عندهم طلب العافية من غير من بيده العافية والضرر والنفع وفي إطلاق النبي - صلى الله عليه وسلم - للمحرم علاج عينه بالصبر لرفع المكروه أول دليل على أن معنى التوكل غير ما قاله المتصوفة (٢) فإذا أبيح الدواء للمحرم كان مباحاً لغيره من باب أولى ، وشواهد إباحة التداوى كثيرة ومما يدل على ذلك أنه ينذر أن نجد كتاب حديث نبوي إلا وفيه باب للطب مما يؤكد أن التطبيب والتداوى مباح في الإسلام متى كان وفق الهدى النبوي الشريف (٣)

(١) صحيح مسلم كتاب الحج حديث رقم ٧٢٩

(٢) تلبس ابليس ص ٣٦٦

(٣) انظر مثلاً صحيح البخاري كتاب الطب وصحيح مسلم كتاب الطب وغيرهما من كتب الحديث

ثالثاً : أعمال المتوكلين :

إن الله سبحانه قد أمر العباد بالاكْتِسَاب وطلب المعاش ليستعينوا بذلك على طاعة الله والله يقول في كتابه العزيز ﴿... وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١) ففرق بين الاكْتِسَاب وبين العبادة وقال ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ...﴾ (٢) فسمى جناية المرء على نفسه كسباً والمرء لا ينال من الدرجات أعلاها إلا بالاكْتِسَاب فهو معين له على أداء الفرائض فإذا أراد العبد الصلاة لا بد له من ثياب يستتر عورته ولا يحصل له ذلك إلا بالكسب وهو طريقة المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ونحن مأمورين بالافتداء بهديهم قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ...﴾ (٣) وأول من اكتسب أبونا آدم - عليه السلام - قال تعالى: ﴿فَلَا يَخْرُجْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (٤) أي تتعب في طلب الرزق وقال مجاهد رحمه الله في تفسيره لا تأكل خبزاً بزيت حتى تعمل عملاً إلى الموت (٥) والله سبحانه لما شرع التوكل لعباده أباح لهم الحركة وحد لهم حدوداً في الحركة وفرض عليهم فروضاً أحكمها وبينها في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام فقال ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ (٧) وقال عليه السلام: (إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم) (٨) فبين الله تعالى الغرض من ذلك على الخلق في كتابه وسنة نبيه وفيما اجتمع عليه أهل العلم وهو أن يوافقوه في الحركة فمن كانت حركاته في طلب الرزق

(١) سورة الجمعة جزء من آية : ١٠ (٢) سورة الثورى آية : ٣٠ (٣) سورة الأنعام آية : ٩٠ (٤) سورة طه آية : ١١٧

(٥) الاكْتِسَاب في الرزق المستطاب من ١٩ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٩٦ (٦) سورة البقرة آية : ١٨٨

(٧) سورة البقرة آية ٢٦٧ (٨) رواية البخاري في الصحيح كتاب الأئوب حديث رقم ٦٠٤٣

من إقامة الحق وتصحيح الورع في المتجر وفي الصناعات كان لله بذلك مطيعاً محموداً عند أهل العلم ومن خالف شيئاً من ذلك فتعدى في الحركة وتخلف عما يجب عليه من الصدق كان بذلك مذموماً قد نقص بذلك توكله ولم يؤد فرضه (١) والكسب نوعان كسب من المرء لنفسه وكسب منه على نفسه فالكاسب لنفسه هو الطالب لما لا بد له من المباح والكاسب على نفسه هو الباغي لما عليه فيه جناح نحو ما يكون من السارق والنوع الثاني منه حرام بالاتفاق قال تعالى : ﴿ ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه.. ﴾ (٢) وقال عز وجل ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ٠٠٠ ﴾ (٣) والمذهب عند الفقهاء من السلف والخلف رحمهم الله : أن النوع الأول من الكسب مباح على الإطلاق (٤) ولا يضر التكبس لمن يصح توكله ولا يقدر في مقامه ولا ينقص من حاله قال الله سبحانه ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ وجعلنا لكم فيها معاشاً قليلاً ما تشكرون ﴾ (٦) . والتوكل من شرط الإيمان ووصف الإسلام قال تعالى ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ (٧) فاشتترط في الإيمان به والإسلام له التوكل عليه فإن كان حال المتوكل التصرف فيما قد وجه فيه ودخل في الأسباب وهو ناظر إلى المسبب في تصريفه معتمداً عليه واثق في حركته متسبب فيما يقبله فيه مولاة متعيش فيما يسببه له ويكون متبعاً للسنة والأثر تاركاً للترفة والتنعيم فهو في تكسبه وتصرفه أفضل مما دخلت عليه العلل في توكله (٨)

(١) الاكتساب ص ٥٠، ٥١ (٢) سورة النساء آية ١١١ (٣) سورة النساء آية ١١٢ (٤) الاكتساب ص ٢١
(٥) سورة النبا آية : ١١ (٦) سورة الأعراف آية : ١٠ (٧) سورة يونس آية : ٨٤ (٨) قوت القلوب ص ١٧

وشروط الكسب أن لا يركن إلى كسبه ولا يرى رزقه من كسبه ولا يكون في كسبه مغتماً بل ينوي بذلك معاونة المسلمين ولا يشغله كسب عن أول أوقات الصلاة المفروضة ، ويتعلم العلم حتى لا يأكل الحرام فمتى ما ترك خصلة من هذه الخصال فقد صار كسبه معلولاً بعاهة وإن كان له إخوان ممن لم يكتسبوا ويعلم أنهم محتاجون فيجب عليه أن يتقدمهم بما فضل من قوته فمن لم يقدّم بهذه الشروط فأخشى عليه الغلط في إعجابه وتعلقه باكتسابه (١) وسئل الجنيد عن الكسب فقال : يستقى الماء ويلقط النوى (٢) وسأل رجل صوفياً (٣) بالبصرة وكان يتكلم في فضل المكاسب فقال له : أيها الشيخ ، نحن مستعبدون بالكسب أم بالتوكل فقال التوكل حال الرسول صلى الله عليه وسلم والكسب سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما استن لهم الكسب لعلمه بضعفهم حتى إذا سقطوا عن درجة التوكل التي هي حالة لا يسقطون عن درجة طاب المعاش التي هي سنته ولولا ذلك لهلكوا (٤) وزعم أهل النقشف وحمقى أهل التصوف أن الكسب حرام لا يحل إلا عند الضرورة بمنزلة تناول الميتة وقالوا إن الكسب ينفي التوكل على الله أو ينقص منه وقد أمرنا بالتوكل قال تعالى ﴿ ٥٠٠ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ (٥) فما يتضمن نفي ما أمرنا به من التوكل يكون حراماً والدليل على أنه ينفي التوكل قوله صلى الله عليه وسلم (لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً) (٦) وقال تعالى ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (٧) وفي هذا حث على

(١) اللع ص ٥٢٤ (٢) اللع ص ٢٥٩

(٣) هو يوسف بن سالم خالد الملمي وهو جد الشيخ أبي عبد الرحمن الملمي شيخ القطيري (٤) اللع ص ٢٥٩

(٥) سورة المائدة آية : ٢٣ (٦) أخرجه أحمد في مسنده ٥٢/١ والترمذي والحاكم (فيض القدير حديث رقم ٧٤٢٠)

(٧) سورة الذاريات : ٢٢

ترك الاشتغال بالكسب وبيان أن ما قدر له من الموعود يأتيه لا محاله وقال تعالى ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ٠٠٠ ﴾ (١) والخطاب في الآية وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد منه أمته فقد أمروا بالصبر (٢) والصلاة وترك الاشتغال بالكسب بطلب الرزق قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ٠٠٠ ﴾ (٣) وقد حدد الصوفية الأسباب التي بها يجلب النافع المفقود عندهم على ثلاث درجات مقطوع به ، مظنون ظناً يوثق به ، وموهوماً وهماً لا تثق النفس به ثقة تامة ،

الدرجة الأولى : المقطوع به وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيتته ارتباطاً مطرداً لا يختلف والتوكل في هذا المقام بالحال والعلم فالحال أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله والعلم بأن تعلم بأن الله خلق كل شيء (٤)

الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيداً - كالذي يطرق البوادي من غير استصحاب زاد - وهذا ليس شرطاً في التوكل بل استصحاب الزاد سنة الأولين ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد وفعل ذلك جائز وهو من أعلى مقامات التوكل (٥)

(١) سورة طه آية : ١٣٢

(٢) الاكتساب ص ٢١

(٣) سورة الذاريات آية : ٥٦

(٤) الأحياء ج٤ ص ٢٨٢

(٥) الأحياء ج٤ ص ٢٨٢

الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم افضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة وهذا يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم : أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهه فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب وهذا يبطل التوكل (١)،

وقال بعض الصوفية : إذا استوى عند العبد وجود السبب وعدمه وكان قلبه ساكناً مطمئناً عند العدم لم يشغله ذلك عن الله ولم يتفرق همه فترك التكتسب والقعود لهذا أفضل لشغله بحاله وتزوده لمعاده وقد صح له مقام في التوكل (٢) وعلى هذا فالتكتسب والأسباب طرق أودعها العطاء والأرزاق لا هي تعطي وترزق فالتوكل المتسبب موقن أن الله سبحانه وتعالى هو المعطي والمانع وأنه هو المسبب الرزاق والذي ينقص التوكل هو اكتساب الشبهات أو السعي بالتكتسب للجمع والافتخار أو التشرف إلى الخلق أو الطمع في سبب فهذا لا يصح معه التوكل ، والتارك للتكتسب والتصرف في الأسواق إذا كان في أدنى كفاية وأعين بالصبر فهذا أفضل من المتكسب إذا خاف أن لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله أو خيانة لأخوانه ، والتكتسب ليس بفرض وقد يفترض بأحد معنيين بوجود العيال وعدم كفايتهم بوجه من الوجوه المباحة وليس للعبد أن يحمل حال عياله على حاله إلا أن يكون اختيارهم كاختياره وصبرهم على فقرهم ومعرفتهم بفضلهم كمعرفته فهذا جائز حينئذ يسير بهم سيرته ويسقط عنه التكتسب لأجلهم (٣) فالتوكل ليس انقطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر

(١) الاحياء ج٤ ص ٢٨٢

(٢) قوت القلوب ص ١٧

(٣) قوت القلوب ص ١٨

على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادراً وملازمة البلاد والأمصاير فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر ولا يكن في التوكل منتظر للأسباب بل لمسبب الأسباب وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصاير وهو خامل ، وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع في اليوم واللييلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه رزقه من حيث لا يحتسب وتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن استشهاده بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصاير في حق الخامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ومن نظر إلى مجاري سنة الله علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب (١)

وتعليقاً على ذلك أقول : -

إن هذه الطائفة التي زعمت أن الكسب حرام وينفي التوكل على الله أو ينقص منه والقعود عن الحركة والسعي أفضل عندهم وقدموا أنفسهم بخطأ التأويل وبزلل الهوى والرأي على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

وأقاموا الكبار مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم مقام الضعف والوهن تقديماً منهم لأنفسهم وإيماناً منهم بصحة رأيهم بلا خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا آية من كتاب الله عز وجل وهذا قول تبين خطؤه من وجوه .

أولها : فما بين الله عز وجل من ذلك في كتابه فأمر المؤمنين أن يكون أكلهم من طيبات ما يكسبون ﴿ يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١)

وأما المعنى الثاني : فما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل أي الكسب أفضل قال (كسب الرجل بيده وكل بيع مبرور) وفي رواية (عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور) (٢)

وأما الوجه الثالث : فما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأكابر أصحابه رضي الله عنهم من اشتغالهم بالكسب وطلب الرزق الحلال . أما الوجه الرابع : فما دل عليه العلم وثبتت عليه المعرفة وذلك أن الله جل ثناؤه لما دعا إلى الثقة به والتوكل عليه بين العلم عما أراده من ذلك والذي بين العلم عنه من ذلك من معنى الثقة : أن تكون القلوب لله عز وجل مصدقة وتكون بوعدده موقنة وتكون إليه في كل حال ساكنة قد أغناها بضمانه عن النظر إلى شيء دونه (٣)

والتوكل لا ينافي حركة الجوارح فلو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين فقد كان آدم حراثاً وسليمان يعمل الخوص وموسى وشعيب ومحمد رعاة صلوات الله عليهم أجمعين (٤) والذين يفهمون أن

(١) سورة البقرة آية ١٧٢ (٢) أخرجه أحمد في المسند ١٤١/٤ والحكم في المستدرک کتاب البيوع ج ٢ ص ١٠

(٣) المكاسب ص ٦٥ (٤) تنبيه إبليس ص ٣٥٩

التوكل هو ترك العمل والقعود عن الكسب إنما يسيئون إلى الإسلام ويتجنون على تعاليمه فالإسلام دين العمل والجد والقوة .

ألم يقل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) (١)

وحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي يحث على العمل ويحذر من المسألة فقال صلى الله عليه وسلم (لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيصدق منه فيستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك) (٢) والذي أوجد الرطب في النخلة بغير أوانه للسيدة مريم كان سهلاً عليه أن يوصله إليها من غير هز ولكننا نرى الله - تعالى - يقول لها: ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ (٣)

وذلك ليُعَلِّم عباده الأخذ بالأسباب حيث شاءت إرادته عز وجل أن يربط بالأسباب المسببات وأن هذا لا يقدر في الإيمان بقدرته والتوكل عليه .
ولو أن إنساناً رغب في ولد له وظل يدعو عشرات السنين وهو لم يتزوج فلن يكون له ولد حتى يحدث له زوجة وهكذا قضت سنة الله - سبحانه - في هذا الكون !! (٤)

(١) رواية البخاري وأحمد عن المقدام (فيض القدير حديث رقم ٧٧٣٣)

(٢) رواية الترمذي في سننه باب الزكاة حديث رقم ٦٨٠

(٣) سورة مريم آية : ٢٥

(٤) الحب بين العبد والرب ص ٧٧

الفصل الثاني

مظاهر التوكل عند الصوفية

ويتكون من ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : مظاهر التوكل عند الصوفية في العبادات .
- المبحث الثاني : مظاهر التوكل عند الصوفية في السنن وفروض الكفاية .
- المبحث الثالث: مظاهر التوكل عند الصوفية في الحياة الاجتماعية .

المبحث الأول : العبادات .

لقد خلق الله الخلق لعبادته فقال جل علاه ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ٠٠٠﴾ (١) وبالعبادة يصل الإنسان إلى درجات النعيم التي أعدها الله لعباده المؤمنين الذين أخلصوا له العبادة والعمل واعتمدوا على الله عز وجل في النتائج والعواقب بالتوكل الصادق عليه ؛ وقد تبدو العلاقة بين العبادة والتوكل علاقة خفية على البعض ولكن يمكن إيضاح العلاقة والرباط بينهما من خلال موقف بعض الصوفية من الأسباب بوجه عام فهم يرون أن الأخذ بالأسباب مهما كانت من الأمور القادحة في التوكل ، ولهذا فقد تساوى عند بعض هؤلاء رضا الله وسخطه وأصبحت لديهم الجنة والنار بمرتبة واحدة بل إن بعضهم لا يفعل من الأسباب إلا ما يغضب الله (٢) والعبادات والسنن والعلاقات الاجتماعية المنضبطة بميزان الشرع من أهم الأسباب التي جعل الله بها صلاح العالم واتساق نظامه وأوجد الخلق من أجلها إلا أن الصوفية يعتقدون أن هذه العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج هي عبادات العوام وأما هم فيسمون أنفسهم الخاصة ولذلك فلهم عبادات مخصوصة ومنها ماهو مغاير لما يعرفه المسلمون من العبادات والسنن والعلاقات الاجتماعية ولهذا فقد شرع منحرفوا التصوف لهم شرائع خاصة كالذكر المخصوص بيهيئات مخصوصة ، والخلوة والأطعمة المخصوصة والملابس المخصوصة (٣) وتحريم العمل والإدخار

(١) سورة الذاريات : آية ٥٦ (٢) انظر تبيين البشير ص٤٤٣ وما بعدها .

(٣) انظر فضائح الصوفية عبد الرحمن عبد الخالق مكتبة ابن تيمية الكويت ص٥٣ وانظر حقيقة التصوف

وموقف الصوفية من أصول العبادات الشيخ فوزان الفوزان دار العاصمة ص٢٢

والنكاح لأن ذلك في نظرهم يقدح في توكل المرء ويخالف أمر الله ، ولبيان الأمر واستجلاء جوانبه سأعرض له فيما يلي :

أولاً : العبادات :

لقد ترددت كلمة العبادة والعبودية والعبودة على ألسنة كثير من الناس ، فلا بد من وقفة أمام هذه الكلمة ليتحدد المراد منها عند أهل التصوف فأقول وبالله التوفيق :

العبادة هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربه (١) وهي غاية التذلل وتكون للعامة ، والعبودية للخاصة الذين صححوا النسبة إلى الله بصدق القصد إليه في سلوك طريقة ، وأما العبودة فلخاصة الخاصة (٢) وقيل إن العبادة : هي نهاية التعظيم وهي لا تليق إلا في شأنه تعالى إذ نهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام ، ونهاية الإنعام لا تتصور إلا من الله تعالى (٣)

وسأوضح بإذن الله تعالى هذه العبادات ، ومظاهر التوكل في كل عبادة منها عند الصوفية مستعيناً بالله تعالى بادئاً بالطهارة :-

أولاً : الطهارة : الطهارة هي العبادة التي تأتي بعد الإيمان بالله تعالى وهي مأخوذة من : طهر الشيء - بفتح الهاء وضمها - ويطهر - بالضم - طهارة والاسم الطهر . وطهره تطهيراً وهم قوم يتطهرون أي يتنزهون من الأدناس والظهور ما يتطهر به (٤) قال الله تعالى ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ (٥) أما الطاهر عند الصوفية هو من عصمه الله عن المخالفات (٦) وهو أنواع : طاهر الباطن ، هو من عصمه الله عن

(٢) مصطلحات الصوفية ص ٩٠

(١) التعريفات ص ١٥١

(٤) مختار الصحاح (باب الهاء)

(٣) مصطلحات لغوية ص ٩٤٧

(٦) مصطلحات الصوفية ص ٤٠

(٥) سورة الفرقان : آية ٤٨

الوساوس والجواجس والتعلق بالأغيار ، طاهر السر هو من لا يذهل عن الله طرفة عين ، طاهر السر والعلانية وهو من قام بتوفية حقوق الحق والخلق جميعاً لسعيه برعاية الجانبين ، وطاهر الظاهر وهو من عصمه الله عن المعاصي (١) وبعد أن وضحت كلمة الطهارة وكلمة الطاهر أقول الطهارة أول شيء يفرض على العبد بعد الإيمان لأداء الصلاة وتلك طهارة البدن من النجاسة والجنابة ، وغسل الأعضاء الثلاثة ومسح الرأس اتباعاً للشرعية ، أو التيمم في حالة فقد الماء أو شدة المرض وقد بين الله الحكمة من الطهارة فقال سبحانه : ﴿ ٠٠٠ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ (٢) وقال تعالى في وصف أصحاب الصفة ﴿ ٠٠٠ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ (٣) أي يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء كما مدح المتطهرين فقال جل جلاله : ﴿ ٠٠٠ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (٤)

(١) معجم المصطلحات الصوفية / أنور أبي خزام ص ١١٢ وتظهر المبالغة الشديدة في هذا الكلام لأنه لا يمكن لأحد أن يؤدي حقوق الحق سبحانه والخلق جميعاً دون نقصان وكذلك لا يمكن لمخلوق أن لا يذهل عن الله طرفة عين لأن ذلك من لوازم البشرية فهذه الصوفية غير بشر ! حتى لا يذهلون طرفة عين ؟

(٢) سورة المائدة : آية ٦

(٣) سورة التوبة : آية ١٠٨

(٤) سورة البقرة : آية ٢٢٢

وللصوفية أمام الطهارة أحوال :

١ - منهم من تعلم الفرائض والسنن وما يستحب وما يُكره واهتم بذلك حتى تأتي به على موافقة الكتاب والسنة واتباع الأحسن والأتم وترك الملامة ، وترك الإنكار بالقلب على من لا بد لهم من السعي فيها والاهتمام بها (١) ولا تنافي بين التوكل والعلم ومزاولة العمل عندهم لأنه عمل واعتقد أن العمل أمر دعا الله إليه ولكن لا يوجب شيئاً من النتائج بذاته ، إنما النتيجة وحصولها مرهونة بإرادة الله وحده ، وهذه الطائفة يكونون على الطهارة بالظاهر وعلى التوحيد بالباطن فكل من يداوم على الطهارة بالظاهر تحبه الملائكة وكل من يقوم على التوحيد بالباطن يحبه الله تعالى (٢) قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٣) وكان الرسول عليه السلام يقول : (اللهم إني أعوذ بك ... من النفاق ...) (٤) وعلى ذلك فيلزم أن تكون طهارة الظاهر موافقة لطهارة السر ، أي عندما يغسل اليد يجب أن يغسل القلب من حب الدنيا ، وحين يستتحي فكما أنه طلب النجاة من نجاسة الظاهر يطلب النجاة من محبة الغير بالباطن وأهم المجاهدات حفظ آداب الظاهر والمحافظة عليها في جميع الأحوال .

٢ - وجماعة منهم تركوا الأسباب وخرجوا عن الاشتغال وفرغوا أنفسهم للعبادة والزهد فلا عذر لهم في ترك التوقي والاهتمام بإسباغ الوضوء والتمسك بالأحوط والأتم في أبواب الطهارة والنظافة فمن ليس له شغل غير ذلك فعليه أن يبذل مجهوده على قدر استطاعته في ذلك لقوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (٥) وهؤلاء يجددون الوضوء لكل صلاة

(١) التلمع ص ١٦٧ (٢) كشف المحجوب ص ٥٣٢ (٣) سورة البقرة جزء من الآية ٢٢٢

(٤) رواه الحاكم والبيهقي (شرح الجامع الصغير حديث رقم ١٤٨٩) (٥) سورة التغابن آية ١٦

فيقومون إلى الوضوء قبل دخول وقت الصلاة حتى إذا فرغوا من وضوئهم يكون قيامهم إلى الصلاة متصلاً بفراغهم من الوضوء (١)

لأن الشيطان يجتهد في أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بني آدم فلا يبالي أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيما أمروا به أو ينقصوا منه ، وذكر أن أحد الصوفية (٢) أنه أصابته الجنابة ليلة من الليالي وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة فجاء إلى الشط ليلة وكان برد شديد فحزنت نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد ، فطرح نفسه في الماء مع المرقعة ولم يزل يغوص في الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال : اعتقدت أن لا أنزعها من بدني حتى تجف علي قالوا : فلم تجف عليه شهراً كاملاً ، وأراد بذلك تأديباً لنفسه لأنها حزنت عند الانتمار لما أمر الله تعالى به من غسل الجنابة (٣) وكان سهل بن عبد الله يحدث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صب الماء على الأرض وكان يقول إن الماء له حياة وموتة أن تصبه على الأرض وكان يرى أن في كثرة شرب الماء ضعف النفس وإماته الشهوات وكسر القوة (٤) وكان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء وربما كان لا يشرب منها إلا القليل ، وكان يحتفظ بذلك للوضوء ويؤثر الوضوء بالماء على الشرب عند العطش (٥)

(١) التمع ص ١٩٧

(٢) هو ابن الكريني أستاذ الجنيد (التمع ص ١٩٨)

(٣) التمع ص ١٩٨

(٤) عوارف المعارف ص ٢٦٩

(٥) التمع ص ١٩٩

وحكي عن ابراهيم بن أدهم (١) أنه كان به قيام فقام في ليلة واحدة نيفاً وسبعين مرة وكل مرة يجدد وضوءه ويصلي ركعتين (٢) وأحب الأشياء إليهم النظافة وغسل الثوب والمداومة على السواك والنزول عند المياه الجارية والخلوة والاعتسال وليس من الوسوسة - حسب زعمهم - ما يستقصي الإنسان في طهارته من التباعد وطلب الماء الجاري والاستقصاء على ذلك للأعضاء الظاهرة وليس التوقي والتقي من الوسواس المنهى عنه ؛ لأن جميع ذلك داخل في قول الله ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ (٣) وكان استقصاء الصوفية في تطهير البواطن من الصفات الرديئة لا الاستقصاء في طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العمل (٤) وصنف من هؤلاء الذين تركوا الأسباب تساهل في أمر الطهارة وكان استقصاؤه في الطهارة الباطنة لا يهتم بالطهارة الظاهرة حيث قالوا كل مريد غسل ثوبه بغير نجاسة فهو عامل لنفسه (٥) ونرى الشعراني يصف أحد أوليائه (٥) فيقول : وكان رضي الله عنه يلبس الشاش المخطط كعمامة النصاري وكان دكانه منتبهاً قزراً لأن كل كلب وجده ميتاً أو خروفاً يأتي به فيضعه داخل الدكان ، فكان لا يستطيع أحد أن يجلس عنده ثم لا يكتفي الشعراني بهذا من كرامات سيده الشيخ فيضيف .. أنه توجه إلى المسجد فوجد في الطريق مسقاة كلاب فتطهر فيها ثم وقع في مشخه حمير (٦) ويروى عن أحمد بن أبي الحسين الرفاعي (٧) أنه وجد كلباً أجرب أخرجه أهل أم عبيده إلى تل بعيد فخرج معه إلى البرية وضرب عليه مظلة وصار يطايله

(١) هو ابو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور توفي سنة ١٦١ هـ كان من أبناء الملوك (رسالة تفضية ص ٣١١)

(٢) تنوع ص ٢٠٢ (٣) سورة التغابن : آية ١٦ (٤) عوارف المعارف : ص ٢٧٠

(٥) تنكرة الأولياء للعطار ص ١٢٩ (٥) هو عبد الغني الرفاعي (٦) الصوفية ألوجه الآخر ص ١٩

(٧) أحمد بن أبي الحسين الرفاعي ينسب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب (الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٤٠)

بالدهن ويطعمه ويسقيه ويحث الجرب منه بخرقه فلما برئ حمل له ماءً مسخناً وغسله (١)

ومن خلال عرض أحوال الصوفية في الطهارة أقول إنهم صنفان :
صنف وافق ماعليه أهل السنة والجماعة وسار على نهجهم في الطهارة فلا داعي لمناقشته وصنف آخر خالف أهل السنة والجماعة وهم فريقان :

١ - الفريق الأول استقصى في طهارته من التباعد وطلب الماء الجاري وترك المياه المتغيره وإبلاغ الماء الخياشيم وإمرار الماء على الأعضاء وجميع البشرة في الغسل والوضوء وهذا الصنف من الصوفية متشدد ومبالغ في طهارته واشتغل بالفضائل عن الفرائض وأبطل صلاة من يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع (٢) وهذا مخالف لما عليه الشريعة الغراء فالإسلام قد نهى عن الإسراف في استعمال الماء ، فكثرة استعمال الماء تجمع أربعة أشياء :

١ - الإسراف في الماء •

٢ - تضييع العمر القيم فيما ليس بواجب ولا مندوب

٣ - التعاطي على الشريعة إذ لم يقنع بما قنعت به من استعمال الماء القليل

٤ - الدخول فيما نهت عنه الشريعة بالزيادة على الثلاث لقوله صلى الله

عليه وسلم للأعرابي الذي سأله عن الوضوء فأراه الوضوء ثلاثاً ثلاثاً ثم

قال : (هكذا الوضوء فمن زاد فقد أساء وتعدى وظلم) (٣) . ومن فقه الرجل

قلة ولعه بالماء ويكره كذلك كثرة الاغتراف من الماء (٤) وربما أطل

الوضوء ففات وقت الصلاة أوفات أوله وهو الفضيلة أو فاتت الجماعة ،

(٢) اللع ص ٢٠١

(١) طبقات لشعراني ج ٢ ص ١١٢

(٣) رواه النسائي في السنن كتاب الطهارة حديث رقم ١٠٥ (٤) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٢١ ص ٢٩٨

وكان الحسن يعرض بابين سيرين يقول : يتوضأ أحدهم بقرية ويغتسل بمزادة صباً صباً ودلكاً دلكاً تعذيباً لأنفسهم وخلافاً لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم (١) وكان أحد الصالحين (*) يستعمل ماءً كثيراً في وضوئه ثم ترك ذلك فسأله رجل عن سبب تركه فقال نمت ليلة فإذا بهاتف يهتف بي يا أسود ما هذا ؟ يحيى بن سعيد الأنصاري حدثني عن سعيد بن المسيب فقال : إذا جاوز الوضوء ثلاثاً لم يرفع إلى السماء قال : قلت لا أعود فأنا اليوم يكفيني كف من الماء (٢) وفي حديث أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (كان يغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد ويتوضأ بالمد) (٣) ، أما إثارة الوضوء بالماء على الشرب عند العطش فهذا ليس من التوكل في شيء ومخالف لما عليه أهل السنة والجماعة لأن فيه هلاكاً للنفس ومخالفة لأمر الله حيث يقول ﴿ ٠٠٠ قُلْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾ (٤) وبقاء النفس أولى من استعمال الماء في الوضوء لأنه شرع لنا التيمم عند فقد الماء أو ندرته أو عدم القدرة على استعماله وإلقاء الرجل بنفسه في الماء غسلاً من الجنابة فيه هلاك

(١) تلبس إبليس ص ١٨٩

(*) هو أسود بن سالم من كبار الصالحين .

(٢) التمع ص ١٩٨

(٣) متفق عليه والصاع أربعة أمداد والمد ٤٠٤ سم أي ما يقارب ثلاثة أرباع البتر (انظر مختصر صحيح

مسلم ص ٦٧ الهامش طبعة دار الهالك)

(٤) سورة المائدة : جزء من الآية ٦

وتعذيب للنفس فالله سبحانه قد أمرنا بحفظ النفس وعدم تعريضها للهلاك قال تعالى ﴿... ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ...﴾ (١) وأما الاستقصاء في التباعد وطلب الماء الجاري فهذا مخالف للسنة وما عليه سلف الأمة فالرسول عليه السلام سئل عن الماء يكون بالفلاة من الأرض وما ينوبه من الدواب والسباع فقال: (إذا بلغ الماء قلتين لم ينجسه شيء) (٢) ، فالماء على أصل الطهارة وتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غدير كان مأواه نقاعة الحناء فلو كانت الطهارة لا تصح من هذا الماء لأبى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الطهارة منه ، فالدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه (٣) ولكن هؤلاء ممن يصدق فيهم القول النبوي الشريف (إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء) (٤) • وموت الماء بصبه على الأرض مخالف لما نزل به الكتاب حيث يقول الحق : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا ﴾ (٥) فالماء أصل الحياة ودعوة موته إذا صب على الأرض دعوى ليس لها دليل ومخالفة للعلم والواقع •

(١) سورة البقرة آية: ١٩٥

(٢) رواه ابن ماجه في سننه كتاب الطهارة حديث رقم ٥١٧

(٣) غيث المواهب العلية ج٢ ص ١٦٨ وانظر فقه السنة ج ١ ص ١٨

(٤) رواه أبو داود في سننه كتاب الطهارة حديث رقم ٩٦

(٥) سورة الفرقان : الآيتان ٤٨ - ٤٩

وأما الصنف الثاني من هذا الفريق فقد خالف الشريعة ؛ لأنه تساهل في أمر الطهارة التي قال فيها رسول الله صلي الله عليه وسلم : (الطهور شطر الإيمان) (١) وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام في فضل الطيب والنظافة قوله : (إن الله تعالى طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة كريم يحب الكرم جواد يحب الجود فنظفوا أنفسكم ولا تشبهوا باليهود) (٢)

وإذا كانت السنة المطهرة تقول : (إذا ولغ الكلب في إناء أحكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات) (٣) فلا أدري كيف يتطهر بعض الصوفية في مسقاة الكلاب، إنه عمل مخالف لما جاء بالسنة وتأباه الفطر السليمة فنجاسة الكلب نجاسة مغلظة، وهل من الإسلام أن يقوم الإنسان على خدمة كلب أجرب فيغسله ويطيبه وقد نصت السنة المطهرة على (إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة) (٤) إن هذه الفئة منحرفة عن تعاليم الإسلام ومخالفة لأمر ربها .

(١) روه مسند في تصحيح كتاب نظيرة حديث رقم ١١٦

(٢) حديث حسن صحيح رواه الترمذي (فيض القدير حديث رقم ١٧٤٨)

(٣) رواية مسند في تصحيح كتاب الطهارة حديث ١٥٠

(٤) حديث صحيح رواه ابن ماجه في السنن (فيض القدير حديث رقم ٢١١٧)

ثانياً : الصلاة :

لغة : الدعاء والرحمة والاستغفار (١)

اصطلاحاً : أقوال وأفعال مخصوصة (٢)

قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ٥٠٠ ﴾ (٣) وقال عليه الصلاة والسلام :

(الصلاة وما ملكت أيمانكم الصلاة وما ملكت أيمانكم) (٤) وقال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (٥) وشهد القرآن

المجيد بالفلاح للمصلين كما جاء بالآية السابقة ؛ لأن المصلي يدعو الله

تعالى بجميع جوارحه فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهراً وباطناً

ويشارك الظاهر الباطن (٦) بالدعاء وتضرع سائل محتاج فإذا دعا

بكليته أجابه مولاه ؛ لأنه وعده فقال تعالى ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ (٧)

أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ليس بينهما شرط ، والاستجابة والإجابة

هي نفوذ دعاء العبد فإن الداعي الصادق العالم بمن يدعو ينور يقينه

فتخرق الحجب وتقف الدعوة بين يدي الله تعالى متقاضية للحاجة (٨)

أما الصلاة في جريان عبارات الفقهاء فهي عبارة مخصوصة تطلق على

هذه الأحكام المعتادة وهي أمر من الحق أن أقيموها خمس مرات (٩)

(١) لقاموس المحيط باب (النوار فصل الصاد)

(٢) حاشية الروض المربع بشرح زاد المستقنع جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ط ١ ج ١ ص ٤١٠

(٣) سورة البقرة آية : ٤٣

(٤) رواية أحمد وابن حبان عن أنس (فيض التقدير حديث رقم ٥١٧٢)

(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١ ، ٢

(٦) عوارف المعارف ص ٢٧٣

(٧) سورة غافر : آية ٦٠

(٨) عوارف المعارف ص ٢٧٤

(٩) كشف المحجوب ص ٥٤٢

والصلاة أول ما أوجبه الله من العبادات ، وصلاح الأعمال وقبولها مرتبط بصلاح الصلاة وقبولها قال صلى الله عليه وسلم : (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسدت سائر عمله) (١) وهي من أشرف القربات ومنتهى الدرجات فهي منقولة من الصلة ، والصلة هي ما يربط بين الشيء والشيء ، لذا يعبرون عنها بالوصول وإذا وصل العبد إلى ربه فقد تمكن بصلاة الاتصال التي لا فصل بعدها (٢) ومقام الصلاة مقام الوصلة والذنو والإقبال على الله تعالى والإعراض عما سوى الله تعالى وللصوفية أمام هذه العبادة أحوال :

١ = جماعة منهم تعلم الصلاة وعرف فرائضها وسننها وآدابها وفوائدها ونوافلها وبحث عما يحتاج إليه في ذلك مما لا يسعه الجهل به لأن الصلاة عماد الدين وقرّة عين العارفين وزينة الصادقين وتاج المقربين فهذا الصنف قد استجاب لأمر الله حينما قال ﴿...وأقيموا الصلاة...﴾ (٣) مع أمره بالتوكل لأن (السعي في الأسباب بالجوارح طاعة له والتوكل بالقلب عليه إيمان به) (٤) فآله قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء فينصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب كما قضى بدخول الجنة إذا أسلم العبد وأتى بالأعمال الصالحات فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبداً ؛ فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم له التوكل (٥)

(١) حديث حسن رواه الضراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه (فيض القدير حديث رقم ٢٨١٨)

(٢) المنح القدرسية لأبي القاسم سيدي أحمد بن مصطفى دار ابن زيدون ص ١٠٥

(٣) سورة المزمل جزء من آية ٢٠

(٤) نظر جامع العلوم والحكم تأليف زين الدين أبي الفرج بن رجب بدون تاريخ طبعة ص ٤٠٩

(٥) مدارج السالكين ٢ / ١٢٠

٢ - وجماعة منهم قد باينوا الناس وانحازوا عن جملة الناس بترك المكاسب وقطع العلائق وانقطعوا إلى الله - عز وجل - وعُرفوا بالله ونسبوا إلى الله فلا يسعهم التخلف عن استعمال الآداب والاهتمام والتكلف لأحكام الصلاة وأحكام فرائضها وسننها وفضائلها ونوافلها ؛ لأنهم ليس لهم شغل غير ذلك ولا ينبغي أن يهمهم أمر أكثر من اهتمامهم بأمر الصلاة فيتأهبون قبل دخول وقتها حتى لا يفوتهم الوقت الأول الذي هو المختار ولا يمكنهم ذلك إلا بمعرفة الوقت الأول لكل صلاة (١) ليستعدوا لها قبل دخول وقتها بمدة كافية حتى لا تفوتهم تكبيرة الإحرام مع الإمام وهذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء : وهو فراغ القلب مع الرب (٢) وصفوة الصلاة التكبيرة الأولى والمعنى في ذلك أن التكبيرة الأولى مقرونة بالنية التي لا تجوز الصلاة إلا بها وهو عقدك بأن صلاتك لله عز وجل فإذا صح العقد فما دخل بعد ذلك في صلاتك من الآفات الباطلة لم يفسد الصلاة بل ينقص من فضلها ويبقى للمصلّى عقدها ونيتها وسئل أبو سعيد الخزاز (٣) كيف الدخول في الصلاة ؟ فقال : أن تقبل على الله تعالى كإقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدي الله تعالى ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تتاجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف ؟ فإنه الملك العظيم (٤) والعبد إذا كان متأدباً بأدب الصلاة قبل دخول وقتها فكأنه في الصلاة ويكون قيامه إلى الصلاة من حال لا يستغنى عنه في الصلاة وذلك أن من آدابهم

(١) الجمع ص ٢٠٣

(٢) لجامع لأحكام القرآن (١٧ / ٤٣)

(٣) أبو سعيد الخزاز وفي الحنية الخزاز من أهل بغداد صاحب ذا النون المصري وسرياً السقطي وهو أول من تكلم في علم نساء والبقاء واختلف في تاريخ وفاته فقيل سنة ٢٨٦ وقيل ٢٧٩ وقيل ٢٧٧ (صفوة لصفوة ٢ /

(٤) الجمع ص ٢٠٥

٢٨١ حنية ١٠ / ٢٤٦ الطبقات ١ / ٩٢)

قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض وذكر كل شيء غير ذكر الله تعالى فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة فيبقيون مع النية والعقد الذي دخلوا به الصلاة وإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب والمراعاة والمراقبة فكأنهم في الصلاة وإن كانوا خارجين من الصلاة (١) وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة) (٢) وإذا قام أحدهم إلى الصلاة كان لا يتهيأ له أن يحفظ العدد فكان يجلس واحداً من أصحابه ويعد عليه كم ركعة صلى ، لأنه كان يراعي قلبه على ثبات العقد الذي دخل به في الصلاة فكان يخاف الغلط على نفسه لأنه لا يدري كم ركعة صلاها فلذلك كان يستعين بمن يعد عليه حتى يتيقن كم ركعة صلاها (٣)

وذكر عن سهل بن عبد الله أنه كان يضعف حتى لا يكاد يقوم من موضعه حتى إذا دخل وقت الصلاة تَرَدُّ إليه قوته فيقوم في المحراب فإذا فرغ من صلاته يرجع إلى حالة ضعفه ولا يقدر أن يقوم من موضعه ، وكانت لهم أورايد من التطوع وصلاة الليل والسنن والآداب يستعملونها في الحضر والسفر ؛ لأن أحوالهم ينبغي أن تكون في السفر والحضر واحدة . ومن عادات بعضهم أنه إذا أكل شيئاً يقوم ويصلي ركعتين ، وإذا شرب الماء

(١) التلح ص ٢٠٧

(٢) رواية البخاري في الصحيح كتاب الأذان حديث رقم ٦٥٩ ومسلم في الصحيح كتاب الصلاة حديث رقم

٤٠٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه واللفظ لمسلم .

(٣) عوارف المعرف ص ٢٩٠

يقوم ويصلي ركعتين ، وإذا لبس ثوباً يقوم ويصلي ركعتين ، وإذا دخل المسجد يصلي ركعتين ، وكذلك إذا فرح ، أو غضب ، يقوم ويصلي ركعتين ، فأهل المجاهدة يكثررون الصلاة ويأمرون بهذا وذلك لتعويد الجسد على العبادة ، أما أهل الاستقامة فيصلون كثيراً لشكر القبول في الحضرة ويبقى أرباب الأحوال وهم على نوعين : جماعة تكون صلاتهم في كمال المشرب في مكان مقام الجمع فيجتمعون بها ، وجماعة تكون صلاتهم في مكان التفرقة فيتفرقون بها فأولئك الذين يكونون مجتمعين في الصلاة ، يكونون ليل نهار في الصلاة وهؤلاء الذين يكونون متفرقين يزيدون قليلاً على الفرائض والسنن (١) فكان الحسين بن منصور الحلاج يصلي أربعمئة ركعة في يوم وليلة وكان يفرضها على نفسه ، فقل له لم كل هذا العناء في هذه الدرجة التي أنت فيها ؟ فقال : العناء والراحة يبدوان في حالكم ، أما الأحبة فصفتهم فانية فلا يبدوا عليهم تعب ولا راحة (٢) لأن المانع للعبد عن طاعة الله هو النفس الأمارة بالسوء وكلما زيدت قهراً يصير طريق التعب أيسر وحين تغنى النفس يصير غذاؤه ومشربه العبادة مثل الملائكة إذا صح فناء النفس ، وكان أبو الخير الأقطع (٣) قد أصيب بالجذام في رجله فقال الأطباء : يجب قطع هذه الرجل ولم يرض بذلك فقال المريدون : يجب أن تقطع رجله في الصلاة فهو لا يدري بنفسه ففعلوا كذلك وعندما فرغ من الصلاة وجد رجله مقطوعة .

(١) كشف المحجوب ص ٥٤٤

(٢) كشف المحجوب ص ٥٤٥

(٣) أبو الخير الأقطع أصله من المغرب وقدم المشرق فصحب ابن الجلاء وغيره ومات بمصر (الطبقات

الكرى للشعراني ج ١ ص ٨٧)

ومن آداب هذه الجماعة أيضاً أنهم يكرهون الإمامة والصلاة في الصف الأول بمكة وغيرها ويكرهون التطويل ، ويختارون الصلاة خلف من يحسن أن يقرأ الحمد وسورة أخرى ولا يكون أحدهم أماماً ولو كان يحفظ القرآن ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الإمام ضامن ٠٠٠) (١) وأما ترك الصلاة في الصف الأول فإنهم يريدون بذلك أن لا يزاحموا الناس ويضيقوا عليهم لأن الناس يزدهمون ويطلبون الصف الأول لما جاء في الخبر من الفضيلة فيه (٢) يريدون بذلك إيثارهم وإذا كان الموضع خالياً يغتفون ذلك الفضل الذي جاء في الصف الأول .

(١) حديث صحيح على شرط مسلم رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة وأبو داود والترمذي وابن خزيمة عن أبي هريرة ورواه ابن ماجه ونحوكم عن سهل بن سعد (فيض القدير حديث رقم ٣٠٧٧) .
 (٢) أخرجه أحمد عن أبي أمامه : (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول) ورواه أحمد وابن خزيمة والشيخان عن أبي هريرة : (لو يعلم الناس ٠٠٠) فيض القدير حديث رقم ٧٥٠٢

وأما التطويل في الصلاة فكلما طالت الصلاة كثرت الهفوات والوسواس والاشتغال بتصحيح الأعمال أولى من الاشتغال بكثرتها وتطويلها لما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم (أنه كان أخف الناس صلاة في تمام) (١) وليخرج من صلاته على النية والعقد الذي دخل به فيها .

وبعض هذه الطائفة يظهرون الفرائض ويخفون النوافل وهم يريدون بذلك أن يتخلصوا من الرياء .

وجماعة أخرى يظهرون الفرائض والنوافل ويقولون : إن الرياء باطل والطاعة صحيحة وحق ومحال أن تخفى حقاً من باطل فيجب إخراج الرياء من القلب وأن تتجدد حيثما تريد (٢)

٣ - قوم آخرون سلكوا طريقاً أدتهم إلى نقصان الحال حيث اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل النوافل واغترروا بيسير روح الحال وأهملوا فضل الأعمال ولم يعلموا أن لله في كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسراراً وحكماً لا توجد في شيء من الأذكار (٣)

٤ - قوم أكثروا من صلاة الليل وقيامه وأهملوا في أداء الفرائض ومنهم من يفرح بقيام الليل وصلاة الضحى أكثر مما يفرح بأداء الفرائض ثم ينام قبيل الفجر فتفوته الفريضة أو يقوم فيتهيأ لها فتفوته الجماعة ، فقد رأى جماعة : صوفياً يمشي كثيراً من النهار في جامع المنصور فسألوه عن سبب ذلك فقال لئلا أنام (٤) .

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه (فيض القدير حديث رقم ٦٥٢٠)

(٢) كشف المحجوب ص ٥٤٦

(٣) عوارف المعارف ص ٢٩٤

(٥) هو حسين القزويني

(٤) تبيين إيليس ١٩٦

٥ - قوم آخرون ظنوا أن العبادة هي : القيام والقعود فحسب فإذا دخلوا إلى الصلاة مع الإمام يسلمون إذا سلم الإمام وقد بقى عليهم من التشهد الواجب شيء وهم يدأبون في ذلك ويخلون في بعض واجباتهم ولا يعلمون (١)

٦ - وقوم آخرون رفضوا هذه العبادة لأنهم رأوا هذه القيود الشرعية لا تربط العارفين مدعين أنهم لا يقومون بأدائها إلا في الأماكن المقدسة (٢) وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى وإذا حصل الذكر فأى حاجة إلى الصلاة ويمنعون من أداء الصلاة المفروضة ويقولون : إنها صلاة مشؤومة (٣) وقالوا : إذا وصلت إلى مقام اليقين سقطت عنك العبادة مؤولين (٤) قول الله عز وجل : ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ (٥) قال إبراهيم بن أدهم : إنني لأتمنى المرض حتى لا تجب علي الصلاة في جماعة ولا أرى الناس ولا يروني وكان يغلق بابه من الخارج فيجيء الناس فيجدونه مغلقاً فيذهبون (٦)

(١) تبيين البليس ص ١٩٥

(٢) البروقيت والجواهر ج ١ ص ١٢٥

(٣) انظر طبقات الشمراني ج ٢ ص ١٤١ حيث أورد حكاية عن شيخه وسيد شهاب الدين الطويل يقول عنه (وكان ينادي خادمه وهو في صلاة فإن لم يجئه مشى إليه وصكّه ومشى به وقت : كم تقول لك لا تعد تصلي هذه الصلاة المشؤومة ، فلا يستطيع أحد يخلصه منه) فهل بعد ذلك من ضلال وكفر !!

(٤) تحف السادة للزبيدي ج ٨ ص ٢٧٨

(٥) سورة الحجر آية : ٩٩

(٦) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٧٠

وبعد فهذه أحوال الصوفية أمام تلك العبادة وسأناقش هذه الأحوال في ضوء الكتاب والسنة فأقول وبالله التوفيق : إن الصوفية من خلال هذا العرض فريقان :

فريق قد التزم طريق أهل السنة و الجماعة فحفظوا الفرائض واهتموا بالسنن والرواتب فلا داعي لمناقشته .

وفريق آخر منهم تشدد في أمر هذه العبادة فأنقطع عن الكسب والعمل واكل على الناس في توفير ما يحتاج إليه من مأكّل ومشرب وتشبه برهبان النصارى ، ثم أصابته الوسوسة في إحضار النية ، واعتقادهم أنه إذا كانت النية صحيحة فالصلاة كلها صحيحة ولا تبطل وهذا قول جانبه الصواب لأن الصلاة لها مبطلات محددة حتى ولو كانت النية صحيحة فمن مبطلاتها مثلاً: الكلام العمد في غير مصلحة والأكل والشرب وترك ركن أو شرط عمداً وبدون عذر والتبسم والضحك ، كل هذه الأمور تبطل الصلاة ، (١) والمراد من الحديث الشريف : أن الإمام ضامن أراد بالضمان هنا الحفظ والرعاية لأن الإمام يحفظ على القوم صلاتهم (٢) من حيث الوقت وأداؤها على الوجه المشروع ، وأما استشكالهم في إحضار النية ، فالنية حاضرة لأنك قمت لتؤدي الفريضة وهذه هي النية ومحلها القلب لا اللفظ فإن كنت تريد تصحيح اللفظ فاللفظ لا يجب وقد تلفظت به فما وجه الإعادة وهذا مرض فقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) (٣) والوسوسة في نية

(١) فقه السنة ج ١ ص ٢٢٩

(٢) نظرسنن الترمذي ج ١ ص ٢٦٩

(٣) روضة مسنم في الصحيح كتاب الإمارة حديث رقم ١٠٩١

الصلاة سببها خبل في العقل وجهل بالشرع فقد حُكي عن ابن عقيل (١) أنه لقي رجلاً فقال : إني أغسل العضو وأقول ما غسلته وأكبر وأقول ما كبرت فقال له ابن عقيل : دع الصلاة فإنها ما تجب عليك فقال قوم لابن عقيل : كيف تقول هذا ؟ فقال لهم : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (رفع القلم عن المجنون حتى يفريق) (٢) ومن يُكَبِّرُ ويقول ما كَبُرَتْ فليس بعاقل والمجنون لا تجب عليه الصلاة والنية يجوز تقديمها على التكبير بزمان يسير ما لم يفسخها ، فما وجه هذا التعب في الصاقها بالتكبير على أنه إذا حصلها ولم يفسخها فقد التصقت بالتكبير ، حتى إذا صحت له النية وكَبِرَ ذهل عن باقي صلاته كأن المقصود من الصلاة التكبير ، والتكبير يراد للدخول في العبادة فكيف نهمل العبادة والتشاغل بالتكبير خلف الإمام وقد بقي من الركعة يسير فيستفتح ويستعيز فيركع الإمام وهذا مخالف لما عليه أهل السنة لأن الذي شرع فيه من التعوذ والاستفتاح مسنون والذي تركه من قراءة الفاتحة وهو لازم للمأموم عند جماعة من العلماء فلا ينبغي أن يقدم عليه سنة والمبالغة في إخراج الحروف يشغل الإنسان عن فهم التلاوة وكل هذه وساوس من إبليس (٣) فعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ) فقال رسول الله صلى الله عليه عليه

(١) انظر ترجمته ص ٣٧٠

(٢) روي الحديث بلفظ (رفع القلم عن ثلاثة ، عن النائم حتى يستيقظ وعن المنبلي حتى يبرأ وعن الصبي حتى يكبر) وفي لفظ (٠٠٠ عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ ٠٠٠) انظر كشف الخفاء حديث رقم

١٣٩٤

(٣) تبير إبليس ص ١٩٤

وسلم : (ذاك الشيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً) قال : (ففعلت ذلك فأذهبه الله عني) (١) ومن يتخلف عن أداء الصلاة في الصف الأول مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها) (٢) وعن أبي هريرة رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لا استهموا) (٣)

أما من اعترف بالفرائض وأنكر فضل النوافل فهو مخالف للسنة ؛ وذلك لأن السنة إنما شرعت من أجل جبر الفرائض فإنه ليس للإنسان من صلاته

(١) رواه مسلم في الصحيح كتاب السلام حديث رقم ٦٨

(٢) رواه مسلم في الصحيح حديث رقم ٢٦٢ و"طبراني (فيض القدير حديث رقم ٤٠٧٢)

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم والنسائي (فيض القدير حديث رقم ٧٥٠٢)

إلا ما عقل منها ولم يعلموا أن الله في كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسراراً وحكماً لا توجد في شيء من الأذكار سواها قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ (١)

وأما من أكثر من صلاة الليل وسهره وفرح بقيام الليل وصلاة الضحى فهذا مخالف لهدي الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال لعبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - عندما سمع أنه يصوم النهار ويقوم الليل : (٠٠٠ قم ونم فإن لجسدك عليك حقاً ٠٠٠) (٢) وقال تعالى : ﴿ ٠٠٠ فاقراءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقراءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ٠٠٠ ﴾ الآية (٣) أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، وإنما عبر عن الصلاة بالقراءة ؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة قال ابن عباس رضي الله عنه : (سقط عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قيام الليل وصارت تطوعاً ، وبقي ذلك فرضاً على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) (٤) وعن أنس بن مالك -

(١) سورة آل عمران آية ٣٠ ، ٣١

(٢) صحيح البخاري كتاب الصيام حديث رقم ١٩٧٥

(٣) سورة المزمل جزء من آية ٢٠

(٤) تفسير الكبير للرازي ج ٣٠ ص ١٨٧

رضي الله عنه - قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وحبل ممدود بين ساريتين فقال : (ما هذا) ؟ قالوا : لزينب تصلي فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال : (حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر قعد) (١) وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا نعس أحدكم في صلاته فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه) (٢) والنوم يجدد القوى التي قد كلت بالسهر وهو أمر طبيعي فطر الله الخلق عليه ولا يستطيع الإنسان مقاومته مدة طويلة فمتى دفعه الإنسان وقت الحاجة إليه أثر في بدنه وعقله ووقت النوم المحبب هو الليل فالله - سبحانه - جعل الليل سكناً ولباساً والنهار معاشاً وطلباً لفضله قال تعالى ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٣)

(١) رواه البخاري في الصحيح حديث رقم ١١٥٠ ومسلم في الصحيح ٤٨٢ ونظراً لمسلم

(٢) رواه مسلم في الصحيح حديث رقم ٤٨٤

(٣) سورة القصص آية ٧٣

أما من ظنوا أن العبادة : هي القيام والقعود فحسب زاعمين أن الإمام ضامن لهم فهذا جهل بأمور الشريعة ؛ لأنهم يدخلون في الصلاة ويسلمون مع الإمام دون أن يتموا صلاتهم فهم بذلك يتركون الأركان والواجبات وهؤلاء الناس لا صلاة لهم لأنهم يؤدونها دون تحقيق الأركان والواجبات الشرعية فالإمام ليس ضامناً في ترك الأركان كما نصت بذلك الشريعة الغراء (١) وأما من رفض هذه العبادة فهو ضال ومنحرف عن طريق الإسلام ؛ لأن الله قرر هذه العبادة ، وأمر المسلمين بها قال تعالى ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ (٢) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان) (٣) وقوله عليه السلام (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) (٤) .

فالغلو في العبادات عند بعض الصوفية واختراعهم لأنفسهم عملاً وعبادة هو سبيل قوم ضلوا سواء السبيل ورهبانية ابتدعوها من أنفسهم ولم تكتب عليهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من ترك الصلاة عمداً من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر) (٥) وكذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم - للمسيئ صلاته : (صل فإنك لم تصل) (٦) لأنه كان لا يتم

(١) انظر فقه السنة ج ١ ص ١٩٦

(٢) سورة الإسراء آية ٧٨

(٣) كتاب الإيمان للإمام أبو عبيد القاسم بن سلام تحقيق محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي

حديث رقم (١) ورواة البخاري في الصحيح كتاب الإيمان حديث رقم ٨

(٤) كتاب الإيمان للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه تحقيق محمد ناصر الدين الألباني المكتب

الإسلامي حديث رقم (١)

(٥) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم (فيض القدير

حديث رقم ٥٧٤٠)

(٦) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار للإمام محمد بن علي الشوكاني دار الفكر بيروت ج ٢ ص ٣٠٠

صلاته أي يؤدها غير كاملة الأركان وبلا خشوع . والحقيقة أن شرائع الإسلام تحكم على الأفعال الظاهرة وأما حقائق الإيمان الباطنة فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب فله تعالى حكمان : حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح وحكم في الآخرة على الظواهر والبواطن ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل علانية المنافقين ويكل أسرارهم إلى الله فيعت بصلاتهم في أحكام الدنيا فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة وأحكام الثواب والعقاب ليست إلى البشر ؛ بل إلى الله تعالى والله يتولاه في الدار الآخرة فنحن في حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق مع أنه لا يسقط عنه العقاب ولا يحصل له الثواب في الآخرة فصلاة المسلم الغافل المبتلي بالسواوس مع غفلة القلب عن كمال حضوره أولى بالصحة ، ولا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلاً ولا آجلاً فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل في القلب من قوة إيمانه واستنارته وانتشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة والفرح والسرور واللذة التي تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله وحضر قلبه بين يديه (١)

ثالثاً : الصيام :

لغة : صام صياماً أمسك عن الطعام والشراب والكلام والنكاح والسير (٢)
اصطلاحاً : إمساك بنية عن أشياء مخصوصة في زمن معين من شخص مخصوص (٣)

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ٥٦٧

(٢) 'قاموس المحيط باب الميم فصل الصاد

(٣) حشية الروض المربع شرح زاد المستقنع ص ٣٤٦

والصوم صفة صمدانية ولذلك ورد أنه لا مثل له من العبادات لأنه وصف سلبي إذ هو ترك المفطرات فلا عين له تتصف بالوجود الذي هو يعقل (١) وحقيقة الصوم هي الإمساك وللإمساك شروط فكما تحفظ الجوف من الطعام والشراب فإنه يجب أن تحفظ العين من النظر إلى الحرام والشهوة واللسان من قول اللغو والجسد من متابعة الدنيا ومخالفة الشرع وعندئذ يكون هذا هو الصوم الحقيقي (٢) كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش) (٣) والصوم عند أهل التصوف إشارة إلى الامتناع عن استعمال المقتضيات البشرية ليتصف بصفات الصمدية (٤) فهو عبادة سرية تتعلق بالظاهر وليس للغير فيها نصيب وجزاؤها بلا نهاية قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم - خبراً عن ربه عز وجل - (الصوم لي وأنا أجزي به) (٥) وفي هذا الحديث أضاف الله تعالى الصوم إلى نفسه ؛ لأن فيه خصيصة ليست لغيره من العبادات وهو من عمل السر لا يطلع عليه إلا الله وقيل في تفسير قوله تعالى :

﴿ السائقون ﴾ (٦) الصائمون (٧)

(١) الكبريت الأحمر ص ٦١

(٢) كشف المحجوب ص ٥٦٥

(٣) رواية الطبراني وأحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه (فيض القدير حديث رقم ٤٤٠٥)

(٤) الإنسان الكامل ج ٢ ص ٨٧

(٥) حديث قسي رواه الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - حديث رقم ٧٤٩٢ في صحيح البخاري

ورقم ٤٤٠٥ في صحيح مسلم

(٦) سورة التوبة : آية ١١٢

(٧) مختصر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٩

لأنهم ساحوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم ، وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ ٠٠٠ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (١) هم الصائمون لأن الصبر اسم من أسماء الصوم (٢) وقيل : إن دخول الجنة للخلق بالرحمة ، والدرجة بالعبادة والخلود بجزاء الصوم ؛ لأن الله تعالى قال : (٠٠٠ وأنا أجزي به) (٣) وقال الجنيد : (الصوم نصف الطريقة) (٤) .
وللصوفية أمام هذه العبادة أحوال أستتجها من أفعالهم وأقوالهم ، فأقول وبالله التوفيق :

١ - منهم من عرف فضل الصوم وآدابه ، وتعلم أحكامه ، واستعان بالله تعالى على تأديته فأمسك الجوارح عن جميع شهواتها وصفا مطعمه واستجاب لأمر الله في فرضية الصوم فيؤلاء موافقون لما جاء به الشرع بوجوب الاقرار بفرضية الصوم إلا أن من هؤلاء الفريق من حمل نفسه المشاق في فرضية الصوم وفعل ما لم يأمر به الله ورسوله - عليه السلام - من تحميل النفس فوق طاقتها ، كان سهل بن عبد الله التستري يأكل في كل خمسة عشر يوماً مرة فإذا دخل رمضان لم يأكل فيها إلا أكلة واحدة وكان يفطر على الماء القراح وحده كل ليلة (٥) . وكان أبو عبيد اليسري (٦) إذا دخل رمضان دخل البيت وسد عليه الباب ويقول لأمرته

(١) سورة الزمر : آية ١٠

(٢) عوارف المعارف ص ٢٩٦

(٣) سبق تخريجه ص ٣٠٠

(٤) كشف المحجوب ص ٥٦٤

(٥) التمع ص ٢١٧

(٦) من كبار مشايخ الصوفية صاحب أبنا تراب النخشي (الطبقات الكبرى للشعراني ج ١ ص ٩٠)

اطرحي كل ليلة رغيماً من كوة في البيت ولا يخرج منه حتى يخرج رمضان فتدخل امرأته البيت فإذا الثلاثون رغيماً موضوعة في ناحية البيت وكانوا يصومون تطوعاً في السفر والحضر على الدوام وأدبهم في صومهم ما روى عن النبي عليه السلام انه قال : (الصيام جنة) (١) ولم يقل جنة من أي شيء ولكن معناه أن الصوم جنة في الآخرة من النار؛ لأن الصوم للصائم في الدنيا جنة من سهم الأعداء الذين يدعونهم إلى النار وهم : الشيطان ، والنفس ، والهوى ، والشهوات ومن اختار المداومة على الصيام اختار ذلك للاجتياز بالجنة من مكائد الأعداء لكيلا يجدوا فرصة فيظفروا به ويطرحوه في النار (٢)

(١) رواية البخاري في الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - حديث رقم ١٨٩٤ وورد بلفظ (نصوم

جنة) في الحديث رقم ٧٤٩٢ في صحيح البخاري .

(٢) انمع ص ٢١٧

وكانوا يختارون صوم داود عليه السلام : لما روي في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود - عليه السلام - كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه و كان يصوم يوماً ويفطر يوماً) (١) وهذا الصوم أشد على النفس من صوم الدهر لأن النفس إذا ألفت الصوم مع الدوام اشتد عليها الإفطار وإذا الفت الإفطار وتعودت اشتد عليها الصوم . وهذا الصوم ، صوم يوم وإفطار يوم لا تتعود فيه النفس الإفطار ولا الصوم فلذلك قال من قال : إنه أشد الصيام ، وقد حكى في معنى ذلك عن سهل بن عبد الله قال : إذا شبعتم فاطلبوا الجوع وإذا جعتم فاطلبوا الشبع ممن أبلاكم بالجوع وإلا تماديتم وطغيتم ، وكان أحد الصوفية (٢) قد صام نيافاً وخمسين سنة لا يفطر في السفر ولا في الحضر وجهد به أصحابه يوماً أن يفطر فأفطر واعتل من ذلك أياماً حتى كاد أن يفوته الفرض .

٢ - جماعة منهم تركوا الأسباب وقطعوا العلايق وتركوا المعلومات وقنعوا بما قسم الله من الأرزاق ولا يدرون أي وقت يسوق الله إليهم أرزاقهم من الغيب فهم متوكلون ، وأوقات هؤلاء أتم من أوقات الصائم الذي يرجع إلى معلوم ومعهود من الطعام المعد لأفطاره - حسب زعمهم - فإن صاموا فلا يلحقهم أحد من الصائمين في الفضل .

ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع وأخذهم من

(١) روة البخاري في الصحيح باب صوم داود حديث رقم ١٩٧٩ عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - ومسلم في الصحيح كتاب الصيام حديث رقم ٦٩١ و التلخيص لمسلم ورواه أحمد والنسائي وأبو

داود (فيض القدير حديث رقم ٢١٢)

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن حنبل

الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة ، والنفس من طبعها أنها إذا أقهرت لله تعالى في شيء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها فيصير بالأكل النوم ضرورة والقول والفعل ضرورة (١)

ومن آدابهم أن لا يصوم واحد من بين الجماعة إلا بإذن أصحابه لأنه إذا صام شغل قلوب أصحابه بإفطاره وهم على غير معلوم وإن صام واحد من دون الجماعة برضا أصحابه وحضر المفطرين شيء من الطعام فليس يلزمهم أن ينتظروا وقت إفطار الصائم لأنه ربما يكون في الجماعة من يكون به حاجة إلى الطعام والله سبحانه يأتي للصائم برزقه إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته فيأخذ نصيبه فيدخره (٢) أما الصوفي المقيم في رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام ولا يلزمهم موافقة الجمع في الإفطار وهذا يظهر في جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار ، فأما إذا كانوا على غير معلوم ففيل مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام (٣) ومن كان في مقام السلوك ودعى إلى طعام وهو صائم فلا ينبغي له النظر لئلا يعود نفسه نقض العهد مع الله بخلاف العارف الكامل له النظر بلا كراهة لإحكام رياضة نفسه (٤) حكى عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم ويقول : ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم للصائم إذ كان متطوعاً (٥) .

(١) عوارف المعارف ص ٣٠٣

(٢) التمع ص ٢١٩

(٣) عوارف المعارف ص ٣٠٥

(٤) تكريت الأحمر ص ٦٤

(٥) التمع ص ٢٢٠

أما إذا كانوا جماعة مترافقين وبينهم مريد يحثوه على الصيام فإن لم يساعده يهتموا لإفطاره ويتكفلوا له رفقاً ولا يحملون حاله على أحوالهم وإن كانوا جماعة ومعهم شيخ يصومون بصومه ويفطرون بإفطاره إلا أن يأمرهم الشيخ بغير ذلك فإنهم لا يخالفون أمره ؛ لأن الشيخ يعلم ما يصلح لهم . حكى عن بعضهم أنه قال : صمت كذا وكذا سنة لغير الله : وذلك أن شاباً كان يصحبه فكان يصوم حتى ينظر إليه ذلك الشاب فيتأدب به ويصوم بصيامه (١) وكان أبو الحسن المكي بالبصرة يصوم الدهر ولا يأكل الخبز إلا كل ليلة جمعة وكان قوته - كما قيل - في كل شهر أربعة دنانير يعمل بيده يفتل حبال الليف ويبيعها وقد اشتهر بترك الأكل .

ومن الصوفية من كان يصوم سنين كثيرة ويفطر قبل غروب الشمس إلا في رمضان لأنه يريد أن يؤدب نفسه بالجوع ومنهم من يصوم صوم الوصال اقتداء بالنبي عليه السلام لأنه كان يصوم صوم الوصال ومنهم من كان يصوم كل سنة أربعين يوماً ليصح له مقام المكاملة (٢) . ومنهم من يلزم الصوم ولا يبالي على ماذا أفطر ولا يتحاشى في صومه عن غيبة ولا عن نظرة ولا عن فضول كلمة .

ومنهم من عادته صوم الإثنين والخميس فإذا دعى إلى طعام قال اليوم الخميس ولو قال إني صائم كائن محنة فهو يرى الناس بعين الاحتقار صائماً وهم مفطرون . ومنهم من ينكر الصيام الذي شرعه الله للمسلمين ويرى أنه لا يصوم حقيقة إلا من لا يأكل اللحم الضائي أيام الصوم كالنصاري وأما المسلمون الذي يأكلون اللحم الضائي والدجاج أيام الصوم فصومهم باطل عند هؤلاء الصوفية (٣) .

(٣) انظر طبقات الشعراني ج ٢ ص ١٢٨

(٢) كشف المحجوب ص ٥٦٩

(١) النع ص ٢٢٠

وبعد فهذه أحوال الصوفية أمام عبادة الصوم ومظهر التوكل في كل حالة وسأناقش هذه الأحوال على ضوء الكتاب والسنة فأقول وبالله التوفيق :

غالبية أهل التصوف يقولون أن رمضان فريضة يجب عليهم صيامه كما أمر الله تعالى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيانات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ (١) وإنما أنكر قلة منهم الصيام وكذلك وقع الخلاف بينهم في صوم التطوع .

فالفريق الأول سار على النهج الذي رسمته الشريعة الغراء في صيام التطوع فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أفضل الصيام صيام داود - عليه السلام - كان يصوم يوماً ويفطر يوماً) (٢) وعن عبد الله بن عمرو قال : (أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنني أقول : والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ماعشت . فقلت له : قد قتلته بأبي أنت وأمي . قال : فأنتك لا تستطيع ذلك ، فصم وأفطر ، وقم ونم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر . قلت : إني أطيق أفضل من ذلك . قال : فصم يوماً وأفطر يوماً فذلك صيام داود عليه السلام وهو أفضل الصيام . قلت : إني أطيق أفضل من ذلك . فقال : النبي - صلى الله عليه وسلم - : لا أفضل من ذلك) (٣)

(١) سورة البقرة : آية ١٨٥

(٢) رواه الشيخان وأصحاب السنن (فيض القدير حديث رقم ٢١٢)

(٣) رواه البخاري في الصحيح باب صوم الدهر حديث رقم ١٩٧٦ ومسلم في الصحيح كتاب الصيام حديث رقم ٦٩٠ واللفظ للبخاري .

أما الفريق الثاني الذي داوم على الصوم فأقول :

المداومة على الصوم جائزة إذا أفطر الإنسان الأيام المحرم صومها إلا أن الآفة فيه من وجهتين أحدهما : أنه ربما عاد بضعف القوى فأعجزه ومنعه من إعفاف زوجته فعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (....) إن لزوجك عليك حقاً ٠٠٠) (١) فكم من فرض يضيع بهذا النفل .

والثاني : أنه يفوت الفضيلة فالمداومة على الصوم مع خشونة المطعم وقتله أو مع انتظار الرزق الذي يأتيه من السماء كل هذا تفريط وتواكل في حق النفس الواجب حفظها وحمل عليها ما لا تطيق وكذلك تواكل على الغير في تدبير ما يحتاجه هذا الصائم من طعام وشراب وهذا لايجوز . أما مداومة جماعة من السلف على الصوم فلأنهم كانوا يقدرون على الجمع بين ذلك وبين القيام بحقوق العائلة أو لعل أكثرهم لم تكن له عائلة وفيهم من فعل هذا في آخر عمره على أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا أفضل من ذلك) قطع هذا الحديث (٢)

وأما من يصوم الدهر ويشيع عنه ذلك فلا يفطر وإن أفطر أخفى إفطاره لئلا ينكسر جاهه هذا العمل من خفي الرياء وتواكل على الناس لأن الصائم باستمرار لا يستطيع تأدية عمله على الوجه المطلوب وهذا الصائم لو أراد الإخلاص وستر الحال لأفطر بين يدي من قد علم أنه يصوم ثم يعود إلى الصوم ولم يعلم به الناس حتى يبتعد عن الرياء ، ومنهم من يخبر بما قد

(١) رواه البخاري في "صحيح كتاب الصيام حديث رقم ١٩٧٥ ومسلم في "صحيح كتاب الصيام حديث رقم ١٧٨" واللفظ للبخاري .

(٢) تيسر ليس ص ١٩٩

صام فيقول اليوم منذ عشرين سنة ما أفطرت ويخبر بذلك ليقّتي به بقية الناس وليحثهم على توفير ما يريده هذا الصوفي لأنه من الأولياء الصالحين وهذا ما يحاول الكثير من الصوفية استغلاله لإثارة عواطف الناس نحوهم وهو ضرب من ضروب التواكل والاعتماد على الغير الذي لم يشرعة الإسلام .

أما من يصوم ويفطر قبل غروب الشمس إلا في رمضان فهذا مخالف للسنة وأنكروا عليه هذا الفعل لمخالفته الشرع والحقيقة أنه إن اعتقد الصوم فقد لزمه الوفاء به وإن لم يعتقد الصوم فسبيله سبيل المتقللين فلا يقال له صائم (١) . وأما صوم الوصال فقد ورد نهى عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه حين كان يواصل الصيام كان الصحابة يوافقونه فقال : (لا تواصلوا . قالوا إنك تواصل . قال : لست كأحد منكم أني أطعم وأسقى أو إني أبيت أطعم وأسقى) (٢) وصوم الوصال مخالف للسنة ، لأنه تحميل للنفس أكثر مما تطيق وأما من يصوم ولا يبالي على ماذا أفطر ولا يتحاشى في صومه عن غيبه ولا عن نظره فهو مخالف لما عليه أهل السنة ولم يتقيد بشروط وظوابط هذه العبادة ، ولم يفهم الغاية من فرضيتها ، فالرسول عليه السلام يقول : (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش) (٣) فيجب الإمساك عن اللغو والحرام وليس من الأدب أن يمسك الصائم عن المباح ويفطر بحرام الآثام ورسول الله - صلى الله عليه وسلم

(١) تنوع ص ٢٢١

(٢) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه باب الوصال حديث رقم ١٩٦١

(٣) رواه الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما ورواه أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه (فيض القدير حديث رقم ٤٤٠٥)

علمنا الأدب في الصوم فقال عليه السلام : (إذا أصبح أحدكم يوماً صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل: إني صائم إني صائم) (١)

وأما من أنكر فرضية الصيام دون شبهة أو جهل ، فهو منكر لركن من أركان الإسلام ولا يصح إسلامه إلا بالإقرار بهذا الركن وأداؤه على الوجه المشروع ، لأن الأدلة تضافرت على وجوبه وفرضيته وأجمعت الأمة على وجوبه وأنه أحد أركان الإسلام التي علّمت من الدين بالضرورة (٢)

وإعطاء الشيخ الصوفي لنفسه حرية الفعل والترك والنظر وحرمان المريد من هذه الأفعال لم يأت بها شرع ولا دين وإنما سار بعض مشائخ التصوف على هذا الطريق ليعطوا أنفسهم مميزات لا يحصل عليها غيرهم حتى لو كان أحد تلاميذهم المخلصين ، وهذه بعض الفوائد التي يحاول كسبها بعضهم من خلال انحرافهم عن الطريق السوي .

أما من يصوم ليخلص من الصفات والطبائع البشرية ليتصف بصفات الربوبية ، أو من يصوم لينزل عليه الوحي ويصح له مقام المكاملة فهذه كلها أقوال وأفعال نتيجة للشطح الصوفي الدخيل على الدين الحنيف ، ونتيجة لعدم تقيدهم بالنصوص الشرعية فلذلك زلت بهم القدم وانحرفوا عن الطريق السوي .

فهذه هي الآداب التي علمها الرسول صلى الله عليه وسلم لأمتيه والمخالف لهذه الآداب مخالف لأهل السنة والجماعة ولما جاء بالشرع المطهر .

(١) رواد البخاري في الصحيح حديث رقم ١٨٩٤ ومسلم في الصحيح حديث رقم ٦٨١ واللفظ لمسلم

(٢) نظرقه السنة ج ٢ ص ٣٦٦

الحج :

لغة : القصد (١)

اصطلاحاً : قصد مكة لعمل مخصوص في زمن مخصوص (٢)

قال تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ (٣) والحج فرض عين على العبد في حال صحة وحصول الاستطاعة وهو عند أهل التصوف : إشارة إلى استمرار القصد في طلب الله تعالى (٤) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من مات ولم يحج حجة الإسلام مات إن شاء يهودياً أو نصرانياً) (٥) فمن أجل ذلك لم يسقط عنهم مطالبة الحج وإن عدموا الزاد والراحلة لأن من آدابهم أن يتمسكوا بالأحوط في الفرائض ويأخذوا بالأتم من علم الشريعة (٦) ؛ لأن التعلق بالرخص سبيل العامة والأخذ بالسعة حال الضعفاء (٧) ، فهم في حجهم بين متوكلون معتمدون على الله ومتواكلين على الناس ومتاعهم ، ولذا سأعرض لأحوال هؤلاء موضحاً مظاهر التوكل في كل حالة فأقول :

١ - صنف من الصوفية إذا حجوا حجة الإسلام جلسوا واشتغلوا بحفظ أوقاتهم ومراعاة أحوالهم فطلبوا السلامة ولم يتعرضوا للبلاء بما يلحقهم من المشقة (٨) وهؤلاء هم المعتدلون لأنهم أخذوا بالأسباب وتوكلوا على ربهم

(١) القاموس المحيط باب (الجيم فصل الحاء) (٢) حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع ج٣ ص ٥٠٠

(٣) سورة آل عمران : ٩٧ (٤) كشف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ٢٠ وانظر الإنسان الكامل ج ٢ ص ٨٧

(٥) رواد الترمذي عن علي رضي الله عنه في سننه كتاب الحج حديث رقم ٨١٢ بلفظ (من ملك زاداً وراحلة تلغة إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ٠٠٠) وقال ٠٠٠ : حديث غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ٠ (٦) هذه الدعوى بخلاف الواقع فإذا التزم بها فئة قليلة من أهل التصوف فإن الغلبة تعطى منهم يحنون عن الرخص بل والبذع ليتخلصوا من العبادات الشرعية المفروضة ، بل ويرتكبون المعاصي والآثم بكثرة ٠ (٧) (٨) التمع ص ٢٢٢

وأدوا فرضهم • حج سهل بن عبد الله وله ستة عشر سنة وكان زاده شيئاً من الكبد المشوي المدقوق فكان يستف منه إذا جاع قليلاً وكذلك الجنيد لم يحج إلا حجة الإسلام وحجتهم في اختيارهم في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحج إلا حجة واحدة (١)

وهذا يدل على أن هذا الصنف من الصوفية لم يعرضوا أنفسهم للهلاك وأخذوا بالأسباب وتوكلوا على ربهم .

٢- وطبقة أخرى من الصوفية فارقوا الأوطان وهجروا الإخوان قصدوا بيت الله الحرام فقطعوا البوادي والقفار بغير حمل نفقة ولا زاد ولا تعلقوا بمصاحبة الرفيق ولا طلبوا المنازل ولا المناهل ولا تعرجوا على سبب ولا التجأوا إلى طلب وذلك لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناء ﴾ الآية (٢) . وهؤلاء الطبقة قد عرضوا أنفسهم للبلاء ولم يطلبوا السلامه وتركوا الأسباب وخرجوا للحج بغير زاد حتى لا يفسد التزود توكلهم على الله ، لأن التوكل عندهم يتنافى مع الأسباب ، ومن حكاياتهم حج حسن القزاز الدينوري اثنى عشرة حجة حافياً مكشوف الرأس فكان إذا دخل في رجليه شوك يمسح رجليه بالأرض ويمشي ولا يطأ رأسه إلى الأرض من صحة توكله . وكان أبو عبد الله المغربي يدخل البادية وعليه إزار ورداء أبيض وفي رجليه نعل طاق كأنه يمشي في السوق فإذا دخل مكة وفرغ من الحج أحرم من تحت الميزاب ويخرج من مكة وهو محرم ويقيم على إحرامه إلى أن يرجع إلى مكة . وقال إبراهيم الخواص : أعرف في البادية تسعة عشر طريقاً غير الطريق الذي يسلكه

(١) تنوع ص ٢٢٣

(٢) سورة البقرة جزء من الآية : ١٢٥

الناس والقوافل ، ثم يقول : خرجت في بعض السنين من مكة واعتقدت أن لا أتناول شيئاً إلى أن أدخل القادسية فلما وافيت الرّبذة وخرجت منها فإذا أنا بأعرابي يصيح من ورائي فلم أعطف عليه (١) فلحقني وإذا بيده سيف مسلول وبيده الأخرى قعب فيه لبن فقال لي : اشرب هذا وإلا ضربت رقبتك قال : فبقيت متحيراً فتناولت منه وشربت وانصرف عني وما رأيت شيئاً آخر حتى دخلت القادسية (٢) .

فهذه الروايات تدل على أن هؤلاء الصنف من الصوفية قد عرضوا أنفسهم للمخاطر ورفضوا الأسباب زعماً منهم أنه توكل على الله وقطعوا الفيافي والقفار من غير زاد ليصححوا التوكل وهم لا يدرون أن ذلك بدعة لم تتقل عن الصحابة وسلف هذه الأمة - وقد كانوا أعلم بالتوكل منهم - ما فهموا أن التوكل هو المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد (٣)

٣ - وأما الطبقة الثالثة من الصوفية فإنهم اختاروا المقام بمكة والمجاورة بها وحبسوا أنفسهم هناك لما خص الله تعالى به تلك البقاع والمشاهد من الفضيلة والشرف ولأنها واد غير ذي زرع وهو الحجاز يحجز عن الشهوات واللذات ولا سيما لمن كان قوته في الغيب ورزقه مقسوم ورفقه معدوم والنفس مجبولة على الاضطرابات عند عدم الوفاء بها والعبد مطالب بالسكون تحت الأحكام فعند ذلك تبين مقامات الرجال (٤) فهؤلاء الناس قد

(١) لم يستجب هذا الصوفي لمن يصيح خلفه خارج العمران فربما كان من يصيح بحاجة إلى مساعدة أو بحدّة فيل هذا من تعاليم الإسلام ٥٢

(٢) الجمع ص ٢٢٤

(٣) كشف والتبين في غرور الخلق أجمعين محمد محمد جابر مكتبة الجندي بالقاهرة ص ٢١١

(٤) نظر الرعاية لحقوق الله لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي تحقيق عبد القادر أحمد عطاء دار الكتب

العلمية بيروت لبنان ص ٤٦٨

تركوا الكسب وقعدوا عن العمل زاعمين أن التوكل هو ترك العمل والقيود عن الكسب طمعاً فيما وعد الله به من الرزق وهم بذلك يسيئون للإسلام ويتجنون على تعاليمه ومنهم من اغتر بالحج وخيل إليهم أنهم بكثرة هذه الأعمال ينالون الأجر والثواب دون تصحيح مطعمهم وملبسهم من الشبهات وغير ذلك وجوارحهم منتشرة عليه في أكثر عمره ما يكره ربه عز وجل (١) ومن حكاياتهم أقام أبو عمرو الزجاجي بمكة ثلاثين سنة فإذا أراد أن يقضي حاجته خرج عن الحرم ويعتمر في كل يوم ثلاث عمر ويأكل كل ثلاثة أيام أكلة وقال إبراهيم الخواص : أقام في مكة فتى من الفقراء سنين فكنت أتعجب من حسن جلسته وكثرة طوافه وعمرته فقلت في نفسي أحمل إليه شيئاً من الدراهم حتى أدخله بذلك ، قال : فحملت إليه دراهم كثيرة وصببت على طرف خرقة قال : فنظر إليّ ، ثم أخذ الخرقة وصب الدراهم على الأرض وخرج من المسجد فما رأيت أعزّ منه حين صبها وأعرض عنها ولا أذلّ مني حين جلست أجمعها وألقطها من بين الحصى (٢) والحقيقة التي لا مرأى فيها أن هؤلاء الذين سافروا إلى الأماكن المقدسة ولقوا ما يلحقهم من البلاء في القصد إليها يضمنون أنهم يحققون قول النبي - عليه الصلاة والسلام - : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى) (٣)

(١) التبع ص ٣٢٥

(٢) التبع ص ٢٢٦

(٣) رواه البخاري برقم ١١٨٩ ومسنم برقم ١١٨٩ وأبو داود والنسائي وابن ماجه (فيض القدير رقم ٩٨٠٢)

والمعنى الآخر الذي يطلبونه هو : أن النفس تدعي أحوالاً في الوطن وفي وسط المعارف والمألوفات من التوكل والرضا والسكون والتسليم والتفويض فإذا فارقت الوطن والمعارف تتغير أخلاقها ويبطل دعواها (١)

والناظر بعين البصيرة لهؤلاء المتصوفة الذين كابدوا المخاطر بلا زاد وركنوا إلى المقام وسلكوا طريق المهالك وزعموا أن التوكل هو ترك العمل والتعرض للمخاطر أو الجلوس في المساجد زاعمين أن الرزق يأتيهم بلا تعب ومشقة يجد أن هذا العمل إساءة فهم لتعاليم الإسلام قال تعالى : ﴿ ٠٠٠ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ (الآية ٢) ؛ لأنه لا رهبانية في الإسلام والله سبحانه لم يحرم حمل الزاد ولم يأمرهم أن يخرجوا من ديارهم بغير زاد ولا راحلة بل أمرهم بالتزود قال تعالى : ﴿ ٠٠٠ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ (٣) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتزود في حروبه وغزواته ويأخذ لكل أمر عدته ولم يفعل ما يفعله هؤلاء الصوفية (٤) .

أما من حبس نفسه في مكة وأجهدا في العبادة ومزاحمة الحجاج والعمار فهذا عمل يتناقى مع تعاليم الدين الخفيف ومنافي للتوكل الذي قصده صاحبه وأما تعريض النفس للمخاطر فهو محرم بنص الكتاب قال تعالى : ﴿ ٠٠٠ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (٥)

وبعد فهذه مظاهر التوكل في الحج عند الصوفية والله أعلم .

(٣) سورة البقرة جزء من الآية ١٩٧

(٢) سورة الحديد : الآية ٢٧

(١) نصح ص ٢٢٦

(٥) سورة البقرة جزء من الآية ١٩٥

(٤) نظر الرحيق المختوم ص ٤٢٤

خامساً : الزكاة :

نفقة : النماء وصفوة الشيء وما أخرجته من مالك لتطهره به (١)
اصطلاحاً: حق واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في وقت
مخصوص (٢)
والزكاة معناها في النماء والطهارة قال تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة
تطهرهم وتزكّيهم بها ﴾ (٣) ، وزكاه أخذ زكاته وتزكى : تصدق (٤)
وللصوفية أمام الزكاة أحوال وسأعرض لأحوالهم موضحاً مظاهر التوكل
في كل حالة :

- ١- الصنف الأول قالوا إن الله تعالى لم يفرض عليهم الزكاة لأنه سبحانه
قد زوى عنهم من أموال الدنيا ما يجب عليهم فيه الزكاة والصدقة ، فقد
حكى عن أحد الصوفية (٥) أنه قال : نعمة الله تعالى عليّ فيما زوى عني
من الدنيا أعظم من نعمة الله تعالى : عليّ فيما أعطاني ويقول : لم تجب
عليّ زكاة قط (٦) ، و كان أحد الصوفية ينفق من المال ما يتعجب منه
تجار مصر ويقولون: ما لنا لا يفي بنفقته ويقال: إنه لم تجب عليه زكاة (٧)
لأن زكاة النعمة والدنيا عند هذه الطائفة - الصوفية - غير محمود (٨)
- ٢- وصنف لا يأكلون من الزكاة ولا يطلبونها ولا يأخذونها وقد أباح الله لهم
أخذها وإن أكلوا حلالاً طيباً إلا أنهم يريدون بترك ذلك إيشار الفقراء وترك
المزاحمة للضعفاء وأهل الحاجات (٩)

(١) تقيوس محيط (باب النوافل فصل الكف) (٢) حاشية الروض ترميز شرح زاد المستقنع ج ٣ ص ١٦٤

(٣) سورة التوبة : جزء من آية ١٠٣ (٤) مختار الصحاح : (باب تصد) (٥) هو عبد الله بن الشخير

(٦) تلح ص ٢١٠ والتصوفي هو: أبو علي ثمشوني (٧) تلح ص ٢١١

(٨) كشف المحجوب ص ٥٥٧ (٩) تلح ص ٢١٠ وكشف المحجوب ص ٥٥٩

٣- وصنف اختار قبول الزكاة والصدقات على الهدايا والهبات وقالوا جعل الله تعالى للفقراء حقاً في أموال الأغنياء ، فإذا أخذنا حقوقنا التي جعل الله تعالى لنا فلا معنى لتركه ولا نختار على ما اختار الله تعالى لنا ورسوله صلى الله عليه وسلم وقالوا : الامتناع من أخذ الزكاة ضرب من تعزز النفوس وكراهية الفقر وهذا نوع من التواكل وليس من التوكل في شيء (١)

٤- وصنف منهم يؤدي زكاة الأموال ولكن يحتاج إلى أربعة أشياء حتى يكون مؤدياً للزكاة :

الأول : أن يكون أخذ المال من حلال .

الثاني : لا يكون جمعه للافتخار والتكبر والترفع على من يكون دونه .

الثالث : أن يبدأ بحسن الخلق والسخاوة مع الأهل والعيال .

الرابع : مجانية المن والأذى إلى من يدفع إليه الزكاة (٢) .

والناظر إلى أحوال الصوفية في الزكاة يرى أن منهم من لا يؤدي الزكاة ألبة ؛ لأنه لا يترك المال يبقى عنده حتى يستحق الزكاة ، وليس من باب إنكار فرضية الزكاة عليه ، وهذا مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة ؛ لأن من ينفق ماله من الصوفية حتى لا تجب عليه الزكاة ويفرح بذلك فهذا الصوفي لا تسقط عنه الزكاة وتجب عليه ؛ لأنه قصد بذلك الفرار من

(١) تمع ص ٢١٣

(٢) تمع ص ٢١٥

الزكاة ولأنه قصد به إسقاط حق غيره وهذا عقوبة له لأن الله قد عاقب الفارين منها ولئلا يكون ذريعة إلى إسقاطها جملة (١) وأما إن كان إنفاقه لأمواله ليس فراراً من الزكاة فهو حتماً يكون مسرفاً ومبذراً وقد نهى الله عن ذلك فقال تعالى ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢)

وأما ما وصفوه من شروط لإداء الزكاة فلم ترد بالشرع بهذه الصيغة وإنما تؤدي الزكاة إذا بلغت نصاباً فاضلاً عن الحاجات الضرورية وأكملت حولاً وزكاة الثمار عند الحصاد (٣) على أن الشروط التي ذكروها تعتبر من الآداب التي يحث عليها الإسلام دائماً في كل تعامل ولا بأس بها ولكن كما أسلفت لم تكن من شروط الزكاة التي وردت بالشرع ولا تقتصر هذه الشروط على الزكاة دون غيرها •

و منهم من يتقبل مال الزكاة وفضلوها على الصدقات والهبات وهؤلاء إن كانوا أحد الأصناف الثمانية (٤) التي تعطى لهم الزكاة فلا بأس في ذلك •

(١) حاشية الروض المربع ج ٣ ص ١٦٤

(٢) سورة الإسراء آية ٢٧

(٣) انظر فقه السنة ج ١ ص ٢٨٢

(٤) المغني لابن قدامة ج ٢ ص ٦٦٥

(٥) انظر فقه السنة ج ١ ص ٣٢٥

والخلاصة إن من الصوفية : من لا يتقبل مال الزكاة وذلك لأن الادخار عندهم ينافي التوكل .

ومنهم : من لا يزكوا لعدم تركهم لأموالهم حتى الحول .
 ومنهم : المعتدلة الذين اعترفوا بوجوب الزكاة وأدوا حق الله في مال الله وذلك ؛ لأن الكسب والادخار عندهم لا ينافي التوكل وقبلوا أخذ الزكاة ، لأن من مقاصد الزكاة كفاية الفقراء وسد حاجتهم فيعطون من الصدقة القدر الذي يخرجهم من الفقر إلى الغنى ومن الحاجة إلى الكفاية إذا كان ذلك متيسراً وعلى الفقراء بدورهم عدم الاعتماد على توزيع الزكاة والصدقات وانتظارها سنة بهد أخرى ؛ بل يجب عليهم العمل لتأمين حياة كريم لهم ولمن يعولون لا أن يتواكلوا ويتكاسلوا في تحصيل أرزاقهم .

المبحث الثاني : السنن وفروض الكفاية .

أ = الجهاد :

لغة : بذل الوسع (١) والطاقة

اصطلاحاً: قتال الكفار خاصة (٢)

هو الدعاء إلى الدين الحق (٣) وقاتل الكفار وفرض في الإسلام على جميع المسلمين بنص القرآن والحديث يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (٤) وآيات القرآن كثيرة التي تحث المسلمين على قتال الكفار وأعداء الله وتحضهم على الجهاد في سبيل الله .. وعن الجهاد قال الرسول صلى الله عليه وسلم " (لروحة في سبيل الله أو القدوة خير من الدنيا وما فيها) (٥) وقوله عليه السلام : (ما اغبرتا قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار) (٦)

إذن فالمسلمون مكلفون بالجهاد وفقاً للكتاب والسنة ، والغاية من الجهاد إعلاء كلمة الله تعالى وأن يكون الدين كله لله ويكون ببذل الوسع مباشرة بساحة القتال ، أو بالمعونة بالمال أو بالرأي أو بتكثير سواد المسلمين وهو بالمفهوم الإسلامي : فرض كفاية ابتداء وفرض عين إن هجم العدو ؛ ولأن

(١) مختار الصحاح (باب الجيم)

(٢) حاشية الروض المربع ج ٤ ص ٢٥٣

(٣) كتاب التعريفات للجرجاني ص ٨٤

(٤) سورة التوبة آية ١٢٣

(٥) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير حديث رقم ٢٧٩٦

(٦) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير حديث رقم ٢٨١١

الجهاد سبب من أسباب حماية الدين ونشره ، وسبب لحماية الأعراس والأموال والأنفس وإن كان ما قدره الله حاصل إلا أن الصوفية يرون أنه لا فائدة من الأعمال ؛ لأن الأعمال واتخاذ الأسباب قاذح في التوكل الذي أمرنا الله به ويزعم الصوفية أن لهم كرامات ولكنهم لم يظهروا هذه الكرامات للدفاع عن دينهم وأوطانهم وسكتوا ورضوا بما نزل بقومهم ويعطلون سكوتهم ورضاهم بما نزل بقومهم من احتلال الأعداء لأرضهم وغيرها من المصائب بأنها عقاب من الله تعالى للمكذبين من خلقه فلا يجوز دفع هذا العقاب بالجهاد .

وإذا كان الله قد سلط على قوم ظالماً فليس لأحد أن يقاوم إرادة الله تعالى أو أن يتأفف منها ؛ لأن الاستعمار من عند الله !! (١)
 إذن فالصوفية متهمون بصرف الناس عن الجهاد .. وهم متهمون أيضاً بإدخال تفسيرات غريبة وشاذة على آيات القرآن الكريم وهناك من الشواهد والأدلة ما يؤيد هذا القول:

من ذلك ما روي عن داود بن صالح أنه قال .. قال لسي أبو سلمة بن عبد الرحمن يا ابن أخي هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ (١٠٠) الآية (٢) قلت : لا قال يا ابن أخي لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يربط له الخيل ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة فالرباط لجهاد النفس والمقيم في الرباط مرابط مجاهد لنفسه (٣)

(١) الصوفية الوجه الآخر ص ١٠٧

(٢) سورة آل عمران آية : ٢٠٠

(٣) عوارف المعترف ٢ / ٥٥

وقال بعض الصوفية في قول الله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ (١) إن معناه مجاهدة النفس والهوى وذلك هو حق الجهاد وهو الجهاد الأكبر على ما روي في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من بعض غزواته قال : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) (٢) وفي الوقت الذي يخطئون فيه في تفسير القرآن الكريم ؛ لأن الآية التي أشاروا لها لاتنص على ماذكروه من أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس والهوى وإنما ذكر بعض المفسرين أن معناها المجاهدة في سبيل الله بالأموال والأسنة والأنفس (٣) لاكما يدعي الصوفية ويخطئون كذلك في الاستشهاد بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا الحديث الذي استدلوا به لم يصح عند الثقة من رواه السنة وإن صح هذا الحديث عن

(١) سورة الحج آية : ٧٨

(٢) رواية البيهقي بسند ضعيف عن جابر كما رواه الخطيب في تاريخه ، وقت الحافظ ابن حجر هو من كلام إبراهيم بن عينة (انظر كشف الخفاء حديث رقم ١٣٦٢)

(٣) انظر تفسير الآية (٧٨) من سورة الحج في تفسير ابن كثير وكذلك صفوة التفسير ج ٩ ص ٤٩

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يعني أنه قد انتهى جهاد أعداء الله بعد حملة تبوك بل يعني الحث على جهاد النفس وحملها على صعوبة الطاعات كحملها على مشاق الجهاد في الحرب لأن العمل بأوامره ونواهيه لا يسقط عن الإنسان المسلم حتى أثناء وطيس الحرب بل يجاهد أعداء الدين لإقامة الشعائر فالدين الإسلامي ليس جهاد حريباً فقط وإنما هو قول وعمل يتجليان في الدعوة إليه والجهاد في سبيل نشره وفي القيام بشرائعه قبل الجهاد وبعده وهذا هو الذي عناه الرسول الأعظم حين حث المسلمين على جهاد نفوسهم (١) والواضح من القرآن والمتواتر من السنة أن جهاد الكفار من أعظم القربات إلى الله وكانت الصحابة تنهافت على الجهاد في سبيل الله ليحصلوا على إحدى الحسينين قال تعالى ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ (٢)

ويقول الصوفية إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو فكتب إليه : يا أخي كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد والباب مردود فكتب إليه أخوه : لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمنا لاختلت أمور المسلمين وغلب الكفار فلا بد من الغزو والجهاد . فكتب إليه : يا أخي لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم وعلى سجاداتهم : الله أكبر لانهدم سور القسطنطينية ! (٣) ولمّا دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس، ونهبوا

(١) الصوفية في نظر الإسلام ص ٤٢٩

(٢) سورة النساء آية : ٩٥

(٣) نصرفية توجه الآخر ص ٤٣٠

الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه ، فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت . ثم قال : إن لله عبداً في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة !! ولكن لا يفعلون قيل : لم ؟ قال : لأنهم لا يحبون ما لا يحب (١) ولقد عاصر أئمة الصوفية الكبار كثيراً من معارك المسلمين فماذا فعلوا ؟ وماذا قالوا ؟ وماذا كتبوا ؟ لم يحرك واحد منهم ساكناً فهذا بيت المقدس قد سقط في أيدي الصليبيين ولم نسمع عن واحد من أئمة الصوفية أنه دعا إلى القتال أو شارك ولكن يقررون للناس أن الله عين كل شيء فليدع المسلمون الصليبيين فما هم إلا الذات الإلهية متجسدة في تلك الصور . وحين أغار الفرنجة على المنصورة اجتمع الصوفية الزعماء لماذا ؟ لقراءة رسالة القشيري والمناقشة في كرامات الأولياء بدلاً من أن يجتمعوا لإعداد العدة وإعلان كلمة الجهاد (٢) وحين احتلت البصرة وعاث بها الأعداء فساداً يرى الصوفية أن هذا العمل محبوباً لله فلا يجب دفعة ولا اتخاذ التدابير المانعة للأعداء من احتلال أرض المسلمين وانتهاك أعراضهم وسلب أموالهم واستباحة دمائهم ؛ لأن ذلك يقدح في التوكل على الله ولم يأمر به وإنما كل ما يجري يحبه الله ويرضاه .

وهم بهذه المواقف السلبية ينضمون تحت لواء الجبرية الذين يرون أن العبد مجبر على أفعاله وليس له القدرة على تغيير مجرى الأمور حتى لو كانت هذه الأعمال باستطاعته وفي متناوله ، ولا شك إنها تنتهى السلبية وهذا ما يدعوا إليه بعض أهل التصوف ويريدونه .

(١) فرت نقرب ج ٢ ص ٧١ وانظر الصوفية في نظر الإسلام ص ٤٣٠

(٢) انظر الطبقات الكبرى لشعراي ١ / ١٤

والحقيقة أن هذا العمل فرار من مباشرة الحياة الصحيحة التي دعا إليها الإسلام وفي مقدمتها الجهاد للذود عن كرامة المسلمين وديارهم وأعراضهم ووجودهم ونشر دين الله في أصقاع الأرض كما فعل ذلك السلف الصالح .

ب = القرآن : تعددت تعريفات الصوفية للقرآن فقالوا : هو المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف والمنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة . وهو عند أهل الحق : العلم اللدني الإجمالي الجامع للحقائق كلها (١) ويقول الجيلي : القرآن عبارة عن الذات التي يضمحل فيها جميع الصفات فهي المجلى المسماة بالأحدية أنزلها الحق تعالى على نبيه محمد ليكون مشهده الأحدية من الأكوان (٢) وقال التهانوي : القرآن الذات المحض (٣) والصوفية لا يحبون قراءة القرآن ، ولا يحبون سماعه واستبدلوا مجلس القرآن بمجلس القوال ، وذلك لأن القرآن سبب مؤثر على النفس البشرية وسبب في السكون والإنصات عند سماعه وسبب في التذكير بآيات الله ووعدته وعيده ويدعو إلى الأخذ بالأسباب في كافة الأحوال ويبين حال الرسل عليهم السلام وما اتخذوه من أسباب ووسائل في نشر دعوتهم وكذلك القرآن يتضمن آياته الدعاء والدعاء عديم الفائدة إذ هو مضمون الحصول كما يتضمن الشك وهو قاذح في التوكل فلو ترك العبد الدعاء ما فاته شيء مما قدر له - على حد زعمهم - .

وقد صرح القوم أن (السماع أدعى للوجد من التلاوة وأظهر تأثيراً والحجة

(١) التعريفات للرجائي ص ١٨١

(٢) الإنسان الكامل لجيلي ج ١ ص ١١١

(٣) كتاب اصطلاحات فنون التبتوي ج ٣ ص ١١٤

على ذلك أن جدل القرآن لا تتحمله القوة البشرية المحدثة ولا تحمله صفاتها المخلوقة ولو كشف للقلوب ذرة من معناها لدهشت وتصدعت وتحيرت والألحان مناسبة للطباع بنسبة الحظوظ وإذا عَلِقَت الألحان بالشعر كانت خفيفة على الطباع لمشكلة المخلوق بالمخلوق ما دامت البشرية باقية (١) ويصرح الصفوري بقوله : فإن قيل يتواجد المتواجد عند سماع الشعر دون سماع القرآن وذلك لأن القرآن كلام ثقيل لا يليق مع وجوده إلا السكون والإتصاف لأنه يتكرر في الأسماع وكلام الشعر كلام البشر فيبينهما مناسبة وأما كلام الله تعالى فلا مناسبة بينه وبين البشر (٢) وسئل ابراهيم الخواص : ما بال الإنسان يتحرك عند سماع الألحان ولا يجد ذلك عند سماع القرآن ؟ قال لأن سماع القرآن صدقه لا يمكن أحداً أن يتحرك فيه لشدة غلبته عليه وسماع الألحان ترويح فيتحرك فيه (٣)

فالصوفية أعرضوا عن القرآن لأن قراءته أو سماعه تقدح في توكلهم الذي أمرهم الله به ولذا قال أحدهم : القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا (٤) وابن عربي يزعم أن رسول الله صلى

(١) روضة التعريف للسان الدين بن الخطيب ص ٢٧١

(٢) نزهة المجالس عبد الرحمن الصفوري ج ٢ ص ٦١ وقوله هذا قول خطير جداً فإذا كان ليس بين القرآن وبين البشر مناسبة فما الحكمة من إنزائه ، فهو بهذا القول يريد أن يصل إلى عدم تنقيذ بالقرآن لأنه حسب زعمه لايناسب الطباع البشرية ، إن هذا من أساليب غلاة الصوفية الملتوية لتخلص من القرآن بصفة خاصة والدين بصفة عامة

(٣) جامع الأصول / الكمشقاني ص ٢٤٥

(٤) مجموعة الرسائل / ابن تيمية ج ١ ص ١٤٥ والقاتل هو التمساني .

الله عليه وسلم أعطاه فصوص الحكم وهو دين زندقته وقال له : اخرج به إلى الناس ينتفعون منه (١) فقد وصلت أيدي المتصوفة إلى محاولة تحريف القرآن وحالوا أن يصرفوا الناس عن تلاوته والتذكير بآياته وهذا أحدهم يستخف بالقرآن الكريم ويستهمين بآياته التي ذكر فيها الجنة والنار والثواب والعقاب فيكذب على الله تعالى حيث يقول : قال الله تعالى (الليل لي لا للقرآن يتلى الليل لي لا للمحمدة والثناء ٠٠٠ إن لك في النهار سباً طويلاً فاجعل الليل لي كما هو لي ... وما طلبتك لتتلو القرآن فتقف مع معانية فإن معانيه تصرفك عني ٠٠٠) (٢) واختلق الصوفية أوراداً واخترعوا وظائف وبنوا لها ثواباً من عند أنفسهم كأنهم مشرعون وزعموا أن الغناء أشد تبيجاً للوجد من القرآن (٣)

وبعد فهذه ادعاءات الصوفية وأقاويلهم على القرآن ولندع القرآن يرد على هذه الافتراءات والادعاءات التي ما أنزل الله بها من سلطان يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم

(١) فصوص الحكم لابن عربي بشرح باتي ص ٤٠

(٢) شرح الكلمات الصوفية للرندي بدون تاريخ طبعة ص ٢٥٦

(٣) الأحياء ج ٢ ص ٢٧٨

تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴿٠٠٠﴾ (١) وقال في وصف عباده :
﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته
زادتهم إيماناً﴾ (٢) ويقول : ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً
وبكياً وعلى ربهم يتوكلون﴾ (٣) فعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم يجتمعون . يقول ابن تيمية : كان أصحاب رسول الله
إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقيون يستمعون ، وكان عمر بن
الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى رضي الله عنه : ذكرنا ربنا
فيقرأ وهم يستمعون (٤)

وأما الحديث فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم (لا حسد إلا على اثنين : رجل آتاه الله هذا الكتاب فقام به
آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فتصدق به آناء الليل
وآناء النهار) (٥) والآديث والآيات أكثر من أن تحصى في هذا المقام .
وعليه فالعقيدة الصوفية لم تثبت بقرآن كريم أو سنة وإنما ثبتت العقيدة
عندهم بالإلهام والوحي المزعوم للأولياء والاتصال بالجن الذين يسمونهم
الروحانيين وبعروج الروح إلى السماوات وبالفناء في الله وانجلاء مرآة
القلب حتى يظهر الغيب كله للولي الصوفي - حسب زعمهم - وبالكشف
وبربط القلب بالرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى يستمد العلوم منه في

(١) سورة المائدة آية ٨٣ (٢) سورة الأنفال : آية ٢ (٣) سورة مريم : آية ٥٨

(٤) فتاوي ابن تيمية : ج ١١ ص ٥٩٩

(٥) رواه البخاري في الصحيح حديث رقم ٥٠٢٥ ومسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

حديث رقم ٢٦٧ واللفظ لمسلم

زعمهم وبلقاء الرسول صلى الله عليه وسلم في اليقظة والمنام وبالرؤى (١) ولذلك حرصوا على مخالفة طلب العلم الشريف علم سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والتفقه في الدين ولم يكتف المتصوفة من مخالفة طلب علم الشريعة والحديث والتفكير منه بل جعلوا كشفهم وما يزعمون نقله من العلم عن الله حاكماً على إسناد الحديث فيصححون ما شاءوا من الأحاديث وإن كانت ضعيفة عند علماء الحديث والسنة ويضعفون ما شاءوا منها وإن كانت ثابتة صحيحة (٢)

إن تعلم العلوم الشرعية سبب موصل لمعرفة الأحكام الظاهرة من عبادات وأحكام وهذه العلوم لها حد محدود وعلمهم ليس له نهاية ولا حاجة لهم في تعلم هذه العلوم لأنهم يتلقون العلم من الله عن طريق الكشف كما يزعمون فلا فائدة من الأعمال لأن الأعمال واتخاذ الأسباب قاذح في التوكل الذي أمرهم الله به فكل ما قضى الله للعبد وسبق في الأزل من علم أو غيره لا بد أن يصل إليه تحرك أو سكن وإن لم يكن قد قضى له لم يحصل له فعل أو ترك . وأما تعللهم في ترك الحديث فادعوا أن تعلم علم الحديث سبب موصل إلى الدنيا والركون إليها وهم زاهدون فيها لأنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة كما حكى عنهم ، ورأوا أن علمهم الذي يحصلون عليه أفضل من علم الكتاب والسنة فلا حاجة بهم إلى العمل في طلب تعلم الحديث لأن الأعمال واتخاذ الأسباب تؤدي إلى الركون إلى الدنيا ،

(١) تفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ٣٧

(٢) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ٦١ - ٦٢

كما أن تعلم علوم الشريعة والحديث يتطلب سعياً لاكتسابها وهذا السعي والعمل يقدح في التوكل وعلى ذلك فالعلم عندهم يأتي عن طريق الخرافات والمنامات والعبادات المبتدعة لا عن طريق التعلم .

يقول الجنيد : أحب للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه . ويقول أيضاً : المريد الصادق غني عن علم العلماء وإذا أراد الله خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء (١) ويفرق الشعراني بين المعرفة الصوفية وفقه الشريعة حيث يقول : كان . . . من العارفين ولكنه تستر بالفقه (٢) وقال أبو سليمان الداراني من طلب الحديث فقد ركن إلى الدنيا (٣) وقد ترك بشر الحافي طلب الحديث لأنه سمع أبا داود يقول : الإكثار من طلب الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون (٤) ويذكر الشعراني عن أبي المواهب الشاذلي أنه انقطعت عنه رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم لاشتغاله بفقه الكتاب والسنة (٥) وابن عجيبة يحذر من مجالسة العلماء والاستماع إليهم بقوله : الجلوس معهم اليوم أقبح من سبعين عاماً غافلاً وفقيراً جاهلاً لأنهم لا يعرفون إلا ظاهر الشريعة ويرون أن مخالفهم في هذا الظاهر خاطيء أو ضال فيجهدون في رد من خالفهم يعتقدون أنهم ينصحونه وهم يغشون فليحذر المريد من صحبتهم والقرب منهم ما استطاع (٦) وقال أبو يزيد البسطامي ناعياً على علماء الشريعة مفاخرأ لهم : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت يقول أمثالنا حدثني قلبي عن ربي وأنتم تقولون حدثني فلان وأين هو؟ قالوا : مات (٧) .

(١) لطيفات الكبرى ج١ ص ٨٤ (٢) لطيفات الكبرى ج٢ ص ٩٤ (٣) قوت القلوب ج٢ ص ١٥٢

(٤) غيث المواهب العلية للنفري الرندي ج٢ ص ١٤٥ (٥) لطيفات الكبرى ج٢ ص ٧٥

(٦) تنكرة الأولياء لفريد العطار ص ١٦ (٧) الفتوحات المكية ١ / ٣٦٥

وهكذا أراد بعض الصوفية نشر الجهل وأحبوه وكرهوا العلم ومحووا قواعده واشتروا الضلالة بالهدى والغي بالبصيرة وتفننوا في مخالفة العلم وذويه وتقريب الجهل وترويجه فاحتالوا واخترعوا طريقاً آخر سموه كشفاً وإلهاماً وأرادوا القضاء على العلم والعلم الشرعي بوجه خاص وإطفاء نور الهداية والرشد بمنع الناس عن القرآن والسنة والعلوم الشرعية زاعمين أن تعلم هذه العلوم من قرآن وسنة وعلوم شريعة تنافي توكلهم التام على ربهم الذي أمروا به مدعين أن علمهم لا يكون إلا من الحي الذي لا يموت وهذا ضرب من ضروب الجهل ومؤامرة ضد شريعة الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه ما دام الوحي ينزل والأحكامه تنزل وتعرف بالكشف فلا معنى لانقطاع النبوة وختم الرسالة وتمام النعمة ولو كان القرآن كافياً لهداية الأمة وإرشاد الناس لما احتيج إلى إنزال الأمور بعده ولو كانت السنة النبوية شافية لما اضطر إلى تنزيل السنن الجديدة وإن كانت تلك السنن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبينها هو عليه السلام لأصحابه الطيبين فكيف أدى الأمانة وبلغ الرسالة ولماذا شهد الله له بقوله ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ (١) أو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبين القرآن فاحتيج إلى أن يبينه الله بعد وفاته عليه السلام بواسطة صوفي أو جمع من الصوفية وماذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿٠٠٠﴾ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴿٠٠٠﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ (٣) .

(١) سورة التكرير : آية ٢٤ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨

(٢) سورة النحل : جزء من آية ٤٤

(٣) سورة آل عمران : آية ١٦٤

فدعوى الكشف والإلهام ليست إلا تعطيلاً للعلم والقواعد الشرعية بدون أصول ثابتة وأسس مطرده زيادة على الإلهامات المختلفة والمكاشفات المتناقضة المتضاربة في وقت واحد باختلاف الأشخاص وتعدد الملهمين وأهل الكشف لأنه لا مدخل للعقل ولا مقام للفكر فيها كما قال ابن عربي في فتوحاته: (واعلم أن علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر وإنما هي من الفيض الإلهي) (١) وهذا يرشح كل ما في إناء العقيدة الصوفية من مخالفة طلب العلم والسعي لاكتسابه والرحلة في سبيله فلا يخرج أحد لطلب علوم القرآن والحديث وليجلس في دير أو خلوة ويشغل فيها بالعبادة والتحنث فيفتح الله عليه بالتجلي على قلبه كما ذكر الشعراني مبيناً نزول صورة العلوم والإلهام عليه (٢) وهذه دعوة إلى الرهنة ومناقضة لقول الرسول الكريم عليه السلام (إنما العلم بالتعلم) (٣).

(١) الفتوحات المكية نقلاً عن كتاب الكبريت الأحمر ج١ ص ٥

(٢) البواقيت والجواهر للشعراني ج٢ ص ٨٤ وانظر دراسات في التصوف ص ١٣٦

(٣) حديث صحيح رواه الطبراني وغيره سلسلة الأحاديث الصحيحة ص ٣٤٢ وكشف الخفاء حديث رقم ٦٥٢

الصدقة هي ما يتصدق به على الفقراء (١) وهي العطية تتبع بها المثوبة من الله تعالى (٢) وقد دعا الإسلام إلى الإيثار والبذل والعطاء وحث على ذلك في أسلوب يستهوي الضمائر ويبعث في النفوس الأريحية ويثير فيها معاني الخير والبر والإحسان قال تعالى ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ (٣) ومدح الله المؤمنين فقال : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ (٤) والصدقة بها تزكو النفس وتكفر الخطايا والسنيات قال تعالى ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴾ (٥) ويقول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - : (ما نقصت صدقة من مال) (٦) هذا بالنسبة لمن يدفع الصدقة ويؤديها إلى مستحقيها طلباً لرضا الله وعفوه من غير رياء ولا كره ، وكثير من الصوفية يقفون

(١) المعجم الصافي (باب الصد)

(٢) كتاب التعريفات ص ١٣٨

(٣) سورة البقرة آية ٢٦١

(٤) سورة الحشر : آية ٩

(٥) سورة البقرة : آية ٢٧١

(٦) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه (فيض القدير ٨١٢٠)

موقفاً سلبياً من هذا الجانب لأن الصوفي قد خرج من ماله حتى لم يبق له منه شيء لأن إبقاء المال يضر بتوكله ولذا خرج من جميع أمواله ولم يترك كفاية لنفسه وعياله لأن الرزق يأتيه من عند الله ، ثم إذا احتاج وافتر عياله فهو إما أن يتعرض لمن الإخوان وصدقائهم أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وكان بعض الصوفية لا يرون الانبساط في الصدقات ولا يمدون أيديهم إلى الطمع وإلى السؤال وإلى ما يرون فيه المنه وإن جاءهم من غير مسألة فكانوا يتعففون عن ذلك (١) .

والصوفية أمام الصدقة فريقان : فريق لا يتقبل الصدقة ولا يأكل منها إيثاراً للفقراء وترك المزاحمة للضعفاء وأهل الحاجات لأن غناهم بالله عز وجل وإن كان يأتيهم المال من غير مسألة ولا استشراف نفس فلا ينبغي أن يردوا ذلك للخبر الذي قال فيه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : (ما آتاك الله من هذا المال من غير مسألة ولا اشراف فخذ فتموله أو تصدق به وما لا فلا تتبعه نفسك) (٢) وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي) (٣) وقال بعض الصوفية (٤): من أخذ من الله تعالى أخذ بعز ومن أخذ من غير الله تعالى أخذ بذل ومن ترك لله عز وجل ترك بعز ومن ترك لغير الله تعالى ترك

(١) التمع ص ٢١٢

(٢) رواية النسائي عن عمر رضي الله عنه (فيض القدير ٨١٢٠)

(٣) رواه الترمذي في سننه ابواب الزكاة حديث رقم ٦٥٢ والمرارة المذكورة بالحديث معناها : نقوة وشدة العقل

(٤) تنظر التمع ص ٢٦٢

بذل فمن بنى أمره على غير هذا في الأخذ والعطاء فهو على خطر عظيم والله تعالى يعلم المخطئ من المصيب ولا يخفى عليه شيء . فهؤلاء الناس عاشوا على الهدايا والهبات والإيثار والمواساة .

وطبقة أخرى عاشوا على الصدقات والزكوات لا على الهدايا والهبات وقالوا قد جعل الله للفقراء حقاً في أموال الأغنياء فإذا أخذنا حقوقنا التي جعل الله لنا فلا معنى لتركه وقالوا لا نختار على ما اختار الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لنا فالامتناع من أخذ الصدقة ضرب من تعزز النفوس وكرهية الفقر وقد حكى عن أبي محمد المرتعش أنه كان في محفل من أصحابه من الأغنياء ونظر إلى رجل ومعه خبز يتصدق به على المساكين وقد ازدحموا عليه فقام المرتعش من بين أصحابه وقصد هناك وأخذ رغيفاً من ذلك الخبز فسئل عن ذلك فقال خشيت إن لم أقم وأخذ رغيفاً معهم أن يمحي اسمي من ديوان الفقراء .

وعلى العموم فالصوفية لا مال لهم ؛ لأن بقاء المال لديهم يقدح في توكلهم وعلى هذا فلا تجب عليهم الصدقات من وجهة نظرهم لأنهم يحتثون بعضهم على عدم كسب المال حتى لا يعطوا منه أحداً صدقة أو هبة (١) وبهذا يكون الصوفية أمام الصدقة فريقان : فريق لا يأخذ الصدقة إيثاراً للفقراء والمساكين ومع ذلك فهم لا يعملون ولا يكتسبون ويتواصون بعدم الكسب خشية الإخلال بالتوكل .

وفريق آخر أصبح عالة على باقي إخوانه ينتظر صدقاتهم وإحسانهم مع أنه قادر على العمل والإنتاج وكفاية نفسه وأهله مخالفاً بذلك النصوص الصريحة من الشريعة الغراء .

(١) انظر النع من ٢٦٢ والرسالة التفسيرية ج ١ ص ٧١ وعوارف المعارف ص ٩٢

د - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قبل الحديث عن هذا الموضوع لابد من وقفه أمام كلمة المعروف وكلمة المنكر فأقول :

المعروف هو ما فيه رضا الله من قول أو فعل ٠ أما المنكر : ما ليس فيه رضا الله من قول أو فعل (١) وبهذا العمل صارت أمة محمد عليه السلام خير أمة حيث قال الحق سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢) وقد ذم الله أقواماً لتركهم الأمر بالمعروف فقال سبحانه : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) وقال صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (٤) يعني أضعف فعل أهل الإيمان وقيل: التغيير باليد للأمرء وباللسان للعلماء وبالقلب للعوام وفي بعض الأحوال تصير الحسبة فرض عين عند الجميع (٥)

(١) التعريفات للجرجاني : ص ٢٥٤

(٢) سورة آل عمران : آية ١١٠

(٣) سورة المائدة : آية ٧٩

(٤) رواه أحمد وأحمد ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه (قبض القدير حديث رقم ٨٦٨٧)

(٥) نظر الحسبة في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية المطبعة السلفية والحسبة تأليف الدكتور فضل إلهي الضبعة الأولى ص ٥٤

ويرى الصوفية أن منهجهم يقتضي عدم مقاومة المنكر وعدم الأمر بالمعروف لأن الله في زعمهم أقام العباد فيما أراد فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده فلا فائدة من التغيير لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وعلى هذا فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يضر بالتوكل الذي أمرنا به الله وتحتم الصوفية على المريد ألا يعصي شيخه في أمر أو نهى وإن رآه يخالف السنة المحمدية ولذا قررت الصوفية على لسان الشعراني أن من أشرك بشيخه شيخاً آخر فقد وقع في الشرك بالله ويقول القشيري (ومن صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة) (١)

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية وضع ذلك بقوله (من ادعى أنه ولي يجب على أتباعه أن يقبلوا كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهم وهو مخطئون ومثل هذا من أضل الناس فعمر ابن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير كان الناس ينازعونه فيما يقولوه وهم وهو على الكتاب والسنة) (٢) .

هذا هو منهج السلف في هذه القضية ولا اعتبار لما تدعيه الصوفية البتة .

(١) هذه هي الصوفية ص ٩٩ وانظر الرسالة القشيرية ص ٢٩٧ وكشف المحجوب ص ٥٨٥ وما بعدها

(٢) لفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٣١

المبحث الثالث : الحياة الاجتماعية :

أ= النكاح :

لغة : الوطء والعقد له (١) أو الضم والجمع (٢)

اصطلاحاً : عقد يعتبر فيه لفظ إنكاح أو تزويج في الجملة والمعقود عليه منفعة الاستمتاع (٣)

فألله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بالنكاح فقال جل علاه ﴿ وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإماءكم ﴾ (١٠٠) (٤) وجعل الزواج سبباً لحصول السكون والطمأنينة حيث قال عز وجل : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (٥) وقال صلى الله عليه وسلم : (تزوجوا الودود الولود فإنني مكاثر بكم) (٦) كما قال عليه السلام : (حُبَّ إِلَىَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي الصَّلَاةُ) (٧) .

ويرى الصوفية أن الزواج سبب جميع الفتن الدنيوية والدنيوية وسبب في أنس النفس بغير الله ومن أنس بغير الله شغل عن الله كما أنه سبب أيضاً

(١) القاموس المحيط باب (الحاء) فصل (النون)

(٢) كتاب التعريفات للجرجاني ص ٢٦٦

(٣) ترويض المربع ص ٣٩٤ وانظر كتاب الأشباه والنظائر للإمام جلال الدين السيوطي تحقيق محمد المعتمد بالله البغدادي دار الكتاب العربي الطبعة الأولى ص ٤٩٨

(٤) سورة النور جزء من آية : ٣٢

(٥) سورة الروم جزء من آية : ٢١

(٦) رواه النسائي وأبو داود (فيض القدير حديث رقم ٣٢٨٦)

(٧) رواه النسائي وأحمد والحكم والبيهقي (فيض القدير حديث رقم ٣٦٦٩)

في حصول السكون والطمأنينة ولما كان الزواج جامعاً لهذه الأسباب ترك الصوفية الزواج وأضربوا عنه وحذروا منه ؛ لأنه يقدح في توكلهم على الله يقول أبو سليمان الدارني :

(من تزوج فقد ركن إلى الدنيا) (١) ويقول الجنيد (أحب للمريد المبتدي أن لا يشغل قلبه بالتزوج) (٢) كما نقل عن بشر الحارث أنه قيل له : (إن الناس يتكلمون فيك فقال وما عسى يقولون قيل يقولون : إنك تارك السنة - يعنون النكاح - فقال لهم : إني مشغول بالفرض عن السنة وما منعني ذلك إلا آية في كتاب الله ولهن مثل الذي عليهن فالأفضل للمريد ترك التزويج) (٣) .

إن سلوك وقول بعض الصوفية في هذه المسألة خطير للغاية وتظهر منه دعوة خبيثة وخفية للقضاء على النسل وعلى الزواج المشروع وبالتالي إذا تحققت هذه الدعوى يصبح انتشار الرذيلة الخلقية وتفشي ظاهرة الزنا والممارسات الجنسية الغير مشروعة في المجتمع أمر حتمي ومع مرور الوقت سيتصدع بنیان المجتمع المسلم ويصبح مجتمعاً متهتكاً ومقرأً للرذيلة والفواحش والأمراض والأوبئة وستكون الأمة ضعيفة أمام من يتربصون بها الدوائر من الأعداء والحاquدين .

وهي دعوة مخالفة للكتاب والسنة وتلك التعاليم التي رضوها على أنفسهم هي تعاليم المسيحية كما إنها تعطيل لحكم الله الكونية في الأرض .

(١) قوت تقرب / ج ١ ص ٢٥٢

(٢) قوت تقرب ج ١ ص ٢٦٧

(٣) عوارف المعارف ص ١٦٥

ب = الطعام والشراب:

لقد أكد الإسلام على أكل الحلال وترك الحرام وطلبه من المؤمنين قبل العبادات والطاعات قال تعالى : مخاطباً لأنبيائه وأصفياه ﷺ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴿١﴾ وقال مخاطباً المؤمنين ﷺ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴿٢﴾ وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﷺ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴿٣﴾ وقال ﷺ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴿٤﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك) (٣) ويرى الصوفية أن الطعام والشراب سبب مانع من رؤية الله لتمكن الشيطان من النفس بالطعام والشراب وسبب في قوة النفس التي لا يؤمن شرها ولا يذهب عنها ما جبلت عليه من الشر وهي الأمانة بالسوء كما أن الطعام والشراب سبب مانع من المعرفة ولما كان الطعام والشراب سبباً مانعاً من المعرفة وسبباً في قوة النفس وحجبها عن رؤية ربها تركوا الطعام والشراب توكلاً لأن الطعام والشراب يقدر في توكلهم على ربهم . سئل البسطامي : بأي شيء وجدت هذه المعرفة ؟ فقال (ببطن جائع وبدن عار) (٤) وقال آخر (لوعلمت أن الجوع يباع في السوق ما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره) (٥) ونقل العطار عن السري السقطي أنه قال : (منذ أربعين سنة تتمنى

(١) سورة المؤمنون آية ٥١ (٢) سورة البقرة آية ١٧٢ (٣) رواه مسلم في الصحيح كتاب الزكاة حديث رقم ٦٠٩

(٥) اللطيف ص ٢٦٩ والقائل هو : يحيى بن معاذ .

(٤) قوت القلوب ج ٢ ص ١٦٨

نفسى شرب العسل ولم أجبها (١) ونقل عماد الدين الأموي عن عيسى عليه السلام أنه قال (طوبى للجياع العطاش فإنهم هم الذين يرون الله) (٢) يقول القشيري : أقام أبو عقال المغزلي بمكة أربع سنين لم يأكل ولم يشرب إلى أن مات (٣) وقيل لسهل بن عبد الله هذا الذي يأكل في كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لهب الجوع عنه ؟ قال : (يطفئه النور) (٤) وقال السهرودي : (إن بناء أمرهم على أربعة أشياء قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال على الناس) (٥) والشعراني نقل في طبقاته عن أبي محمد الخراز أنه قال : (الجوع طعام الزاهدين) (٦) وقال سهل بن عبد الله) اجتمع الخير كله في هذه الأربع : إخماص البطون والصمت والخلوة والسهر) والصوفية توهموا أن توكلهم في ترك الطعام والشراب يؤدي إلى كسر النفس وظنوا أن ذلك حال وقد غلطوا في ذلك لأن النفس لا يؤمن شرها ولا يذهب عنها ما جلبت عليه من الشر بمجرد ترك الطعام وإنما بالجوء إلى الله وفعل ما أمر به من فروض وواجبات واجتناب ما نهى عنه من محارم ومحظورات والتمتع بما أحل وأباح وهذا بخلاف ما يفعله بعض من حملوا أنفسهم على تلك الحال من التقلل وأكل الحشيش وترك شرب الماء حتى فانتهم الفريضة وهاموا على وجوههم ودخلوا البوادي وتوهموا أنهم إذا فعلوا ذلك نالوا ما نال الصادقون من حقيقة التوكل (٧)

(١) تذكرة الأولياء ص ١٥٣

(٢) حياة القلوب بهامش قوت القلوب ج ٢ ص ٩

(٣) الرسالة القشيرية ج ١ ص ٢٢٠

(٤) عوارف المعارف ص ٢٢٤ (٥) عوارف المعارف ص ٢٢٣

(٦) طبقات الشعراني ج ١ ص ٧ (٧) انظر مجمع ص ٥٢٩

والحقيقة التي لا شك فيها أن كل النصوص التي تمسك بها الصوفية تنطق صراحة عن مصدرها الأصلي ومرجعها الحقيقي فهي توجيهات مسيحية وتعاليم زهبانية وتعذيب للنفس وتعرضها للهلاك الذي يضعف معه أمر العبادة فالإسلام حرّم تعذيب النفس ومنع الناس من التشديد في الدين وعرفهم الحنيفية السمحة البيضاء النزيهة ونهاهم عن الانغماس في الدنيا والجري وراء ملذاتها وشهواتها واعتبارها كل شيء كما راعى جانب الطبيعة والفطرة وأباح الطيبات من الرزق والتمتع بالجائز من الدنيا فوضع عن الناس إصرارهم والأغلال التي كانت عليهم وأمرهم بالقصد والاعتدال فقال جل علاه ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ... ﴾ (١) فدين الإسلام وسط في هذه القضية فلم يأمر بالتوجه كلياً إلى الدنيا والتنعّم بلذاتها ولم يأمر بالتوجه إلى الآخرة وترك الدنيا كلياً ؛ بل وازن بين الأمرين قال تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ (٢) كما أن ترك الطعام والخروج إلى البراري بغير زاد لا يعتبر توكلاً ؛ بل هو من قبيل إلقاء النفس في التهلكة وقد حرم الله ذلك فقال : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ (٣) كما أن هذا السلوك مخالف لسيرة الرسل عليهم السلام والسلف الصالح وليس هذا من قبيل التوكل ؛ بل هو من الإفراط والجناية بحق النفس .

(١) سورة الأعراف الآيات : ٣١ - ٣٢

(٢) سورة القصص : آية ٧٧

(٣) سورة البقرة : آية ١٩٥

ج = الخروج عن المال :

المال نعمة من نعم الله جعله الله قياماً للإنسان حيث قال : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ﴾ (١) وأمر المؤمنين أن يتوجهوا إليه بطلب الدنيا وحسناتها مع الآخرة وحسناتها قائلين : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ (٢)

كما أمر من اجتمع عنده مال من الدنيا ورزقها أن يخرج منها حقاً للسائل والمحروم قال تعالى : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ (٣)

وقال - عليه السلام - لسعد - رضي الله عنه - حينما عزم على الصدقة فقال له : (٠٠٠ فالثالث والثالث كثير إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم ٠٠٠) (٤)

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة وأكتفي بذكر ما يبين المسألة ، فأقول وبالله التوفيق : يرى الصوفية أن إكثار المال حجاب وعقوبه وأن حبسه ينافي التوكل ، ولا يُنكر أنه يُخاف من فتنه وأن خلقاً كثيراً اجتنبوه لخوف ذلك وإن جمعه من وجهه ليعز وإن سلامة القلب من الافتتان به تقل واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة يندر فلهذا خيف فتنه (٥) ولما كان كسب المال يضر بالتوكل خرج الصوفي عن جميع ماله لأنه يعلم أن رزقه يأتيه من عند الله فلا داعي لكسب المال مادام رزقه يأتيه من عند الله ..

(١) سورة النساء آية : ٥

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠١

(٣) سورة الذاريات آية : ١٩

(٤) رواه البخاري في الصحيح كتاب الوصايا حديث رقم ٢٧٤٢ ومسلم في الصحيح كتاب الوصية حديث رقم

٩٦٤ واللفظ للبخاري

(٥) انظر في التصوف تأليف مشهور حسن محمود سليمان دار النكت الأثرية الطبعة الأولى ص ٥٨

ولذلك لا يشتغلون بالكسب وطلب المعاش بل يظنونهم ركوناً إلى الدنيا (١)
يقول النفري: قال لي الله: (إن كنت ذا مال فما أنا منك ولا أنت مني) (٢)
ويروى عن الشبلي : أنه ألقى بأربعة آلاف دينار جملة في دجلة فقالوا له ما
تفعل ؟ قال : (الحجر أولى بالماء قالوا : لم لا تعطيتها للخلق ؟ قال سبحان
الله بم أحتج إلى الله في أنني رفعت الحجاب عن قلبي وجعلته على قلوب
إخوتي المسلمين) (٣) وروى الطوسي عن الحسين النوري : أنه حمل إليه
ثلاثمائة دينار قد باعوا عقاراً له فجلس على قنطرة الصراة وهو يحذف
بواحد واحد منها إلى الماء ويقول (سيدي تريد أن تخدعني بهذا) (٤)
وحكى عن الشبلي أنه باع عقاراً له بمال كثير فما قام من موضعه حتى
نثرها وفرقها على الناس وكان له عيال لم يدفع إليهم شيئاً من ذلك (٥) وقال
بعض الصوفية : دخلت على الشبلي فرأيت بين يديه اللوز والسكر وهو
يحرقها بالنار (٦) ٠

والحقيقة التي لا مرأى فيها أن خروج الإنسان من جميع ماله مخالف لنص
الشرعية الإسلامية فإضاعة المال وإتلافه قد نهى عنه رسول الله صلى الله

(١) قوت القلوب ج١ ص ٢٥٢

(٢) كتاب المواقف محمد بن عبد الجبار النفري طبعة دار الكتب المصرية القاهرة ص ٥٤

(٣) كشف المحجوب ص ٤٦٢

(٤) التمع ص ٢٥٧

(٥) التمع ص ٤٨٣

(٦) التمع ص ٤٨٣

عليه وسلم حيث قال : (إن الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات وواد البنات ومنعاً وهات وكره لكم ثلاثاً: قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال) (١) كما أن خروج الإنسان عن ماله يجعله عالية على الناس يعيش على عطياتهم وإحسانهم فالمال في هذا الزمان سلاح وما زال السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء ومما يدل على حفظ الأموال ومراعاتها إباحة القتال دونها وعليها قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : (من قتل دون ماله فهو شهيد) (٢) .

(١) رواية مسلم في صحيحه كتاب الأقضية حديث رقم ١٢

(٢) تاجم لأحكام القرآن ٣ / ٤١٧ والحديث رواية مسلم في الصحيح كتاب الإيمان حديث رقم ٢٢٦

د = ترك التدوي :

لقد شرع الله لنا التدوي لحفظ النفس من الهلاك فقد قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : (ما أنزل الله داء ، إلا أنزل له شفاء) (١)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء

للناس ﴾ (٢) وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو بطن

أخيه فقال له صلى الله عليه وسلم : (اسقه عسلاً) (٣) .

ويزعم بعض الصوفية أن التدوي يضر بالتوكل ولذلك دعوا إلى تركه لأن

كل ما قدره الله حاصل ولا مفر منه وما دام كل شيء قدره الله حاصل

والآجال مقدرة فلا داعي إلى التدوي حتى ينال ثواب المرض بحسن

الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر (٤)

والصوفية في هذا الزعم مخطئون لأن العبد مأجور بصبره على ما لا يملك

رده من البلاء أما صبره عما يملك رده من هلاك أو مرض فالصحيح عدم

ذلك فقد يكون مسئولاً عن هلاك نفسه في حين كان يملك السبب الذي يدفع

به هذه التهلكة وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الدعاء

فقال للسائل : (سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة) (٥) وقال صلى

الله عليه وسلم : (ما من دعوة يدعوبها العبد أفضل من اللهم إني أسألك

المعافاة في الدنيا والآخرة) (٦)

(١) الطب النبوي ابن قيم الجوزي دار الفد ص ٨ والحديث رواه البخاري في الصحيح كتاب الطب حديث رقم

٥٦٧٨ . (٢) سورة النحل آية : ٦٩

(٣) رواه البخاري في الصحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه كتاب الطب حديث رقم ٥٦٨٤

(٤) دراسات في التصوف ص ٣٣٣

(٥) رواه ابن ماجه في سننه كتاب الدعاء حديث رقم ٤٣٤٨

(٦) رواه ابن ماجه في سننه كتاب الدعاء حديث رقم ٣٨٥١

كما ان ترك التداعي قد يعرض صاحبه للموت وهذا قد لا يكون كفارة للذنوب بل يحتمل أن يكون زيادة فيها وجاء في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداعي ، وأنه لا ينافي التوكل ؛ كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بامتدادها ؛ بل لا يتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدر في نفس التوكل كما يقدر في الأمر والحكمة ويضعفه من حيث يظن معطلها : أن تركها أقوى في التوكل ؛ فإن تركها عجزاً ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ودفع ما يضر في دينه ودنياه . ولا يدفع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا تركه عجزاً (١)

(١) نصب النبي ص ١٠

الفصل الثالث

موقف العلماء من التوكل عند الصوفية :

ويتضمن ستة مباحث :

• الأول : موقف محمد بن الحسن الشيباني

• الثاني : موقف ابن الجوزي

• الثالث : موقف شيخ الإسلام ابن تيمية

• الرابع : موقف ابن القيم

• الخامس : موقف ابن مفلح

• السادس : موقف ابن رجب

الفصل الثالث

موقف العلماء من التوكل عند الصوفية :

لقد هرب بعض الصوفية من الحياة منحرفين عن طريق الزهد متقمصين حالة النقشف والسهو متبعين طريق التوكل والكسل هائمين على وجوههم في الأسواق والفلوات توكلاً على الله ثم الناس ولم يقدروا الحياة قدرها ، أو عرفوا الحياة ولكنهم فشلوا أمام مسؤولياتها ، فلجأوا إلى ما يغطي فشلهم ويخفي جنبهم بما طلبوه من مظاهر الشهرة عن طريق الشذوذ عن قواعد الحياة وسننها وطريق الجراءة على سنن الله في خلقه ونواميسه لعباده وانقادوا وراء الخرافات والأضاليل وأطلقوا عليها اسم الزهد لخدمة أهوائهم ومصالحهم الشخصية تحت ستار التوكل الذي دعاهم إلى حرمة المكاسب وقالوا إن السعي في طلب الرزق معصية لأنه سوء ظن بالله وتكذيب لوعوده وأن فقدان المال خير من وجوده ؛ لأن التدبير للمال يشغل القلب عن العبادة وحبسه يتنافى مع التوكل كما تركوا المباح فهم لا يذوقون الطيبات وفيهم من يحرمها حتى هذوا من فرط الجوع والألم وادعوا وهم على تلك الحال من التوكل أنهم من الواصلين ويرون من العجائب ما لا يراه الناس وبعد بيان حالهم سأعرض لموقف العلماء منهم الذين تصدوا لهم وفندوا حججهم وبينوا أباطلهم وهم كالتالي :

المبحث الأول : موقف محمد بن الحسن الشيباني : (١)

لقد حكم الإمام أبو الحسن على هؤلاء المتصوفة الذين تركوا الأسباب وهاموا على وجوههم في البوادي تواكلاً بأنهم مخالفون للشريعة منحرفون عنها وإلى هذا أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله للسائل الذي قال : أرسل ناقتي وأتوكل ؟ فقال رسول الله (لا بل اعقلها وتوكل) (٢) ونظير هذا الدعاء فقد أمرنا به قال الله تعالى: ﴿... واسئلوا الله من فضله...﴾ (٣) ومعلوم أن ما قدر لكل أحد فهو يأتيه لا محالة ثم لا يتطرق أحد بهذا إلى ترك السؤال والدعاء من الله تعالى والأنبياء كانوا يسألون الجنة مع علمهم أن الله تعالى يدخلهم الجنة وقد وعدهم بذلك وهو لا يخلف الميعاد وكانوا يأمنون العاقبة ثم كانوا يسألون الله تعالى ذلك في دعائهم فالإكتساب سبب الرزق بالتحرك لا ينفي التيقن بأن الله تعالى هو الرزاق والعجب أن الصوفية لا يمتنعون من تناول طعام من أطعمهم من كسب يده وربح تجارته مع علمهم بذلك فلو كان الإكتساب حراماً لكان المال الحاصل به حرام التناول لأن ما يتطرق إليه بارتكاب الحرام يكون حراماً مثل بيع الخمر للمسلم لما كان حراماً كان تناول ثمنها حراماً وحيث لم يمتنع أحد منهم من التناول كان قولهم نتيجة الكسل والجهل فالله قد أمر مريم عليها السلام بهز النخلة كما قال تعالى ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ (٤) وهو قادر على أن يرزقها من غير هز منها

(١) هو محمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان ولد بواسط ونشأ بالكوفة مع والده توفي سنة ٢٣٤هـ.

(٢) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه ورواه البيهقي والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه (كشف الخفاء ومزيل الإتياس حديث رقم ٤١٨) بلفظ (اعقلها وتوكل)

(٣) سورة النساء آية : ٣٢ (٤) سورة مريم آية : ٢٥

كما كان يرزقها في المحراب فقال عز وجل : ﴿ ٥٠٠ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ٥٠٠ ﴾ (١) وإنما أمرها بذلك ليكون بياناً للعباد أن لا يدعوا اكتساب السبب وإن كانوا يتيقنون أن الله هو الرازق . والله قد أمرنا بالإنفاق فقال : ﴿ ٥٠٠ أنفقوا من طيبات ما كسبتم ٥٠٠ ﴾ (٢) ولا يتصور الإنفاق إلا بتحصيل المال بالكسب ؛ فإن في الكسب نظام العالم والله تعالى حكم ببقاء العالم إلى حين فناءه وجعل سبب البقاء والنظام كسب العباد وفي تركه تخريب نظامه وذلك ممنوع منه (٣) ثم يبين الشيباني - رحمه الله تعالى - ويقول : (إن الكسب فيه معنى المعاونة على القرب والطاعات أي كسب كان وكسب الحركة فيه معاونة على الطاعات والقرب فإنه لا يتمكن من أداء الصلاة إلا بالطهارة ويحتاج له إلى كوز و رشا ينزح به الماء ويحتاج إلى ستر العورة لأداء الصلاة وإنما يتمكن من ذلك بعمل الحركة وهذا كله من أسباب التعاون على إقامة الطاعة وإليه أشار علي رضي الله عنه في قوله : (لا تسبوا الدنيا فنعم مطية المؤمن الدنيا إلى الآخرة) وقال أبو ذر رضي الله عنه حين سأله رجل عن أفضل الأعمال بعد الإيمان فقال (الصلاة وأكل الخبز) فنظر إليه الرجل كالمتعجب فقال : (لولا الخبز ما عبد الله تعالى) ، يعني يأكل الخبز ما يقيم

(١) سورة آل عمران جزء من آية : ٣٧

(٢) سورة البقرة جزء من آية : ٢٦٧

(٣) الاكتساب ص ٢٦ ، ٢٧

صلبه فيتمكن من إقامة الطاعة ثم يستدل رحمه الله على أن الكسب لا يضر بالتوكل فيقول : وحجتنا في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة) قيل : فما يكفرها يا رسول الله قال : (الهموم في طلب المعيشة) (١) وقال عليه السلام : (طلب الحلال كمقارعة الأبطال ومن مات من طلب الحلال مات مغفوراً له) (٢) وقال صلى الله عليه وسلم : (أفضل الأعمال الاكتساب للإنفاق على العيال) (٣) من غير تفضيل بين أنواع الكسب ولو لم يكن فيه سوى التعفف والاستغناء عن السؤال لكان مندوباً إليه فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (السؤال آخر كسب العبد) (٤) أي يبقى في ذلته إلى يوم القيامة وقال عليه السلام لحكيم بن حزام : (مكسبة فيها نقص المرتبة خير لك من أن تسأل الناس أعطوك أو منعوك) ثم المذمة في عرف الناس ليس للكسب ؛ بل للخيانة وخلف الوعد واليمين الكاذبة (٥)

وعلى هذا فالشيخ يقرر بأن طلب الكسب فريضة على كل مسلم لأنه لا يتوصل إلى إقامة الفرض إلا به وهو لا ينفي التوكل على الله أو ينقص منه خلافاً لمن ادعى ذلك من جهال أهل التقشف وحمقى أهل التصوف .

(١) رواه الطبراني وأبو نعيم عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ (إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج ويكفرها الهم في طلب المعيشة) كشف الخفاء حديث رقم (٧٨٣)

(٢) ورد في فيض القدير شرح الجامع الصغير بلفظ (طلب الحلال واجب على كل مسلم) حديث رقم ٥٢٧٢

وهو حديث حسن أما حديث (طلب الحلال جاهد) فهو حديث ضعيف (فيض القدير حديث رقم ٥٢٧٣)

(٣) ورد في فيض القدير بلفظ (إذا تفق المسلم نفقة على أهله وهو بحسبها كانت له صدقة) حديث رقم ٤٩٨

(٤) ورد في كتاب كنوز الحقائق في حديث خير الخلق للمناوي (طلب الحلال واجب على كل مسلم) وفي سنن الترمذي (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي) أبواب الزكاة حديث رقم ٦٥٢

(٥) الاكتساب ص ٤٠ ، والحديث لم أعثر على تخريجه وإنما له شواهد من الأحاديث المذكورة أعلاه تقويه .

المبحث الثاني : موقف ابن الجوزي :

لقد أنكر ابن الجوزي على الصوفية الذين تركوا الأخذ بالأسباب وادعوا أنهم متوكلون على الله وهو ادعاء باطل فاسد لا يصلح عليه أمر دين أو دنيا وهو تواكل لا توكل .. لأن التوكل إنما يكون مع مباشرة الأسباب والأخذ بكل ما هو في مقدور الإنسان إزاء العمل الذي يباشره .

يقول ابن الجوزي : (قلة العلم أوجبت هذا التخليط ولو عرفوا ما هية التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده وهذا لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب وادخار المال) (١) ، ثم يقول (واعلم أن الذي أمر بالتوكل أمر بأخذ الحذر وقد أخبرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن التوكل لا يناقضي الاحتراز) (٢) ؛ فالتوكل على الإطلاق من غير مباشرة الأسباب مكر بالله وإبطال لسنته الكونية ولو كان هؤلاء المتصوفة صادقين حقاً في دعوى التوكل لما مدوا أيديهم إلى تناول الطعام أو لبس جلباب ولكنهم لا يفعلون شيئاً من هذا ؛ بل يجرون لا هثين إلى حيث تنصب لهم الموائد وتقدم لهم العطايا فيأكلون في نهم ويحملون إلى بيوتهم ما يقدرون على حمله فالحمل في الحياة لكسب الرزق وسد حاجة الأهل والولد وإعانة الفقير والمسكين والإنفاق في سبيل الله وتجهيز المجاهدين هو جهاد في سبيل الله وعبادة من أَرْضَى العبادات لله ولكن المتصوفة يرون أن المتصوف يجب - لكي يحمي قانون التصوف - أن يخلّي يده من العمل أو أن يمد يده لإذلالها وكسر مطامحها حتى إنه إذا كان عنده مال ودخل في عالم المتصوفة نفّض يده من هذا المال ورمى به بعيداً . ويورد ابن الجوزي بعض حكايات الصوفية فيقول : حكى أبو حامد الغزالي هذه الحادثة فقال : كان بعض

(١) تلبس ابليس من ٢٧٨ (٢) تلبس ابليس من ٢٧٩ ولعله يشير إلى حديث (اعقلها وتوكل)

الشيخ في بدء إرادته - أي في بدء كونه مريداً - أنه كان يكسل عن القيام في الذكر والصلاة فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتسمح نفسه القيام عن طوع وحكى الغزالي في كتابه الإحياء . أن بعض المتصوفة عالج حب المال ، بأن جمع جميع ماله ورماه في البحر إذ خاف تفرقه على الناس . ويعلق ابن الجوزي على هذه المرويات التي أودعها الغزالي كتاب الإحياء فيقول : أعجب من جميع هؤلاء عندي أبو حامد إذ كيف حكى هذه الأشياء ولم ينكرها ؟ وكيف ينكرها وقد أتى بها في معرض التعليم وقال - أي الغزالي - قبل أن يورد هذه الحكايات : ينبغي للشيخ أن ينظر إلى حالة المبتدئ فإن رأى معه مالا فاضلاً عن قدر حاجته أخذه وصرفه في الخير وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه وإن رأى الكبرياء قد غلب عليه أمره أن يخرج إلى السوق للكد - التسول - ويكلفه السؤال والموظبة على ذلك .

ثم يقول ابن الجوزي : وإنني لأتعجب من أبي حامد الغزالي كيف يأمر بهذه الأشياء التي تخالف الشريعة ؟ وكيف يحل القيام على الرأس طول الليل فينعكس الدم إلى وجه صاحبه ويورثه ذلك مرضاً شديداً ؟

وكيف يحل رمي المال في البحر ؟ وكيف يحل السؤال لمن يقدر على الكسب ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يأتي السائل يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم) (١)؟ ثم يختم ابن الجوزي اعتراضه على قول الغزالي السابق بقوله : فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالي الفقه بالتصوف (٢)

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب الزكاة حديث رقم ١٤٧٤ بلفظ (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم)
(٢) تبيين ابنيس ص ٤٤٦

ويرد ابن الجوزي على هؤلاء المتكلمين فيقول : هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل وظنوا أنه ترك الكسب وتعطيل الجوارح عن العمل والتوكل فعل القلب فلا ينافي حركة الجوارح ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين فقد كان آدم عليه السلام حراثاً ونوح وزكريا نجارين وكان موسى وشعيب ومحمد عليه السلام رعاة وقال نبينا - عليه السلام - : (كنت أرعى غنماً لأهل مكة بالقراريط) (١) وما زال التابعون ومن بعدهم يكتسبون ويأمرون بالكسب (٢) ولو قال رجل للصوفية من أين أطعم عيالي لقالوا قد أشركت ، ولو سئلوا عن يخرج إلى التجارة لقالوا : ليس بمتوكل ولا موقن وكل هذا لأجلهم بمعنى التوكل واليقين . ثم يعلق ابن الجوزي على ذلك فيقول (وإنما قعد أقوام عن الكسب استثقلاً له فكانوا بين أمرين قبيحين إما تضييع العيال فتركوا الفرائض أو التزين باسم أنه متوكل فيحن عليهم المكتسبون فضيقوا على عيالهم لأجلهم وأعطوهم وهذه الرذيلة لم تدخل قط إلا على دنيء النفس الرذيلة وإلا فالرجل كل الرجل من لم يضيع جوهره الذي أودعه الله إيثراً للكسل أو لاسم يتزين به بين الجهال فإن الله تعالى قد يحرم الإنسان المال ويرزقه جوهرأ يتسبب إلى تحصيل الدنيا بقبول الناس عليه) (٣)

(١) رواه البخاري في الصحيح كتاب الإجارة حديث رقم ٢٢٦٢ بلفظ (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم) فقال أصحابه وأنت قل : (نعم ، كنت أرعاهما على قراريط لأهل مكة)

(٢) تبيين ابن سيرين ص ٣٥٩ - ٣٦٠

(٣) تبيين ابن سيرين ص ٣٦٤

والحقيقة أن دعوة الصوفية أتباعهم إلى طرح الدنيا ومعاداتهم للمال هو ما يخالف شرع الله أشد المخالفة ومما يخرج بهم عن سنن الحياة التي أقام الله الناس عليها والله تعالى يقول : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا... ﴾ (١) ويقول سبحانه مضيفاً المال إلى ذاته الكريمة : ﴿ ... وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ (٢) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم (نعم المال الصالح للعبد الصالح ٠٠٠) (٣)

فالهروب من الدنيا ومن ملابسة العمل فيها تحت ستار التوكل على الله هو مسح لأدمية الإنسان ومحو لإرادته وما يكون منه من ابتلاء فيما آتاه الله ليكون من الشاكرين أو الكافرين (٤)

(١) سورة الكهف جزء من آية : ٤٦

(٢) سورة النور جزء من آية : ٣٣

(٣) رواية أحمد عن عمرو بن العاص (كشف الخفاء حديث رقم ٢٨٢٣)

(٤) التصوف والمتصوفة ص ٢٧٩

المبحث الثالث : موقف ابن تيمية :

لقد أنكر الإمام علي منحرفي الصوفية المعرضين عن المشروع إما من العلم وإما من العمل وهما طريق المغضوب عليهم والضالين لذا اتخذ الإمام ميزاناً حقاً صادقاً في محاسبة هؤلاء المتصوفة ألا وهو الكتاب والسنة فمن سار على هذا المنهج دون أن ينحرف عنه قيد أنملة فهو على الحق وعلى الصراط المستقيم وجدير بالثناء والتقدير ، ومن انحرف منهم من هذا الطريق سوى حاد عن ذلك الصراط المستقيم بين الإمام ابن تيمية بطلان عمله ورأيه (١) وتميز الموقف الذي اتخذته ابن تيمية من الصوفية بأمرين :

الأول : أنه تعامل مع الصوفية بنفس الأسلوب الذي تعامل به مع الفقهاء والمذاهب الفقهية وعلماء الكلام فهو يرى أن شيوخ التصوف الأوائل قيدوا علومهم وتربيتهم بالكتاب والسنة أما المتأخرون فقد ضل كثير منهم بتأثير الأفلاطونية الجديدة التي تسربت إلى الفكر الإسلامي عامة وانحرفوا بعيداً عن الطريق الصحيح للزهد والتربية الروحية (٢)

الثاني : أن ابن تيمية لم يرفض التصوف جملة وإنما انتقد ما طرأ عليه من خروج عن الأهداف الأولى ومناهج التربية والسلوك الأولى وفي ذلك يقول (والصوفية بنوا أمرهم على الإرادة ولا بد منها لكن بشرط أن تكون إرادة الله وحده بما أمر) (٣) ويقول أيضاً (وما وقع في هؤلاء من فساد

(١) موقف تمة الحركة السلفية ص ١٩٤

(٢) الفتاوى - علم السوء - مجلد ١٠ ص ٤٨٦ - ٥١٦

(٣) الفتاوى - أصول الفقه - مجلد ١٩ ص ١٧٢

الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية حتى صار المنحرفون صنفين : صنف يقر بحقها وباطلها وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه والصواب : إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة (١) ثم يقرر الإمام أن السالك طريق الزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة وإلا كان ضالاً عن الطريق وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه فالزهد المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع ؛ بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع (٢) ولهذا جمع الله بين العبادة والتوكل لأنهما يجمعان الدين كله قال تعالى : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿... فاعبده وتوكل عليه﴾ الآية (٤)

وبين شيخ الإسلام - يرحمة الله - أن التوكل له فائدة عظيمة لا تتحقق بدونه فيقول : (وقد ظن طائفة ممن تكلم في أعمال القلوب أن التوكل لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة ؛ بل ما كان مقدراً بدون التوكل ، فهو مقدر مع التوكل ولكن التوكل عبادة يثاب عليها من جنس

(١) الفتاوى علم السالك ج ١ ص ٨٢

(٢) موقف أئمة الحركة السلفية ص ٢١١

(٣) سورة نجاته آية : ٦

(٤) سورة هود آية : ١٢٣

الرضا بالقضاء (١)

ويرد الشيخ على القائلين بذلك فيقول (فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه (كفى به وكيلاً) علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضار) (٢)

ومعنى ذلك أن الشيخ يرى أن التوكل أمر مختص بمن استعمله دون غيره وإذا كان كذلك فكيف يكون حال من استعمله كحال غيره مع ما تقدم من تخصيص الله عز وجل للمتوكل بأنه سيكفيه في جلب المنافع ودفع الضرر ما لا يكفي فيه غيره .

ويقرن الشيخ بين التوكل والدعاء في مسألة الاختصاص بالمنفعة فإن التوكل كالدعاء يختصان بمن يستعملها ولا بد لمن استعملها من حصوله على منافع مختصة به دون من لم يستعملها .

يقول الشيخ موضحاً ذلك (فلا يقال هو حسب غير المتوكل كما هو حسب المتوكل لأنه علق هذه الجملة تعليق الجزاء على الشرط فيمتنع مثل ذاك أن يكون وجود الشرط كعدمه) (٣) .

وعلى ذلك فابن تيمية - يرحمه الله - ينكر على هؤلاء الذين تعللوا بالتوكل وحرموا على أنفسهم الطيبات وخالفوا أمر الله تعالى كما يرميهم بالضلال قال تعالى : ﴿...ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله...﴾ (٤) .

(١) جامع الرسائل ص ٧٨

(٢) جامع الرسائل ص ٩٢

(٣) جامع الرسائل ص ٨٨

(٤) سورة القصص جزء من آية : ٥٠

المبحث الرابع : موقف ابن القيم : (١)

لقد أنكر ابن القيم ورمى بالكفر والانسلاخ من الدين هذه الطائفة الضالة التي أسقطت التكاليف عمن سما في درجة القرب من الله فقال : فمن لم ير القيام بالفرائض إذا حصلت له الجمعية فهو كافر منسلخ من الدين (٢) وقال : وقد صرح أهل الاستقامة بكفر هؤلاء فأخرجوهم من الإسلام وقالوا لو وصل العبد من القرب إلى الله أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكاليف مثقال ذرة (٣) أما الذين تركوا الأسباب توكلوا على ربهم وهاموا على وجوههم في الفلوات ليصح مقام التوكل عندهم فقد رماهم الشيخ بالبطالة والفساد فيقول - رحمه الله - : (وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد) (٤) فمن نفى الأسباب فتوكله مدخول وهذا عكس ما يظهر في بداوات الرأي : أن إثبات الأسباب يقدر في التوكل وأن نفيها تمام التوكل . ويعلق - رحمه الله - على ذلك فيقول : فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو

(١) لم يكن موقف الإمام ابن القيم مدرج في الخطة الأصلية للبحث ولكني أضفته تعميماً للفائدة ولأنه من العلماء الذين تكلموا في هذا الموضوع بوضوح وكان عدم إدراجه في الخطة الأصلية للبحث قصوراً مني ولذلك استدرجته .

(٢) مدارج السالكين ج ٣ ص ١١٣

(٣) مدارج السالكين ج ٣ ص ١١٨

(٤) مدارج السالكين ج ٢ ص ١٢١

به وصرح هؤلاء أن التوكل والدعاء عبودية محضة لا فائدة لهما إلا ذلك ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذه على الخطأ والنسيان عديم الفائدة إذ هو مضمون الحصول ثم يقول ابن القيم : ورأيت بعض متعمقي هؤلاء - في كتاب له - لا يُجَوِّزُ الدعاء بهذا وإنما يجوز تلاوة لا دعاء .

قال : لأن الدعاء يتضمن الشك في وقوعه لأن (الداعي بين الخوف والرجاء والشك في وقوع ذلك شك في خبر الله . فانظر إلى ما قاد إليه إنكار الأسباب من العظائم وتحريم الدعاء بما أثنى الله على عباده بالدعاء به وبطلبه ولم يزل المسلمون من عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وإلى الآن يدعون به في مقامات الدعاء ، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها فإذا لم يجمع لم يخلق الولد وقضى بحصول الشبع إذا أكل والري إذا شرب) (١)

لأن الله قد جعل هناك ارتباطاً بين الأسباب والمسببات في غالب الأحوال وفي السنن الكونية الجارية ، إلا أن منكري الأسباب تركوا كل سبب يوصل إلى غاية أو يحقق نتيجة .

ويقول : إذا كان قضي لي وسبق في الأزل حصول الولد والشبع والري فلا بد أن يصل إليّ تحركت أو سكنت وإن لم يكن قد قضي لي لم يحصل أيضاً فعلت أو تركت ، فهل يعدُّ أحد هذا من جملة العقلاء ؟ وهل البهائم إلا أبقه منه ؟ فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة فالتوكل من أعظم

(١) انظر مدارج السالكين ص ١٢٤ - ١٢٥

الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل :عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها ، فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه والمتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية (١) والحقيقة أن اتخاذ الأسباب لا يضاد التوكل بل هو مراقبة التوكل وما يتوكل على الله حق التوكل من لا ينفذ أمر الله ومن لا يأخذ بالأسباب ومن لا يدرك سنة الله الجارية المعتادة التي لا تحابي أحداً ولا تراعي خاطر إنسان إذا وقع القدر وحن الأجل .

روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لقي ناساً من أهل اليمن فقال : (من أنتم) ؟ قالوا : (نحن المتوكلون) . قال : (بل أنتم المتكلمون إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله عز وجل) (٢) ؟

ويرى ابن القيم أن المرء ينبغي أن يكون أكثر عبادة والتزاماً في القيام بأوامر الله والكف عن نواهيه كلما ترقى في درجات القرب من الله حيث قال : فإن العبد كلما كان إلى الله أقرب كان جهاده في الله أعظم (٣) قال تعالى : ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ (٤) ثم استشهد بحال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال : وتأمل أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب في مقام عظم جهادهم واجتهادهم (٥) وعلى هذا فابن القيم لا يرضى عن التعبد

(١) نظر مدارج السالكين ص ١٢٤ - ١٢٥

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل حديث رقم (١٠) وعلق عليه البيهقي في شعب الإيمان (١٢١٥)

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم تحقيق عواد عبد الله الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ص ١٤٣

(٤) مدارج السالكين ج ٣ ص ١١٨

(٥) سورة الحج آية ٧٨

بما لم يشرعه الله لما فيه من الافتراء على الشارع كما لا يرضى عن ترك المباحات زهداً وعبادة لما فيه من الغلو المنافي للسنة المحمدية التي غايتها التسهيل والتيسير إضافة إلى هذا أن الله جعل الخيار في فعل المباح أو تركه وعليه فليس الفعل أو الترك عبادة (١). ويستدل ابن القيم على بطلان زعمهم بما ثبت في الصحيح أن نفرأ من أصحاب النبي سألوا عن عبادته في السر فكأنهم تقالوها فقال أحدهم : (أما أنا فلا أكل اللحم وقال الآخر أما أنا فلا أتزوج النساء وقال الآخر أما أنا فلا أنام على فراش فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم مقاتلهم فخطب وقال : (ما بال أقوام يقول أحدهم أما أنا فلا أكل اللحم ويقول الآخر أما أنا فلا أتزوج النساء ويقول الآخر أما أنا فلا أنام على فراش ولكني أتزوج النساء وأكل اللحم وأنام وأقوم وأصوم وأفطر فمن رغب عن سنتي فليس مني) (٢) ويعقب رحمه الله على هذا فيقول : فتبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن رغب عن سنته وتعبد الله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات رغبة عنه واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عباده فهذا لم يميز بين ما عليه وماله (٣)

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ٩٣، ٩٤

(٢) رواه النسائي في السنن كتاب النكاح حديث رقم ٣٢١٧ بلفظ : أن نفرأ من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قال بعضهم لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم لا أكل اللحم ، وقال بعضهم لا أنام على فراش ، وقال بعضهم أصوم فلا أفطر . فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ، ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)
وروى مسلم في صحيحه كتاب النكاح حديث رقم (٥) نحوه وباختلاف يسير .

(٣) مدارج السالكين ج ١ ص ٩٣، ٩٤

المبحث الخامس : ابن مفلح : (١)

لم يحدد ابن مفلح موقفه بصراحة إزاء الصوفية ولكن من الشواهد ما تميل إلى القول بأن له نظرات نقدية للتصوف وهي وإن لم تأت صريحة إلا أنها جاءت تلميحاً وراء النصوص الكثيرة المتشابهة لشيوخ وقفوا للصوفية بالمرصاد أمثال ابن عقيل (٢) وتلميذه ابن الجوزي وعلى هذا فإن حرصه على الاقتباس منهما يحمل على الظن بأنه يوافق عليها ويحرص على تنبيه الأذهان عليها كما أنه مال إلى اتخاذ موقف استاذ ابن تيمية التي نقد فيها الاتجاهات المخالفة للشريعة عند أهل التصوف لذا أسوق بعض العبارات التي نقلها بنصوصها عن قائلها وأحاول العثور على تعليقاته عليها لأبين موقفه يقول ابن مفلح في موضوع النهي عن النظر إلى ما يخشى منه الوقوع في الضلال : (ويحرم النظر فيما يخشى منه الضلال والوقوع في الشك والشبهة ونص الإمام أحمد - رحمه الله - على المنع من النظر في كتب أهل الكلام والبدع المضلة وقراءتها وروايتها) (٣) وبعد الاستطراد في الحث على التمسك بالسنة والنهي عن البدع يأتي برأي لابن عقيل يذهب فيه إلى القول بأنه ما على الشريعة أضل من المتكلمين والمتصوفين فيؤلا يفسدون العقل بالشبهات وهؤلاء يفسدون

(١) هو محمد بن مفلح بن محمد بن مفرح ثقة في المذهب الحنبلي وناظر في الحكم عن قاضي القضاة وهو من تلاميذ ابن تيمية الذين نقلوا عنه كثيراً وكان يدعيه بقوله (ما انت ابن مفلح بل انت مفلح ويذكر العليمي أنه كان خبيراً بمسائل شيخه وصفه ابن القيم بأنه) ما تحت قبة الفلك أعظم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح (

(٢) ابن عقيل اتخذ ابن مفلح في إطار الشيوخ الذين حازوا على رضائه ولكن ابن تيمية استبعد ابن عقيل من مذهب الإمام أحمد بسبب غلوه في التأويل ولكنه عاد عن التأويل إلى منهج السلف واتخذ ابن مفلح كتابه (الفنون) مرجعاً هاماً لمؤلفه (الآداب الشرعية الكبرى)

(٣) الآداب الشرعية ج١ ص ٢٢٣

الأعمال ثم يقول : (وقد خبرت طريق الفريقين غاية هؤلاء الشك وغاية هؤلاء الشطح والمتكلمون عندي خير من الصوفية لأن المتكلمين قد يردون الشك والصوفية يوهمون التشبيه والإشكال والشقة بأشخاص ضلال) (١) وواضح من كلام ابن عقيل هجومه العنيف على الصوفية فإذا ما قام ابن مفلح بنقل العبارة التي تتهم فيها الصوفية بإفساد الأعمال وهدم قوانين الأديان ليدل على اتجاه ابن مفلح من حيث الاقتناع والإيمان بصحتها فابن مفلح اتخذ موقف المعارضة من هؤلاء الصوفية الذين تركوا الأسباب تحت ستار التوكل وخالفوا شريعة الديان وتجردوا من أموالهم حتى لا تقدر في توكلهم على ربهم .

وابن مفلح يرى أن هجران الدنيا ليس من الزهد في شيء ويضع قاعدة للفرقة بين الدنيا المذمومة وغيرها فيقول مدعماً هذا الرأي الذي نقله عن ابن عقيل من كتاب - الفنون : (ما قطع عن الله وحمل النفس على محارم الله فهو الدنيا المذمومة وإن كان إملاقاً وفقراً وما أوصل إلى طاعة الله فذاك ليس بالدنيا المذمومة وإن كان إكثاراً) ويورد ابن مفلح رأياً لشيخه ابن تيمية ومضمونه أنه (إذا سلم القلب من الهلع واليد من العدوان كان صاحبه محموداً وإن كان معه مال عظيم) (٢) وكل هذه العبارات تتفق في المعنى فالزهد عندهم لا يرتبط بمدى الإكثار أو الإقلال من الأموال

(١) الآداب الشرعية ج١ ص ٢٣٥

(٢) الآداب الشرعية الكبرى تحقيق وضيع بمطبعة المنار سنة ١٣٤٩ ج٢ ص ٢٥٥

وغيرها من المتاع وإنما يتصل بموقف الإنسان منها فإن حلت من نفسه مكاناً بارزاً وأخذت بتلابيبه ويطلب المزيد منها فهو ليس بزاهد حتى ولو كان مالكاً للقليل أما إذا قبل المال بسخاوة نفس ولم يلق بالاً إذا نقص ولم يجعل همه الحصول على المزيد فهذا هو الزاهد وهذا هو المعنى الذي وقع عليه اختيار ابن مفلح ويظهر فيه تأثره بأستاذه ابن تيمية كما يرى ابن مفلح أن الدعاء لا يضر بالتوكل كما يدعى أهل التصوف فيرى أن القلوب (تضعف وتمرض وربما ماتت بالغفلة والذنوب وترك إعمالها فيما خلقت له) (١) ولكن ما علاجها ؟ يورد الأدعية التي يدعو بها رسول الله صلى الله عليه وسلم منها دعاء الكروب : (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفه عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت) (٢) وتعليمه صلى الله عليه وسلم لأبي أمامه دعاء يذهب عنه همومه (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن) (٣) وغيرها فإذا كانت القلوب قابلة لهذه الأعراض التي يعدها ابن مفلح من قبيل الأمراض فإن القلوب أيضاً على العكس من ذلك تحيا وتقوى وتصح بالتوحيد الصادق وينبغي على العبد أن يستمر في دعائه لله تعالى دون كلل أو ملل بشرط الإخلاص والطاعة واجتناب المعاصي وإحسان الصلة بينه وبين ربه ويوجز ابن مفلح كل هذا

(١) الأدب الشرعي الكبرى ج ٢ ص ٢٥٣

(٢) الأدب الشرعي ج ١ ص ١٦٣ انظر التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث ص ١٥٧ والحديث رواه أبو داود في سننه (انظر كتاب الأفكار من كلام سيد الأخيار للإمام محي الدين أبي زكريا النووي دار المعرفة بيروت الطبعة الثالثة ص ١٣٣

(٣) رواه الشيخان وأحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه (فيض القدير حديث رقم ١٥٥٣)

في عبارته قائلاً: (فالعارف يجتهد في تحصيل أسباب الإجابة من الزمان والمكان وغير ذلك ولا يمل ولا يسأم ويجتهد في معاملته بينه وبين ربه عز وجل في غير وقت الشدة فإنه أنجح) (١) فإذا تمسكنا بالأحاديث في الأدعية المحققة للاعتماد والتوكل أمكن تفريج الكرب وإدخال السرور على القلوب ومن ثم تحقيق السعادة (٢).

(١) الأدب الشرعي لكرى ج١ ص ١٦١

(٢) الأدب الشرعي لكرى ج١ ص ١٦٨ تقرر تصوف واتجاه السلفي في العصر الحديث ص ١٦٠

المبحث السادس : موقف ابن رجب : (١)

عارض ابن رجب الصوفية الذين اتخذوا من التوكل ذريعة لإبطال الأسباب واسقاطها الأمر الذي تنبه إليه ابن رجب في تفصيله لحقيقة التوكل وربطه بالأسباب فقال - رحمه الله - : (واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى للمقدورات وبها وجدت سنته في خلقه) (٢) ويزيد الأمر إيضاحاً فيرى أن السعي بالأسباب في الطاعة لله هو من عمل الجوارح والتوكل عليه سبحانه من عمل القلب ولهذا يقسم الأعمال إلى ثلاثة أقسام : -

القسم الأول :

الطاعات التي أمر الله بها وهي أفعال لازمة الأداء مع الاستعانة بالله والتوكل عليه وإذا ما قصر العبد في أدائها استحق العقوبة في الدنيا والآخرة شرعاً وقدرأً (٣)

القسم الثاني :

وهو ما أجرى الله العادة به في الدنيا وأمر عباده بتعاطيه كالأكل عند الجوع والشرب عند العطش ونحو ذلك (٤) وكلها من الأسباب التي ينبغي الأخذ بها حتى لا يقع على المرء ضرر من تركها أما من ترك الطعام لعدة أيام باسم التوكل حتى ضعف ولم يستطع أداء الطاعات فإن ابن رجب ينكر عليه فيقول : (فمن كان له قوة على مثل هذه الأمور فعمل قوته ولم

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب عبد الرحمن بن الحسن شيبير بابن رجب قدم من بغداد مع والده إلى دمشق وهو صغير سنة أربع وأربعين وسبع مائة اتصل بالإمام النووي وكان شميذاً لابن تيمية

(٢) جامع النعم والحكم ص ٣١٧

(٤) جامع النعم والحكم ص ٣١٧

(٣) جامع النعم والحكم ص ٣١٧

يضعفه من طاعة الله فلا حرج عليه ومن كلف نفسه ذلك حتى أضعفها
عن بعض الواجبات فإنني أنكر عليه ذلك (١)

القسم الثالث :

وهو ما أجرى الله العادة به في الدنيا في الأعم الأغلب وقد يخرق العادة
في ذلك لمن شاء من عباده (٢) ويذكر على سبيل المثال دخول المفازة
بغير زاد حتى أصبح مثلاً على ذلك فقال : إن كان الرجل قوياً وقادراً ولم
يخش على نفسه فله أن يدخل المفازة بغير زاد وإلا لم يكن له أن يدخل
ومتى كان الرجل ضعيفاً وخشى على نفسه أن لا يصبر أو يتعرض للسؤال
أو أن يقع في الشك والسخط لم يجز له (٣) .

فهني إذن أفعال على سبيل الاستثناء وليست قاعدة مضطردة ومع
هذا فابن رجب يفضل الأخذ بالأسباب كما فعل الامام أحمد بن حنبل
الذي سئل عن يقعد في بيته متوكلاً فأجاب : (ينبغي للناس كلهم
أن يتوكلوا على الله ولكن يعودوا على أنفسهم بالكسب) (٤)

(١) الزهد جامع أبواب الخير والإيمان تهذيب عبد الهادي البشري دار المومنين للنشر ص ٢٩ وانظر جامع
نعوذ ونحكم ص ٣١٧

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٣١٧

(٣) جامع العلوم ونحكم ص ٣١٩ " بتصرف "

(٤) جامع العلوم ص ٣١٩

والثمرة التي يجنيها العبد من التوكل هي الرضا بالقضاء ثم يجعل ابن رجب من التوكل ذاته سبباً من الأسباب التي تطلب بها الحوائج بل إنه من أعظم هذه الأسباب (فإن الله يكفى من توكل عليه) (١) مصداقاً لقوله : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٢) ثم يقول ابن رجب : إن شهادة التوحيد تشمل معرفة الله وخشيته كما تتضمن التوكل عليه ورجاء مهابة وأما الحديث الأمر بالاستقامة على التوحيد فهو قول الرسول : (قل آمنت بالله ثم استقم) (٣) فليست عبارة الشهادة تقتصر على التلفظ بها فحسب وإنما الاستقامة على التوحيد الكامل التي يقتضي تحقيقاً طاعة الله في كل ما أمر به والانتفاء عما نهى عنه حتى يمتليء القلب بمعرفة الله وخشيته وينعكس أثر ذلك على الأعضاء (فإن القلب هو ملك الأعضاء وهي جنوده فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه) (٤) هذه هي مواقف العلماء من الصوفية ودعوتها المنحرفة فقد اجمعوا على ذم ما تقوم به الصوفية وما تقولونه من تحريم الكسب وعدم دفع المضار بالسبل المشروعة وبيان هؤلاء العلماء الموقف الصحيح المتقيد بالكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة وهو أن التوكل لا ينافي اتخاذ الأسباب ولا تضاد بين الاثنين أبداً ، وأن كل ما ادعاه منحرفوا الصوفية في هذه القضية لا يمت إلى الإسلام بصلة نسأل الله الهداية للجميع إنه ولي ذلك وهو القادر عليه وتعالى الله عما يقوله المبتدعون والضالون علواً كبيراً والحمد لله رب العالمين .

(٢) سورة الطلاق آية : ٣

(١) جامع العلوم ص ٣٢١

(٣) روضة أحمد ومسلم وترمذي ونسائي وابن ماجه عن سفيان الثوري (كشف الخفاء حديث رقم ١٨٩٣)

(٤) جامع علوم ص ١٤٨

الخاتمة

النتائج

الباب الأول :

الفصل الأول :

- ١- نُسب الصوفية إلى أكثر من معنى ولكن تبين لديّ أن صحة نسبتهم إلى الصوف •
- ٢- اختلف في تحديد زمن ظهور الصوفية وترجح لديّ أن ظهورهم كان في بداية القرن الثاني الهجري •

الفصل الثاني :

- ١- لم تكن أكثر أفعال بعض الصوفية موافقة لما جاء به الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وسيرة الخلفاء، وأصحاب الصفة رضي الله عنهم جميعاً ، على الرغم من دعوى الصوفية أنهم متبعين لهم •
- ٢- تأثر بعض الصوفية بالشيعة تأثراً واضحاً في العقيدة والسلوك •
- ٣- اقتباس بعض الصوفية جملة من الأفكار الذخيلة على الإسلام من ديانات ومذاهب وثقافات مختلفة كالفكر اليوناني والنصرانية والبوذية •

الباب الثاني :

الفصل الأول :

- ١- التوكل عمل وأمل مع هدوء قلب وطمأنينة نفس بعكس التواكل إذ بينهما فروق كثيرة •

الفصل الثاني :

- ١- المصدر الأول للتوكل عند المسلمين ؛ أهل السنة والجماعة كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - •

الفصل الثالث :

- ١- هناك علاقة وثيقة للغاية بين التوكل والقضاء والقدر •
- ٢- التوكل لا ينافي اتخاذ الأسباب المشروعة •
- ٣- ضلال وانحراف بعض الفرق في فهم عقيدة القضاء والقدر وبيان أسباب ذلك •

الباب الثالث :

الفصل الأول:

- ١- أول انحراف - من بعض الأشخاص - في فهم عقيدة التوكل كان في عهد النبوة الزاهر .
- ٢- اعتقاد بعض الصوفية أن اصطحاب الوسائل المعينة في السفر يناقض التوكل .
- ٣- يقسم بعض الصوفية التوكل إلى عدة أقسام لم ترد في الشرع المطهر .
- ٤- ترك بعض الصوفية التداعي وتوقي الممالك لظنهم أن ذلك ينافي التوكل ويخالفه .
- ٥- ترك بعض الصوفية العمل والادخار لظنهم أن ذلك قاذح في التوكل مما جعلهم يعيشون حالة على المجتمع ويظطرون للتسول ويسببون ضرراً كبيراً للاقتصاد الإسلامي .

الفصل الثاني :

- ١- ضل بعض الصوفية في العبادات وانقسموا إلى قسمين في ذلك : قسم تواكل في العبادات ولم يفعل المشروع منها ، وقسم تشدد فيها فخرج بها عن مراد الشارع .
- ٢- وقف بعض الصوفية موقفاً سلبياً للغاية من بعض الأخطار التي تعرضت لها الأمة لزعمهم أن العمل ليس من التوكل .

- ٣- أهمل بعض الصوفية العلم الشرعي وحذروا من تعلمه ، فابتدعوا طرقاً جديدة للعلم مخالفة للشرع ومن هنا كان مصدر الخطورة •
- ٤- دعا بعض الصوفية إلى عدم الزواج لزعيمهم الباطل أن ذلك سبب في الركون إلى الدنيا •

الفصل الثالث:

- ١- وقف علماء الأمة ضد المنحرفين من الصوفية وبينوا ضلالهم وفندوا حججهم ووضحوا لهم الحق بالبرهان والدليل من الكتاب والسنة •

التوصيات والمقترحات

- ١- نظراً لأهمية العقيدة في الدين الإسلامي إذ تعتبر الفيصل في كون المرء مسلماً ، أو كافراً ، فإني أقترح انشاء مركزاً لدراسة انحرافات بعض الفرق والطوائف في العقيدة وتسليط الضوء على الأخطاء والانحرافات لديها ، ثم تصويب الأخطاء في ضوء الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح ، وجامعة الملك سعود ممثلة بكلية التربية أهل لذلك لما تتمتع به من امكانيات كبيرة .
- ٢- أقترح استحداث برنامج لمرحلة الدكتوراة في شعبة العقيدة بقسم الثقافة الإسلامية بكلية التربية لكي نحصل على دراسات متميزة وعميقة في كافة مجالات العقيدة وما يتصل بها من العلوم الأخرى .
- ٣- أوصي بضرورة دراسة نتائج الفرق المنحرفة دراسة علمية دقيقة ، ثم عرض أفكارها على ميزان الشرع ، ونشر هذه الدراسات حتى تعم الفائدة منها وخصوصاً الذين لايعرفون عن هذه الطوائف إلا ظاهراً الأمور وغالباً مايكون - هذا الظاهر - مخالف للحقيقة ولايدركه إلا قلة من الناس .
- ٤- أوصي طلاب العلم الشرعي بضرورة تكثيف جهودهم في مجال التأليف الشرعي المبسط الواضح حتى يسهل فهمه من قبل أكبر عدد من المسلمين وخصوصاً ممن يغرر بهم واقناعهم باتباع طرقاً معينة وطوائف محددة مخالفة للمنهج السلفي لظنهم أن هذه الطوائف والفرق الضالة على الحق وما سواها على ضلال ، وتوفير هذا النتاج لأكبر عدد من أبناء الأمة المسلمة ؛ لأن الضلال والانحراف لا يحدث غالباً إلا في المجتمعات الأمية الجاهلة .

الفهارس العامة للرسالة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

﴿سورة الفاتحة﴾

الآية	رقمها	رقم الصفحة
﴿إياك نعبد ٠٠٠﴾	٦	٣٦٤

﴿سورة البقرة﴾

﴿ذلك الكتاب لاريب ٠٠٠﴾	٢	٢١٣
﴿وأقيموا الصلاة ٠٠٠﴾	٤٣	٢٩٢، ٢١٩
﴿وقالوا لن يدخل الجنة ٠٠٠﴾	١١١	١٢٨
﴿ولله المشرق والمغرب﴾	١١٥	١٢٦، ١٢٣
﴿وإذا قضى أمر ٠٠٠﴾	١١٧	١٨١
﴿وإذا جعلنا البيت ٠٠٠﴾	١٢٥	٣١٨
﴿سيقول السفهاء من الناس﴾	١٤٢	١٣٠
﴿ومن الناس من يتخذ ٠٠٠﴾	١٦٥	١٤
﴿٠٠٠ وتقطعت بهم الأسباب﴾	١٦٦	٢١٢، ٢١٠
﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا ٠٠٠﴾	١٧٢	٣٤٦، ٢٧٩
﴿فمن شهد منكم الشهر ٠٠٠﴾	١٨٤	٢١١
﴿يريد الله بكم اليسر ٠٠٠﴾	١٨٥	٣٠٣، ٢٠٦
﴿ولا تاكلوا أموالكم بينكم ٠٠﴾	١٨٨	٣٠٣
﴿وأنفقوا في سبيل الله ٠٠٠﴾	١٩٥	٢٦٣، ٢٩٠، ٣٢١، ٣٤٨

﴿وتزودوا فإن خير الزاد﴾ ١٩٧ ١٧٤: ٢٢١، ٢٣١، ٢٤٧

٣٤٨	﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة...﴾ ٢٠١
٢٨٥، ٢٨٤	﴿إن الله يحب التوابين...﴾ ٢٢٢
٢٥٦	﴿... أولم تؤمن...﴾ ٢٦٠
٢٣٩	﴿مثل الذين ينفقون أموالهم...﴾ ٢٦١
٣٥٧، ٢٧٣	﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا...﴾ ٢٦٧
٢٣٩	﴿إن تبدوا الصدقات...﴾ ٢٧١
٢١٣	﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ ٢٨٢
٧	﴿ربنا لا تؤاخذنا...﴾ ٢٨٦

﴿سورة آل عمران﴾

٣٠٣، ٩	﴿قل إن كنتم تحبون الله...﴾ ٣٠
٩	﴿قل أطيعوا الله...﴾ ٣٢
٣٥٧	﴿كلما دخل عليها...﴾ ٣٧
٢٢٣	﴿إن ينصركم الله...﴾ ٦٠
١	﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً...﴾ ٨٥
٣١٧، ١٣١	﴿... والله على الناس حج...﴾ ٩٧
١	﴿واعتصموا بحبل الله...﴾ ١٠٣

٣٤٢	١١٠	﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ۖ﴾
١٦٥	١٢٢	﴿إِذَا هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ ۖ﴾
١٠	١٣٢	﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ ۖ﴾
٢٣٥، ١٦٦، ١٦١، ١٦٠	١٥٩	﴿وَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ﴾
٣٣٧	١٦٤	﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾
١٧٧، ١٦٧، ١٦١	١٧٣	﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ۖ﴾
٣٢٧	٢٠٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا ۖ﴾

﴿سُورَةُ النِّسَاءِ﴾

٣٤٩	٥	﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ۖ﴾
٣٥٦	٣٢	﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۖ﴾
١٧٠، ١٠	٥٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ۖ﴾
١٨٢	٦٥	﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا ۖ﴾
٢٦٥	٧١	﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ ۖ﴾
١٦١	٨١	﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ﴾
٩٦	٨٣	﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ ۖ﴾
٣٢٩	٩٥	﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ ۖ﴾
٢٦٥	١٠٢	﴿وَلِيَا خُذُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ﴾
٢٧٤	١١١	﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا ۖ﴾
٢٧٤	١١٢	﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً ۖ﴾
١٦٧	١٣٢	﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ۖ﴾

﴿سُورَةُ الْمَائِدَةِ﴾

١	﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ ٣
٢٨٩، ٢٨٤	﴿ما يريد الله ليجعل عليكم﴾ ٦
١١٩	﴿لقد كفر الذين قالوا﴾ ١٧
٢٧٥، ١٦٦، ١٦١، ١٦٠	﴿وعلى الله فتوكلوا﴾ ٢٣
٣٥	﴿واتل عليهم نبأ﴾ ٢٧
١١٩	﴿لقد كفر الذين قالوا﴾ ٧٣
٣٤٢	﴿كانوا لا يتناهون عن منكر﴾ ٧٩
٣٣٤	﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى﴾ ٨٣
٤٢	﴿وإذا قال الحواريون﴾ ١١٢

﴿سورة الأنعام﴾

١٨٣	﴿هو الذي خلقكم من﴾ ٢
١٦٩	﴿والسارق والسارقة﴾ ٣٨
٧٩	﴿وإذا رأيت الذين يخوضون﴾ ٦٨
١٦٤	﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ ٨٩
٢٧٣	﴿أولئك الذين هدى الله﴾ ٩٠
١٢٨	﴿بديع السموات الأرض﴾ ١٠١
٢٠٦	﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ ١٢٥
٢٠٤	﴿وأن هذا صراطي﴾ ١٥٣
١٤	﴿هذا كتاب أنزلناه﴾ ١٥٥

﴿سورة الأعراف﴾

١٤	٣	﴿كتاب أنزلناه إليك ٠٠٠﴾
٢٧٤	١٠	﴿وجعلنا لكم فيها معاش ٠٠٠﴾
٣٤٨	٣١	﴿يا بني آدم خذوا زينتكم ٠٠٠﴾
٦٧	٣٢	﴿قل من حرم زينة الله ٠٠٠﴾
١٨٥	٣٤	﴿ولكل أمة أجل ٠٠٠﴾
١٦٥	٨٩	﴿وسع ربنا كل شئ ٠٠٠﴾
٣٧	٩٩	﴿أفأمنوا مكر الله ٠٠٠﴾
١١	١٥٦	﴿ورحمتي وسعت كل شئ ٠٠٠﴾
٦٧	١٥٧	﴿الذين يتبعون الرسول ٠٠٠﴾
٢١٧	١٨٠	﴿ولله الأسماء الحسنى ٠٠٠﴾
٣٥	١٨١	﴿قل لا أملك لنفسي ٠٠٠﴾
٨٩	١٩٦	﴿وهو يتولى الصالحين﴾

﴿سورة الأنفال﴾

		﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾
٣٣٤، ١٦٦، ١٦١	٢	﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾
١٧٠، ١٠	٢٠	﴿يا أيها الذين آمنوا ٠٠٠﴾
٦٦	٢٨	﴿واعلموا أنما أموالكم ٠٠٠﴾
١٨٢	٤٢	﴿ولكن ليقتضي الله أمراً ٠٠٠﴾
٢٦٥، ٢٢٢، ٢١٣	٦٠	﴿وأعدوا لهم ما استطعتم ٠٠٠﴾

﴿سورة التوبة﴾

١٦١	٥١	﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾
٣٢٢	١٠٣	﴿خذ من أموالهم صدقة﴾
٢٨٤	١٠٨	﴿فيه رجال يحبون أن﴾
٣٠٧	١١٢	﴿السائحون﴾
٣٢٩	١٢٣	﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا﴾
١٦٤	١٢٩	﴿فإن تولوا فقل حسبي الله﴾

﴿سورة يونس﴾

٧٤	٦٢	﴿ألا إن أولياء الله﴾
١٨١	٧١	﴿ثم اقضوا إلى﴾
٢٧٤	٨٤	﴿وقال موسى يا قوم﴾

﴿سورة هود﴾

٢٣٧	٦	﴿وما من دابة في الأرض﴾
١٤	١٨	﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾
٢٦٣	٧٠	﴿فلما رأى أيديهم﴾
٢٠٤، ١٩٧	١٠٧	﴿فعال لما يريد﴾
٣٦٤	١٢٣	﴿فاعبده وتوكل عليه﴾

﴿سورة يوسف﴾

٣٣	٢	﴿إنا أنزلناه ٠٠٠﴾
١٦٨	٦٧	﴿إن الحكم إلا لله﴾
٢٠٤	١٠٨	﴿قل هذه سبيلي ٠٠٠﴾

﴿سورة الرعد﴾

١٨٥	٨	﴿وكل شئ عنده بمقدار﴾
٢٠١، ١٩٢	١٦	﴿قل من رب السموات ٠٠٠﴾

﴿سورة ابراهيم﴾

١٦٥، ١٦١، ١٦٠	١٢	﴿وعلى فليتوكل المتوكلون﴾
٢٤٠	١٤	﴿ذلك لمن خاف مقامي ٠٠٠﴾
١٥٧	٢٧	﴿يثبت الله الذين آمنوا ٠٠٠﴾

﴿سورة الحجر﴾

١٥٨	٩	﴿إنا نحن نزلنا الذكر ٠٠٠﴾
١٨٢، ١٨٠	٦٦	﴿وقضينا إليه ذلك الأمر ٠٠٠﴾
٢٩٩، ١٠٠، ٩٣	٩٩	﴿واعبد ربك ٠٠٠﴾

﴿سورة النحل﴾

٣٥٢	١٩	﴿يخرج من بطونها شراب ٠٠٠﴾
٣٠٧	٤٤	﴿وأنزلنا إليك الذكر ٠٠٠﴾
٧٩	١٢٥	﴿ادع إلى سبيل ربك ٠٠٠﴾

﴿سورة الإسراء﴾

١٣٩	٢	﴿وآتينا موسى الكتاب ٠٠٠﴾
١٨٠	٤	﴿وقضينا إلى بني إسرائيل ٠٠٠﴾
١٥٨	٩	﴿إن هذا القرآن يهدي ٠٠٠﴾
١٨١، ١٨٠	٢٣	﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ٠٠٠﴾
٣٢٤	٢٧	﴿إن المبذرين كانوا ٠٠٠﴾
٣٠٦، ٢٢١	٧٨	﴿واقم الصلاة ٠٠٠﴾

﴿سورة الكهف﴾

٣٦٢	٤٦	﴿المال والبنون زينة ٠٠٠﴾
٢١٣	٨٤	﴿إنا مكنا له في الأرض ٠٠٠﴾
٢١٣	٨٥	﴿فاتبع سبياً﴾
٢١٣	٨٩	﴿ثم أتبع سبياً﴾
٢١٣	٩٢	﴿ثم أتبع سبياً﴾

﴿سورة مريم﴾

١٨٣	٢١	﴿ولنجعله آية للناس﴾
٣٥٦, ٢٨٠, ٢١٦	٢٥	﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾
٣٣٤	٥٨	﴿واذ تتلى عليهم آيات الرحمن﴾

﴿سورة طه﴾

٢٦٣	٦٧	﴿فاوجس قي نفسه خيفة﴾
٣٣	١١٣	﴿وكذلك أنزلناه قرآناً﴾
٢٧٣	١١٧	﴿فلا يخرجنكما من الجنة﴾
١٤	١٢٣	﴿فمن اتبع هداي فلا يضل﴾
٢٧٦	١٣٢	﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾

﴿سورة الأنبياء﴾

١٢٨	٢٢	﴿ولو كان فيهما آله إلا الله﴾
١٢٨	٢٣	﴿لا يستل عما يفعل﴾

﴿سورة الحج﴾

٢٩٢	١٤	﴿إن الله يدخل الذين آمنوا﴾
٢١٢	١٥	﴿ومن كان يظن أن لن ينصره الله﴾
١٧٢	٧٠	﴿ألم تعلم أن الله يعلم﴾

٣٦٨ ، ٣٢٨

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ ٧٨

﴿سورة المؤمنون﴾

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ ١ ٢٩٢

﴿يا أيها الرسل كلوا من﴾ ٥١ ٣٤٦

﴿سورة النور﴾

﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ ٣٢ ٣٤٤

﴿وآتوهم من مال الله﴾ ٣٣ ٣٦٢

﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ ٥٢ ١٠

﴿قل أطيعوا الله﴾ ٥٤ ١٠

﴿فليحذر الذين يخالفون عن﴾ ٦٣ ١٣

﴿سورة الفرقان﴾

﴿الذي له ملك السموات﴾ ٢ ١٨٥

﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ ٤٨ ٢٩٠ ، ٢٨٣

﴿وتوكل على الحي﴾ ٥٨ ١٦١ ، ١٦٠

﴿سورة الشعراء﴾

٣٣

١٩٥

﴿بلسان عربي مبين﴾

﴿سورة النمل﴾

١٦١

٧٩

﴿فتوكل على الله ٠٠٠﴾

﴿سورة القصص﴾

١٨٣

٤٤

﴿وما كنت بجانب ٠٠٠﴾

٣٦٥، ١

٥٠

﴿ومن أضل ممن اتبع هواه﴾

٣٠٤

٧٣

﴿ومن رحمته جعل لكم الليل ٠٠﴾

٣٤٨

٧٧

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار ٠٠٠﴾

﴿سورة العنكبوت﴾

٢٦٤

٥٨

﴿نعم أجر العاملين ٠٠٠﴾

﴿سورة الروم﴾

٣٤٤

٢١

﴿ومن آياته أن خلق ٠٠٠﴾

﴿سورة لقمان﴾

﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ ٣٤ ٢٦٩

﴿سورة السجدة﴾

﴿وما كان لمؤمن﴾ ٣٦ ١٣
 ﴿يا أيها النبي﴾ ٤٥ ١٧٤
 ﴿ومن يطع الله﴾ ٧١ ١٠

﴿سورة الأحزاب﴾

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ ٣٦ ١٣
 ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ ٥٢ ١٠

﴿سورة فاطر﴾

﴿... يضل من يشاء﴾ ٨ ٢٠٧، ١٩٧

﴿سورة الصافات﴾

﴿وما منا إلا له مقام﴾ ٦٦ ٢٤١
 ﴿والله خلقكم﴾ ٩٦ ١٩٢

﴿سورة ص﴾

٢١٢	١٠	﴿أَمْ لَهُمْ مَلِكٌ...﴾
٢٦٣	٢٢	﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى...﴾
١٤	٢٩	﴿اتَّبِعُوا مَا نَزَلَ إِلَيْكُمْ...﴾

﴿سورة الزمر﴾

٣٠٨	١٠	﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ...﴾
١٤	١٨	﴿الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ...﴾
٣٣	٢٨	﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾
١٤	٤٥	﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ...﴾
١٨٤	٦٦	﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾

﴿سورة غافر﴾

٢١٢	٣٦	﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ...﴾
٢١٢	٣٧	﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ...﴾
٢٩٢، ٢١٧	٦٠	﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ...﴾

﴿سورة فصلت﴾

١٨١	١٢	﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ...﴾
٢٠٤، ١٩٨	٤٠	﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ...﴾

﴿ سورة الشورى ﴾

١٢٨	١١	﴿ ليس كمثله شئ ﴾
٢٥٤	٢٠	﴿ من كان يريد حرث ﴾
٢٧٣	٣٠	﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾

﴿ سورة الدخان ﴾

١٩٤	٤	﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾
٢٦٥	٢٣	﴿ فأسر بعبادي ليلاً ﴾

﴿ سورة الأحقاف ﴾

٢٦٤	٣٥	﴿ فاصبر كما صبر ﴾
-----	----	-------------------

﴿ سورة الفتح ﴾

٣٦	٢	﴿ ليغفر لك الله ﴾
١٠	١٧	﴿ ومن يطع الله ﴾
٩	٢٨	﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾

﴿ سورة الحجرات ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٠٠٠﴾

﴿سورة الذاريات﴾

٣٤٩	١٩	﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ٠٠٠﴾
٢٧٥	٢٢	﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ٠٠٠﴾
٢٥٣	٢٣	﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ٠٠٠﴾
٢٨٢، ٢٧٦	٥٦	﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ ٠٠٠﴾

﴿سورة الطور﴾

١٢٨	٣٥	﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ٠٠٠﴾
-----	----	--

﴿سورة النجم﴾

٢٥٤	٣٩	﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ ٠٠٠﴾
-----	----	------------------------------------

﴿سورة القمر﴾

٢٠١، ١٨٥	٤٩	﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٠٠٠﴾
----------	----	--

﴿سورة الرحمن﴾

١٩٤	٢٩	﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ٠٠٠﴾
-----	----	--

﴿سورة الواقعة﴾

١٥٨

٧٨

﴿في كتاب مكنون ٠٠٠﴾

﴿سورة الحديد﴾

٩٧

١٣

﴿فضرب بينهم بسور ٠٠٠﴾

١٩٠، ١٨٦

٢٢

﴿ما أصاب من مصيبة ٠٠٠﴾

٣٢١

٢٧

﴿ورهبانية ابتدعوها ٠٠٠﴾

﴿سورة المجادلة﴾

١٤٦

﴿إنما النجوى من الشيطان ٠٠﴾ ١٠

﴿سورة الحشر﴾

٢٣٢، ١٤

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ٠٠٠﴾ ٧

٨٧

٨

﴿للفقراء المهاجرين ٠٠٠٠﴾

٣٣٩

٩

﴿ويؤثرون على أنفسهم ٠٠٠﴾

﴿سورة الممتحنة﴾

﴿ربنا عليك توكلنا﴾

﴿سورة الصف﴾

﴿يريدون ليطفئوا نور الله﴾ ٨ ٢٤

﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ ٩ ٩

﴿سورة الجمعة﴾

﴿هو الذي بعث﴾ ٢ ٩

﴿لإذا قضيت الصلاة﴾ ١٠ ٢٧١، ٢٤٧، ٢٣٨، ١٨٧، ١٤٦

﴿سورة التغابن﴾

﴿فاتقوا الله﴾ ١٦ ٢٨٧، ٢٨٥

﴿سورة الطلاق﴾

﴿ومن يتق الله﴾ ٢ ٢٣٧

﴿ومن يتوكل على الله﴾ ٣ ٣٧٦، ٢٣٧، ١٦١، ١٦٠

﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ ٦ ١٨٤

﴿سورة التحريم﴾

٢٠٤، ١٩٨

﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ ٧

﴿سورة الملك﴾

٢٣٨، ١٨٧

١٥

﴿فامشوا في مناكبها﴾ ٠٠٠

﴿سورة الجن﴾

٣٥

٢٦

﴿عالم الغيب فلا يظهر﴾ ٠٠٠

﴿سورة الزمل﴾

٢٦٤

٩

﴿فاتخذه وكيلاً﴾ ٠٠٠

٣٠٣، ٢٩١

٢٠

﴿وأقيموا الصلاة﴾ ٠٠٠

﴿سورة النبأ﴾

٢٧٤

١١

﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾

﴿سورة التكويد﴾

٣٣٧	٢٤	﴿وما هو على الغيب ٠٠٠﴾
١٩٢	٢٩	﴿وما تشاءون إلا أن ٠٠٠﴾

﴿سورة الليل﴾

٢١١، ١٨٦	٥	﴿فأما من أعطى ٠٠٠﴾
----------	---	--------------------

﴿سورة الإخلاص﴾

١٢٧	٤، ٣، ٢، ١	﴿قل هو الله أحد الله الصمد ٠﴾
-----	------------	-------------------------------

فهرس الحديث النبوي الشريف

(أ)

طرف الحديث رقم الصفحة

- (اثنتان خير من واحد ٠٠٠) ١١
- (إنما مثلي ومثل ما بعثني الله ٠٠٠) ١٥
- (إنما مثلي ومثل الناس ٠٠٠) ١٦
- (إن مثلي ومثل الأنبياء ٠٠٠) ١٧
- (أن رجلاً جاء ٠٠٠) ١٨
- (إن مثل ما بعثني الله به ٠٠٠) ١٨
- (أول سورة انزلت فيها سجدة ٠٠٠) ١٩
- (أوصيكم بتقوى الله ٠٠٠) ٢٠
- (إنكم سترون ٠٠٠) ٢٠
- (اسق يا زبير ٠٠٠) ٢١
- (إن لكل عمل ٠٠٠) ٢٢
- (أبغض الناس إلى الله ٠٠٠) ٢٢
- (إن الرجل ليعمل عمل الجنة ٠٠٠) ٣٦
- (إذا أنفق المسلم ٠٠٠) ٦٠
- (أنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن توكل لحوم ٠٠) ٦١
- (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل البطيخ ٠٠) ٦٣
- (استقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم على فرس ٠٠) ٦٤

- (أَرَدَفَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسَامَةَ ٠٠٠) ٦٤
- (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ٠٠٠) ٣٧٢ ، ٢٨١ ، ٦٦
- (إِنْ اللَّهُ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ ٠٠٠٠) ٦٩
- (إِنْ اللَّهُ جَعَلَ الْحَقَّ ٠٠٠٠) ٧٥
- (إِنْ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ٠٠٠٠) ١٥٧
- (أَرَيْتَ الْأُمَمَ فِي الْمَوْسَمِ ٠٠٠) ١٧١
- (اللَّهُمَّ بِكَ أَسْلَمْتُ ٠٠٠) ١٧٢
- (أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ ٠٠٠٠) ١٧٣
- (إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ ٠٠٠) ١٧٥
- (إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ ٠٠٠) ١٧٦
- (إِنْ اللَّهُ وَكَلَّ بِالرَّحِمِ ٠٠٠) ١٧٧
- (أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ ٠٠٠٠) ١٨٩
- (إِنْ أَحَدَكُمْ يَجْمَعُ خَلْقَهُ ٠٠٠) ١٩٣
- (إِنْ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ ٠٠٠) ٢١٨
- (إِنْ أَعْرَابِيًّا أَتَى ٠٠٠) ٢١٩
- (إِنْ فِي الْجَنَّةِ بَابًا ٠٠٠) ٢٢٠
- (إِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَوَى ٠٠٠) ٢٢٥
- (أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةَ نَتَدَاوَى ٠٠٠) ٢٢٧ ، ٢٢٥
- (اعْقَلْهَا وَتَوَكَّلْ) ٣٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٤٥ ، ٢٣١ ، ٢٢٨
- (ادْخُرْ لِعِيَالِهِ ٠٠٠) ٢٦٢
- (إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ ٠٠٠) ٢٧٣
- (إِذَا بَلَغَ الْمَاءَ ٠٠٠) ٢٩٠
- (إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي إِنَاءٍ ٠٠٠) ٢٩١

- ٢٩٠ (إنه سيكون في هذه الأمة)
 ٢٩١ (إن الله تعالى طيب)
 ٢٩١ (إن الملائكة لا تدخل)
 ٢٩٣ (أول ما يحاسب به العبد)
 ٢٩٧ (الإمام ضامن)
 ٢٩٧ (إن الله وملائكته)
 ٢٩٨ (إنه كان أخف الناس صلاة)
 ٣٠٤ (إذا نعس أحدكم)
 ٣١٠ (إن أحب الصوم)
 ٣١٣ (أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إنني أقول)
 ٣١٣ (أفضل الصيام صيام)
 ٣١٤ (إن لزوجك عليك حق)
 ٣١٦ (إذا أصبح أحدكم يوماً)
 ٣٣٨ (إنما العلم)
 ٣٤٦ (أيها الناس إن الله طيب)
 ٣٥١ (إن الله عز وجل حرم عليكم)
 ٣٥٢ (اسقه عسلاً)
 ٣٥٨ (إن من الذنوب)
 ٣٥٨ (أفضل الأعمال)
 ٣٥٨ (إذا أنفق المسلم)
 ٣٧٢ (اللهم رحمتك أرجو)

(ب)

٧٥	(بينا أنا نائم رأيت الناس ٠٠٠)
٣٠٥	(بني الإسلام على خمس ٠٠٠)
١٨٨	(بهذا أمرتم ٠٠٠)

(ت)

٢٧٠، ٢٦٨	(تداووا فإن الذي ٠٠٠)
١٩	(ترد على أمتي الحوض ٠٠٠)
٣٤٤	(تزوجوا الودود الولود ٠٠٠)

(ث)

٧٦	(ثوبك هذا غسيل ٠٠٠)
----	---------------------

(ج)

٢٣٧	(جعل رزقي تحت ٠٠٠)
-----	--------------------

(ح)

- ٣٨٠ (حبيب إلى من دنياكم ٠٠٠)
 ١٧٧ (حسبنا الله ٠٠٠)

(خ)

- ٦١ (خير الصدقة ٠٠٠)
 ٦٤ (الخيل معقود في نواصيها الخير ٠٠٠)

(د)

- ٣٠٤ (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ٠٠)
 ١٧ (دعوني ما تركتكم ٠٠٠)
 ٦١ (دينار أنفقت في سبيل الله ٠٠٠)

(ر)

- ٢٢٢ (رباط يوم في سبيل الله ٠٠٠)
 ٣١٥ ، ٣٠٧ (رب صائم ٠٠٠)

- ٣٢٨ (رجعنا من الجهاد الأصغر ٠٠٠)
 ٢٧٥ (رخص إذا اشتكى المحرم ٠٠٠)

(س)

- ٢٢ (سنة لعنهم الله ٠٠٠)
 ٣٠٣ (سقط عن أصحاب ٠٠٠)
 ٣٥٢، ٢٧٠ (سل الله العفو ٠٠٠)
 ٣٥٨ (السؤال آخر كسب ٠٠٠)

(ص)

- ٣٠٩ (الصيام جنة)
 ٢٩٥ (الصلاة وماملكت ٠٠٠)
 ٣٠٥ (صل فإنك لم ٠٠٠)
 ٣٠٧ (الصوم لي ٠٠٠)

(ط)

- ٣٥٨ (طلب الحلال ٠٠٠)
 ٢٩١ (الطهور شطر ٠٠٠)

(ع)

٥٨	(عرض علىّ ربّي ٠٠٠)
٣٠٥	(العهد الذي بيننا وبينهم ٠٠٠)

(ف)

٣٤٩	(٠٠٠ فالثلث والثلث كثير ٠٠٠)
٦٢	(فأني إذن صائم)

(ق)

٣٧	(قاربوا وسددوا ٠٠٠)
١٩١	(قدر الله تعالى ٠٠٠)
٧٢	(قد كان في ما مضى ٠٠٠)
٣٧٦	(قل آمنت ٠٠٠)
٢١٧	(القلوب بعضها من بعض ٠٠٠)
٣٠٣	(٠٠٠ قم ونم ٠٠٠)

(ك)

- ١٧٤ (كان أهل اليمن (٠٠٠)
 ٦٣ (كان أحب الثياب (٠٠٠)
 ٦١ ، ٥٨ (كان يبيع نخل (٠٠٠)
 ٢١ (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب (٠٠)
 ٥٨ (كان يأتي علينا (٠٠٠)
 ٦٠ (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعودني (٠٠٠)
 ٦١ (كان لا يدخر شيئاً (٠٠٠)
 ٢٨٩ (كان يغتسل بالصاع (٠٠٠)
 ٢٧٩ (كسب الرجل بيده (٠٠٠)
 ٢٢٠ (كل عمل ابن آدم له (٠٠٠)
 ١٥ ، ١١ (كل أمتي يدخلون الجنة (٠٠٠)
 ١٩ (كل بيمينك (٠٠٠)
 ١٠١ (كنت نهيتكم عن زيارة (٠٠٠)

(ل)

- ٣١٥ (لاتواصلوا (٠٠٠)
 ٣٢٠ (لاتشد الرحال إلا (٠٠٠)
 ٣٣٤ (لاحسد إلا على اثنين (٠٠٠)

- (لاتحل الصدقة لغني ٠٠٠) ٣٤٠
 (لاومقلب القلوب) ٣٧
 (لأن يحتطب أحدكم ٠٠٠) ٢٦١
 (لأن يغدو أحدكم ٠٠٠) ٢٨٠
 (لايزال أحدكم في صلاة ٠٠٠) ٢٩٥
 (لروحة في سبيل الله ٠٠٠) ٣٢٦
 (لقد تركتكم على مثل البيضاء ٠٠٠) ١
 (لقد رأيته رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠٠) ٦٢
 (لعن الله اليهود ٠٠٠) ١٠١
 (لكل داء دواء ٠٠٠) ٢٢٠
 (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ٠٠٠) ١٧٣
 (لو أنكم تتوكلون على الله ٠٠٠) ١٤٧ ، ١٧١ ، ٢٣٧ ، ٢٧٥
 (لو أن الناس كلهم ٠٠٠) ٢٤٠

(م)

- (ما أنا عليه وأصحابي) ١٢
 (من أراد ٠٠٠) ١١
 (مابال أقوام ٠٠٠) ١٧
 (من دعا إلى ٠٠٠) ٢١
 (من أحدث ٠٠٠) ٢٣

٢٣	(من عمل ٠٠٠)
٣٦	(ما من امرئ إلا قلبه ٠٠٠)
٣٦١ ، ٢٥٢ ، ٤٥	(ما بعث الله نبياً إلا ٠٠٠)
٥٩	(ما تبع آل محمد ٠٠٠)
٦٤	(من لم يكن له إزار ٠٠٠)
١٤٧	(من سره أن يكون ٠٠٠)
١٤٧	(من قال بسم الله ٠٠٠)
١٧٣	(من توكل لي ٠٠٠)
١٨٦ ، ١٧٥	(ما منكم من أحد ٠٠٠٠)
١٨٨	(مهلاً يا قوم ٠٠٠)
٢٢٠	(ما من عبد يصوم ٠٠٠)
٢٢٢	(من حج ولم يرفث ٠٠٠)
٣٥٢ ، ٢٦٨ ، ٢٢٥	(ما أنزل الله داء ٠٠٠)
٢٢٦	(المؤمن القوي خير ٠٠٠)
٢٨٠ ، ٢٥٢	(ما أكل أحد طعاماً ٠٠٠)
٢٦٩	(مفاتيح الغيب خمس ٠٠٠)
٣٥٢ ، ٢٧٠	(ما من دعوة يدعوبها العبد ٠٠٠)
٣٠٥	(من ترك الصلاة ٠٠٠)
٣١٧	(من مات ولم يحج ٠٠٠)
٣٢٦	(ما اغبرتا قدم عبد في سبيل الله ٠٠٠)
٣٣٩	(ما نقصت صدقة ٠٠٠)
٣٤٠	(ما أتاك الله من هذا المال ٠٠٠)
٣٤٢	(من رأى منكم منكراً ٠٠٠)

- ٣٥١ (من قتل دون ماله ٠٠٠)
 ٣٥٨ (مكسبة فيها نقص المرتبة ٠٠٠)
 ٣٦٠ (ما يزال الرجل يسأل الناس ٠٠٠)
 ٣٦٨ (من أنتم ؟ ٠٠٠)
 ٣٦٩ (ما بال أقوام يقولون ٠٠٠٠)

(ن)

- ٣٦٢ (نعم المال الصالح ٠٠٠)
 ١٠١ (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ٠٠٠)

(هـ)

- ٢٨٨ (هكذا الوضوء ٠٠٠)
 ٦٢ (هل عندكم شيء ؟ ٠٠٠)
 ٢٢٨ (هي من قدر الله)

(و)

- ١٥ (والذي نفسي بيده ٠٠٠)

(ي)

- ٣٦٠ (يأتي السائل يوم القيامة ٠٠٠)
 ١٨٦ (يا غلام إني أعلمك كلمات ٠٠٠)
 ٣٦ (يامثبت القلوب ٠٠٠)
 ١٧٦ (يا معاذ بن جبل ٠٠٠)
 ٦٣ (يحب الحلواء ٠٠٠)
 ٢٢٥ ، ٢٤٧ (يدخل الجنة من أمّتي ٠٠٠٠)
 ٢١٧ (يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي ٠٠٠)

فهرس المراجع العامة للرسالة

- القرآن الكريم

(أ)

- الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسين علي بن اسماعيل الأشعري
المطبعة المنيرية القاهرة •
- الأبريز تأليف عبد العزيز الدباغ طبعة مصر •
- الاتجاهات الفكرية المعاصرة للدكتور جمعه الخولي بدون تاريخ طبعة •
- اتحاف السادة للزبيدي بدون تاريخ طبعة •
- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء تأليف محمد الخضير بدون تاريخ طبعة •
- اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم تحقيق عواد عبد الله الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ •
- الأحاديث القدسية طبعة دار الهجرة الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ •
- الاحتجاج تأليف أحمد بن علي الطبرسي طبعة مؤسسة النعمان بيروت •
- أحسن التقاسيم للمقدسي بدون تاريخ طبعة •
- الأحكام السلطانية تأليف أبي الحسن علي بن محمد الماوردي الطبعة
الأولى سنة ١٣٢٧ هـ •
- الإحكام في أصول الأحكام الأمدى بدون تاريخ طبعة •
- إحياء علوم الدين تأليف أبو حامد محمد الغزالي دار الكتب العلمية
بيروت •

- الاختصاص للشيخ المفيد تحقيق محمد باقر مكتبة بصيرتي .
- الأخلاق عند الغزالي الدكتور زكي مبارك دار المعارف مصر .
- الآداب الشرعية الكبرى لابن مفلح تحقيق وطبع مطبعة المنار سنة ١٣٤٩ هـ .
- أديان الهند الكبرى الدكتور أحمد شلبي طبعة القاهرة ١٩٦٤م وطبعة مكتبة النهضة الطبعة التاسعة ١٩٩٠م .
- الأذكار من كلام سيد الأخيار للإمام محي الدين أبي زكريا النووي دار المعرفة بيروت الطبعة الثالثة .
- الارشاد إلى صحيح الاعتقاد الدكتور صالح الفوزان الرياض ١٤١٢ هـ .
- ارشاد الفحول إلى علم الأصول تأليف محمد بن علي الشوكاني مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- أساس التأويل للنعمان القاضي طبعة دار الثقافة بيروت الطبعة الأولى .
- أسباب النزول للإمام أبي علي أحمد النيسابوري تحقيق السيد أحمد دار القبلة .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين ابن الأثير تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد عاشور طبعة الشعب .
- الأشباه والنظائر للإمام جلال الدين السيوطي تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي دار الكتاب العربي الطبعة الأولى .
- الإصابة في تمييز الصحابة أحمد بن حجر العسقلاني تحقيق علي الجاوي مطبعة نهضة مصر القاهرة .
- أصل الشيعة وأصولها محمد حسين آل كاشف الغطاء طبعة بيروت .
- أصول الدين للإمام أبي منصور عبد القاهر البغدادي بدون تاريخ طبعة .

- الأصول من الكافي محمد يعقوب الكايني تحقيق علي الغفاري الطبعة الرابعة ١٣٩٢هـ
- الاعتصام تأليف ابراهيم بن موسى بن اسحاق الشاطبي طبعة دار التحرير التجارية .
- أضواء على مقارنة الأديان الدكتور محمد طلعت أبو صير الطبعة الأولى دار الطباعة المحمدية ١٤٠٨هـ .
- الأعلام خير الدين الزركلي دار العلم للملايين بيروت لبنان .
- أعلام النبوة لأبي حاتم الرازي تحقيق صلاح الصادي طبعة انجمن ١٣٩٧هـ .
- الافتخار لأبي يعقوب السجستاني طبعة لبنان .
- أقرب الموارد سعيد الخوري طبعة مرسلي بيروت ١٩٨٩م .
- الاكتساب في الرزق المستطاب تأليف محمد بن الحسن الشيباني تحقيق سهيل زكار وطبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان بتحقيق محمود عرنوس
- الإمام ابن تيمية وموقفه من التأويل تأليف محمد السيد الجانيد بدون تاريخ طبعة .
- الانتصار لأبي الحسين عبد الرحيم بن عثمان الخياط مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤هـ .
- الإنسان في ظل الأديان الدكتور محمد عمارة نجيب مكتبة المعارف الرياض طبعة ١٤٠٠هـ .
- الأنوار القدسية في مناقب النقشبندية محمد أمين كردي بدون تاريخ طبعة

- إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني مطبعة البابي الحلبي
الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢هـ وطبعة المكتبة الثقافية بيروت •
- الإيمان للإمام أبو عبيد القاسم بن سلام تحقيق محمد ناصر الدين الألباني
المكتب الإسلامي •
- الإيمان والحياة الدكتور يوسف القرضاوي مكتبة وهبة •
- الإيمان للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة تحقيق محمد
ناصر الدين الألباني طبعة المكتب الإسلامي •

(ب)

- بحار الأنوار محمد باقر المجلسي دار الكتب الإسلامية •
- البداية والنهاية أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي مكتبة المعارف طبعة
١٩٦٦م •
- البدعة الدكتور عزت علي عطية دار الكتاب العربي الطبعة الثانية •
- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد الزركشي تحقيق محمد
أبو الفضل دار المعرفة بيروت

(ت)

- تاج العروس من جواهر القاموس محب الدين أبي الفيض الواسطي طبعة
مكتبة الحياة لبنان •
- تاريخ التراث العربي فؤاد سيزكن الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٨م •

- تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الدكتور عبد الرحمن بدوي وكالة المطبوعات الكويت الطبعة الأولى ١٩٧٥م .
- تاريخ الإمامية عبد الله فياض مؤسسة الأعلمي بيروت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥هـ .
- تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم دار القلم بيروت لبنان .
- تاريخ التصوف (أردو) يوسف جشتي طبعة علماء أكدي وزارة الأوقاف باكستان .
- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام الدكتور محمد علي أبو ريان دار النهضة العربية بيروت .
- تدوين السنة ابراهيم فوزي ، رياض الرئيس للكتب والنشر طبعة ١٩٩٤م .
- تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي أبو عبد الله شمس الدين طبعة دار احياء التراث العربي بيروت .
- تذكرة الأولياء فريد الدين العطار (أردو) طبعة باكستان .
- التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .
- التصوف المنسأ والمصادر إحسان إلهي ظهير إدارة ترجمان السنة باكستان الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ .
- التصوف في الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه الدكتور عبد اللطيف محمد العبد .
- التصوف والمتصوفة عبد الكريم الخطيب دار الفكر العربي الطبعة الأولى ١٩٨٠م .

- التصوف ماسينيون ومصطفى عبد الرازق دار الكتاب اللبناني طبعة ١٩٨٤م .
- التصوف منشؤه ومصطلحاته تأليف الدكتور أسعد السحمراني دار النفائس بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .
- التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً الدكتور محمد كمال جعفر دار المعرفة الجامعية الإسكندرية طبعة ١٩٨٠م .
- التصوف في الإسلام الدكتور عمر فروخ بيروت دار الكتاب العربي سنة ١٤٠١هـ .
- كتاب التعريفات للعلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني مكتبة لبنان طبعة ١٩٩٠م .
- تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين بن كثير مكتبة دار التراث العربي القاهرة .
- تفسير الجلالين جلال الدين المحلي وجمال الدين السيوطي دار القلم .
- التفسير الكبير للإمام فخر الرازي بدون تاريخ طبعة .
- تلبيس ابليس جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن المعروف بابن الجوزي دار الجيل بيروت .
- تنوير القلوب تأليف محمد أمين كردي .
- التوكل على الله للحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا تحقيق مجدي ابراهيم مكتبة القرآن .
- تيارات الفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة دار الشروق .
- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ محمد سلمان .

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر
السعدي طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة
والإرشاد •

- تقريب التهذيب تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، حققه
وعلق عليه ووضحه وأضاف إليه أبو الأشبال صغير أحمد شاغف
الباكستاني ، تقديم بكر عبد الله أبو زيد ، دار العاصمة للنشر والتوزيع •

(ج)

- جامع الأصول في أولياء تأليف أحمد الكشمخاوي طبعة المطبعة الراهبية طرابلس ١٢٩٨هـ .
- جامع العلوم الملقب بدستور العلماء في اصطلاحات العلوم والفنون للقاضي عبد النبي عبد الرسول أحمد شكري .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم تأليف زين الدين أبي الفرج بن رجب مكتبة المعارف الرياض .
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
- جامع كرامات الأولياء يوسف النبهاني طبعة المكتبة الثقافية و طبعة دار صادر بيروت .
- جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف لأبي الفيض المنوفي الحسيني طبعة مؤسسة الحلبي القاهرة .

(ح)

- حاشية الروض المربع بشرح زاد المستقنع جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الطبعة الأولى .
- الحب بين العبد والرب تأليف أحمد بن نصيب المحاميد الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ دار الفكر دمشق .
- الحث على التجارة والصناعة والعمل الحلال للخلال بدون تاريخ طبعة .

- الحضارة الإسلامية آدم متر ترجمة عربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة طبعة القاهرة ١٩٤٨م.
- حقائق عن التصوف عبد القادر عيسى مكتبة الوفاء حلب الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ.
- حقيقة التصوف وموقف الصوفية من أصول العبادات الشيخ فوزان الفوزان دار العاصمة.
- حقيقة الصوفية تأليف أبي سعيد التونسي طبعة مكتبة الفارابي.
- الحكومة الإسلامية آية الله الخميني طبعة دار الطليعة بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء تأليف أبو نعيم الأصفهاني دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثالثة.
- حوار هادي مع الغزالي سلمان العودة بدون تاريخ طبعة.
- حياة الإمام الحسين بن علي تأليف باقر شريف القرشي مطبعة الآداب الطبعة الثاني سنة ١٣٩٠هـ.
- حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب عماد الدين الأموي بهامش قوت القلوب طبعة صادر بيروت وطبعة دار الفكر.

(خ)

- الخصال لأبن بابويه القمي طبعة مكتبة الصدوق.
- الخطط تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقرئ مصري طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.

(د)

- دار السلام فيما يتعلق بالرؤيا وال المنام ميرزا حسين النوري الطبرسي •
- دراسات في الفلسفة الإسلامية عبد اللطيف محمد العبد مكتبة النهضة المصرية •
- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية الدكتور عرفان عبد الحميد مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى •
- درر الغواص على فتاوي سيدي علي الخواص تأليف عبد الوهاب الشعراني بهامش الإبريز للدباغ طبعة مصر •
- الدر اللقيط من البحر المحيط تاج الدين الحنفي النحوي بهامش البحر المحيط لأبي حيان دار الفكر الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ •
- الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ومناهجهم الدكتور محمد طلعت أبو صير المطبعة العربية الحديثة القاهرة ١٤٠٦ هـ •
- ديوان الحلاج تقديم وتعليق وتصحيح عبد الحفيظ محمد مدني الطبعة الثانية •
- دائرة المعارف الإسلامية أحمد الشناوي وإبراهيم زكي •
- دائرة المعارف بطرس البستاني •

(ذ)

- الذخيرة في الحقيقة علي بن الوليد طبعة دار الثقافة بيروت لبنان .

(ر)

- الرسالة للإمام محمد بن ادريس الشافعي المكتبة العلمية بيروت لبنان .
- الرسالة التدمرية مجمل اعتقاد السلف لشيخ الإسلام ابن تيمية طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- الرسالة القشيرية في علم التصوف تأليف عبد الكريم القشيري تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي دار الجيل بيروت الطبعة الثانية سنة ١٤١٠هـ .
- رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي دار الرشد الرياض الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ .
- الرعاية لحقوق الله تأليف أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي تحقيق عبد القادر أحمد عطاء دار الكتب العلمية بيروت لبنان .
- الرد على الأخنائي تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الإرشاد الرياض سنة ١٤٠٤هـ .

- رسائل ابن عربي - رسالته إلى الإمام فخر الرازي - دار إحياء التراث العربي بيروت طبعة ١٣٦١هـ .
- الرحيق المختوم تأليف صفي الرحمن المباركفوري دار القلم بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ .
- الروض المربع بشرح زاد المستقنع للعلامة الشيخ منصور البهوتي تحقيق محمد عوض دار الكتاب العربي .

(ز)

- زاد المعاد في هدي خير العباد ابن قيم الجوزية مؤسسة سالم الطبعة ١٤ سنة ١٤١٠هـ .
- الزهد جامع أبواب الخير والإيمان تهذيب عبد الهادي البشري دار المؤتمن للنشر .

(س)

- السنة النبوية لابن أبي عاصم الشيباني تحقيق محمد ناصر الدين الألباني طبعة المكتب الإسلامي الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .
- سير أعلام النبلاء للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي .
- سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبعة دار إحياء الكتب العربية وطبعة المكتبة العلمية بيروت لبنان .

- سنن الدارمي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي تحقيق عبد الله هاشم طبعة باكستان ١٤٠٤هـ .
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي المكتبة الإسلامية استانبول تركيا .
- السنة قبل التدوين للخطيب طبعة دار الفكر الطبعة الخامسة .
- السيرة النبوية لابن هشام تحقيق الدكتور محمد فهمي السرجاني دار الفكر .
- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي الطبعة الثالثة مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب طبعة ١٤١٤هـ .

(ش)

- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار أحمد الهمذاني مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ .
- شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي .
- شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز الحنفي تحقيق جماعة من العلماء طبعة المكتب الإسلامي الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ .
- شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية الدكتور صالح فوزان الفوزان الطبعة الخامسة الرياض المملكة العربية السعودية .
- شرح الكلمات الصوفية للنفري بدون تاريخ طبعة .
- شرح المنار لابن مالك .

- شفاء العليل في مشائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية
دار التراث القاهرة •

(ص)

- صحيح البخاري (الجامع الصحيح) للإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري المطبعة السلفية الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .
- صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري طبعة المكتبة الإسلامية تركيا الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ .
- صفوة الصفوة لأبي الفرج بن الجوزي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٩ م .
- الصلة بين التصوف والتشيع الدكتور كامل مصطفى الشبيبي طبعة دار الأندلس بيروت الطبعة الثالثة .
- صفوة التفاسير محمد علي الصابوني طبع على نفقة حسين عباس شربتلي دار القرآن الكريم بيروت .
- الصوفية في الإسلام عباس العقاد .
- صيد الخاطر لابن الجوزي تحقيق عبد الرحمن البر دار اليقين للتوزيع الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

(ط)

- الطبقات الكبرى لابن سعد دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٠ م .
- الطبقات الكبرى للشعراني دار الفكر طبعة ١٣٧٤ هـ .
- طبقات الصوفية للسلمي تحقيق نور الدين شريعة دار الكتاب النفيس الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .

- الطبقات في خصوص الصالحين والأولياء محمد ضيف الله الجعلي
المكتبة الثقافية بيروت •
- طبقات الحفاظ للحافظ جلال الدين السيوطي تحقيق على محمد عمر مكتبة
وهبة الطبعة الأولى رجب ١٣٩٣هـ •
- الطب النبوي تأليف ابن قيم الجوزية دار الفكر •
- الطواسين للحلاج •
- الطيبات من الرزق جمع وترتيب أبي ذر القلموني البشر للنشر والتوزيع
القاهرة •

(ع)

- العقائد الباطنية وحكم الإسلام فيها الدكتور صابر طعيمة المكتبة الثقافية
بيروت الطبعة الثانية ١٤١١هـ •
- عوارف المعارف تأليف عبد القاهر عبد الله السهروردي دار الكتاب
العربي بيروت الطبعة الثانية •
- عقيدة التوكل عند أهل السنة (رسالة ماجستير) نور محمد مصيري كلية
التربية للبنات بجدة عام ١٤٠٨هـ •
- علوم الحديث تأليف صبحي الصالح •
- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للشيخ الإمام بدر الدين أبي محمد
محمود ابن أحمد العيني طبعة المطبعة المنيرية بيروت

- عون المعبود شرح سنن أبي داود للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان المكتبة السلفية الطبعة الثانية
- العمدة في الأحكام في معالم الحلال والحرام للمقدسي تحقيق مصطفى عطا دار الكتب العلمية بيروت لبنان .
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان تأليف بدر الدين العيني مخطوط في مكتبة سليم آغا بتركيا برقم ٨٣٤ .
- العقلية الصوفية ونفسانية أهل التصوف تأليف علي زيعور بيروت دار الطليعة طبعة ١٩٧١م

(غ)

- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية النفري الرندي طبعة دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٧٠م .

(ف)

- فيض القدير في شرح الجامع الصغير للمناوي دار الحديث القاهرة .
- في تاريخ التراث العربي فؤاد سيزكين .
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن علي بن حجر
- العسقلاني طبعة دار البيان للتراث القاهرة وطبعة دار المعرفة بيروت لبنان
- في التصوف الإسلامي وتاريخه رينولد ألين نيكلس ترجمة أبي العلاء عفيفي .
- في الفلسفة الإسلامية د: ابراهيم مذكور مصر دار المعارف سنة ١٩٨٣م

- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة عبد الرحمن عبد الخالق طبعة الكويت .
- الفتوحات الإلهية ابن عجيبة الحسني طبعة عالم الفكر القاهرة .
- فاكهة البستاني تأليف عبد الله البستاني .
- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة تأليف أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني طبع مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٧٧هـ .
- الفهرست لابن النديم دار المعرفة بيروت لبنان .
- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية في حاشية إيقاظ الهمم لأحمد بن عجيبة الحسني دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .
- فتح القدير تأليف محمد بن علي محمد الشوكاني دار إحياء التراث العربي بيروت .
- الفرق بين الفرق عبد القاهر البغدادي دار المعرفة بيروت لبنان .
- في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة محمود أحمد خفاجي .
- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء جمع وترتيب الشيخ أحمد عبد الرزاق الدويش طبعة دار أولى النهى الطبعة الأولى .
- فقه السنة السيد سابق دار الفكر .
- فضائح الصوفية عبد الرحمن عبد الخالق مكتبة ابن تيمية الكويت .
- فصوص الحكم لابن عربي بشرح بالي .
- الفرقا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية .
- الفرقان بين الحق والباطل لشيخ الإسلام تحقيق الشيخ حسين غزال دار إحياء العلوم بيروت .

- فضائح الباطنية أبو حامد محمد الغزالي تحقيق عبد الرحمن بدوي الدار القومية للطباعة القاهرة •
- في علم الكلام تأليف الدكتور محمود صبحي دار النهضة العربية الطبعة الخامسة •

(ق)

- القاموس المحيط للفيروز آبادي مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية •
- قوت القلوب في معاملة المحبوب أبوطالب المكي طبعة دار الفكر •
- قواعد التصوف أحمد زريق مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٧٦م •
- قاعدة جلية في التوسل و الوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية المكتب الإسلامي •
- قاموس المنجد في اللغة والأعلام دار المشرق بيروت الطبعة ٣٣ •
- قصة الحضارة تأليف ول ديورات ترجمة عربية محمد بدران طبعة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية القاهرة ١٩٦٤م •
- القضاء والقدر في الإسلام الدكتور فاروق الدسوقي •
- القرطبي والتصوف تأليف مشهور حسن محمد سليمان دار الكتب الأثرية الطبعة الأولى •
- قطر الولي على حديث الولي للإمام الشوكاني تحقيق الدكتور ابراهيم هلال توزيع دار الباز للنشر والتوزيع •

(ك)

- الكتاب المقدس العهد الجديد دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط .
- كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للشيخ اسماعيل بن محمد العجلوني تصحيح و تعليق أحمد القلاش مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ .
- كشف المحجوب للهجويري دراسة وتعليق الدكتورة اسعاد عبد الهادي قنديل راجع الترجمة الدكتور أمين عبد المجيد بدوي دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٨٠م
- الكواكب الدرية عبد الرؤوف الماوى
- الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ محمد القاسم المكتبة الإسلامية .
- كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد التهانوي الهيئة العامة للكتاب مصر الطبعة الأولى .
- الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين محمد محمد جابر طبعة مكتبة الجندي بالقاهرة .
- كنوز الحقائق للمناوي .

(ل)

- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور دار صادر

- لطائف المنن لابن عطاء الاسكندري تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود مطبعة حسان القاهرة •
- اللمع في التصوف تأليف أبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور دار الكتب الحديثة مصر
- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان تأليف محمد فؤاد عبد الباقي دار الريان للتراث •
- لوامع الأنوار البهية للسفاريني طبعة قطر •

(م)

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن محمد بن القاسم دار عالم الكتب •
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد نور الدين بن علي بن أبي بكر الهيثمي نشر المقدسي سنة ١٣٥٣هـ •
- معجم المصطلحات الصوفية الدكتور أنور أبي خزام مكتبة لبنان •
- معجم المؤلفين عمر رضا كحالة مكتبة المتنبى بيروت لبنان وطبعة دار احياء التراث العربي •
- المعجم الصافي في اللغة العربية صالح العلي وأمينة الأحمد مكتبة الناصر الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ •
- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٤١١هـ •

- المفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهاني تحقيق وضبط محمد سيد الكيلاني دار الباز للنشر والتوزيع وطبعة دار المعرفة بيروت لبنان .
- المعجم الوسيط ابراهيم مصطفى وآخرون مجمع اللغة العربية الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ .
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب مكتبة لبنان طبعة ١٩٧٨م .
- مقدمة ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن خلدون دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .
- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية الدكتور أحمد البناني جامعة أم القرى الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ .
- مختصر صحيح مسلم دار مكتبة الهلال الطبعة الأولى ١٩٨٧م .
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض الطبعة الأولى .
- الملل والنحل تأليف أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل دار الفكر .
- مختار الصحاح محمد بن أبي بكر الرازي مكتبة لبنان .
- المغني لأبي محمد عبد الله بن قدامة مكتبة الرياض الحديثة .
- من لا يحضره الفقيه أبو جعفر محمد بن بابويه القمي دار الكتب الإسلامية الطبعة الخامسة ١٣٩٠هـ .
- المزار محمد علي الفضل بدون تاريخ طبعة .
- المزار محمد علي المشهدي بدون تاريخ طبعة .
- المزار محمد همام بدون تاريخ طبعة .
- المزار محمد أحمد داود بدون تاريخ طبعة .
- محيط المحيط بطرس البستاني بدون تاريخ طبعة .

- من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة الدكتور محمد السيد الجاني
دار اللواء بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ .
- مجموع الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية .
- المعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية طبعة ١٣٩٩هـ .
- مدخل إلى التصوف الإسلامي د: أبو الوفا التفتازاني طبعة مصر .
- مختصر تفسير ابن كثير اختصار وتحقيق علي الصابوني دار القرآن الكريم .
- مقارنة الأديان أحمد شلبي مكتبة النهضة المصرية القاهرة الطبعة العاشرة
- متى - انجيل - الطبعة الثانية .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام أبي عبد
الله بن محمد بن قيم الجوزية دار الحديث القاهرة .
- منهاج المسلم تأليف أبو بكر الجزائري الطبعة الثامنة دار الفكر .
- مختصر منهاج القاصدين للإمام ابن قدامة المقدسي مؤسسة الكتب
الثقافية .
- من أعلام السلف تأليف محمد بن عبد الله النملة بدون تاريخ طبعة .
- المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد الشيخ محمد أبو زهرة دار الفكر
العربي .
- مناهل العرفان في علوم القرآن محمد عبد العظيم الزرقاني دار احياء
التراث العربي .
- الموافقات في أصول الشريعة أبو اسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبي
تحقيق الشيخ عبد الله دراز المطبعة الرحمانية مصر .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث
القاهرة الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ .

- المدخل لدراسة الفقه الإسلامي الدكتور عبد الرحمن الصابوني •
- مذكرة أصول الفقه الشيخ محمد الشنقيطي دار القلم بيروت •
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير تأليف أحمد بن محمد المقرئ الفيومي •
- مشيئة الله ومشيئة العباد عبد الكريم الخطيب •
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري مكتبة النهضة المصرية الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ •
- المغني في أبواب العدل والتوحيد القاضي عبد الجبار أحمد الهمداني دار الثقافة والإرشاد مطبعة الكتب الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ •
- مجموع الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر دار الريان للتراث القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ •
- مجلة الحرس الوطني - السعودي - السنة الرابعة عشر العدد ١٣٣ ربيع الأول ١٤١٤هـ •
- مجلة الأصالة السنة الثامنة عام ١٣٩٩هـ عدد صفر وربيع الأول •
- الموفي بمعرفة التصوف والصوفي تأليف كمال الدين أبي الفضل تحقيق الدكتور محمد عيسى صالحية الكويت •
- المنح القدوسية لأبي القاسم سيدي أحمد بن مصطفى دار ابن زيدون •
- مكاشفة القلوب أبو حامد الغزالي القاهرة طبعة الشعب •
- المواقف تأليف محمد بن عبد الجبار طبعة دار الكتب المصرية القاهرة
- مسند الإمام أحمد بن حنبل •
- مسند أبي يعلى •

- موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية الدكتور عبد المنعم الحفني دار الرشاد .
- موسوعة الفرق الإسلامية الدكتور محمد جواد مشكور مجمع البحوث الإسلامية بيروت لبنان .
- المكاسب للحارث بن أسد المحاسبي تحقيق عبد القادر عطا مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ -

(ن)

- نحو إقلوب الصغير للقشيري تحقيق أحمد علم الدين الجنيدي ليبيا دار العربية للكتاب •
- النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية دار القلم بيروت لبنان •
- نظرات في السيرة للبناء •
- نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها الدكتور عبد الحميد عرفان المكتب الإسلامي بيروت •
- النفحة العلية في أورد الشاذلية عبد القادر زكي مكتبة المتنبى القاهرة •
- النقشبندية عرض وتحليل تأليف عبد الرحمن دمشقية دار طيبة الطبعة الثالثة •
- نيل الأوطار من كلام سيد الأخيار للإمام محمد بن علي الشوكاني دار الفكر بيروت •
- نزهة المجالس عبد الرحمن للصفوري طبعة مكتبة الشرق الجديد بغداد العراق •

(هـ)

- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين اسماعيل بن محمد البغدادى •
- هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه في القرآن والسنة أحمد عبد الغنى الجمل الوفاء للطباعة والنشر الطبعة الأولى •

(و)

- الوافي تأليف الفيض الكاشاني المكتبة الإسلامية طهران •
- وسائل الشيعة إلى تحقيق الشريعة محمد بن الحسن الحر العاملي دار
إحياء التراث العربي الطبعة الثانية •
- الوصية الكبرى في عقيدة أهل السنة والفرقة الناجية لشيخ الإسلام ابن
تيمية المطبعة السلفية الطبعة الثالثة •
- وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة
مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م

(ي)

- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر عبد الوهاب الشعراني دار
المعرفة بيروت (١) •

(١) بلغ عدد مصادر البحث ومراجعة ٢٦٩ مصدراً ومرجعاً

فهرس الموضوعات العامة

١	المقدمة
٩	التمهيد
٢٧	التعريف بالصوفية
٤٦	نشأة الصوفية
٥٥	العوامل التي أسهمت في تكوين الفكر الصوفي
٥٧	العامل الإسلامي
١٠٧	العامل الأجنبي
١٣٩	بيان معنى التوكل والتواكل
١٤٦	الفرق بين التوكل والتواكل
١٤٨	شروط التوكل ودرجاته
١٥٤	مصادر التوكل عند أهل السنة والجماعة
١٥٨	التوكل في الكتاب الكريم
١٦٩	التوكل في السنة الشريفة
١٨٠	علاقة التوكل بالقضاء والقدر
١٨٩	حكم الإيمان بالقضاء والقدر
١٩٠	مراتب القضاء والقدر
١٩٣	أنواع القضاء والقدر
١٩٥	من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر
١٩٦	مذاهب بعض الفرق في القضاء والقدر
٢٠٣	من أسباب ضلال بعض الفرق في مسألة القضاء والقدر

منسب للملحق
١٠٧
١٣٩
١٤٦
١٤٨
١٥٤
١٥٨
١٦٩
١٨٠
١٨٩
١٩٠
١٩٣
١٩٥
١٩٦
٢٠٣

٢٠٨	علاقة التوكل بالقضاء والقدر
٢١٠	علاقة التوكل بالأخذ بالأسباب
٢١٢	الأخذ بالأسباب في القرآن
٢١٤	الأخذ بالأسباب في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم
٢١٨	الأخذ بالأسباب في العبادات
٢٣١	البداية التاريخية لقضية التوكل حسب المفهوم الصوفي
٢٣٥	التوكل وأنواعه عند الصوفية
٢٥٦	أحوال المتوكلين وأعمالهم عند الصوفية
٢٨١	مظاهر التوكل عند الصوفية في العبادات
٣٢٦	مظاهر التوكل عند الصوفية في السنن وفروض الكفاية
٣٤٤	مظاهر التوكل عند الصوفية في الحياة الاجتماعية
٣٥٤	مواقف العلماء من التوكل عند الصوفية
٣٧٩	النتائج
٣٨٣	التوصيات والمقتراحات
٣٨٤	الفهارس العامة للرسالة